http://www.al-maktabeh.com

القدس الشريف

د. يوسف حسن غوانمة

القدس الشريف

أ.د. يوسف حسن غوانمة

أستاذ التاريخ و الحضارة

جامعة اليرموك

الطبعة الأولى

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

القدس الشريف

رقم التصنيف: 956.4
رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: 2002/2/337
المؤلف ومن هو في حكمه: يوسف حسن غوانمة
عنوان الكتاب: القدس الشريف
الموضوع الرئيسي: القدس / تاريخ فلسطين / فلسطين
بيانات النشر: دار الفكر .. عمان
* تم اعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

1423 - 2002

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

سوق البتراء (الحجيري)- هاتف: ٤٦٢١٩٣٨
فاكس ٤٦٥٤٧٦١ ص.ب: ١٨٣٥٢٠ عمان ١١١١٨ الأردن

Tel: 4621938 Fax: 4654761

P.O Box: 183520 - Amman - 11118 Jordan

ISBN 9957-07-280-3

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

القدس الشريف

أ.د. يوسف حسن غوانمة

أستاذ التاريخ و الحضارة

جامعة اليرموك

الطبعة الأولى

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م

دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الاهداء

إلى جلالة الملكة رانية العبد الله ملكة المملكة الأردنية الهاشمية.

إلى المملكة الإنسانة، صاحبة القلب الكبير بعطائها وإخلاصها وانتمائها الصادق لوطنها وأمتها.

إلى أطفال الحجارة، وشهدائنا في فلسطين الحبيبة، والقدس الخالدة.

أهدي هذا الكتاب

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

المقدمة

ظل موضوع القدس من أهم الموضوعات التي لامست مشاعر العرب والمسلمين منذ العصور الوسطى حتى الوقت الحاضر. فقد تعرضت المدينة المقدسة للاحتلال الفرنجي (الصليبي) في العصور الوسطى، وقام الفرنج الأوروبيون بتصفية جسدية وعرقية لأهالي المدينة المقدسة، حتى أن فوشية دي شارتر مؤرخ الحملة الأولى قال : أن القدم كانت تغوص حتى الكاحل في دماء المسلمين داخل حرم المسجد الأقصى، أما المؤرخ الفرنجي وليم الصوري فقد قال: لم يكن باستطاعتك تمييز شخصيات جنودنا، لأنهم كانوا ملطخين بالدماء من أعلى الرأس حتى أخمص القدم. هكذا فعل الغربيون بنا، وعانى أهلنا من الظلم ، والتعسف والجور والقتل والاحتلال الاستعماري الاستيطاني سنوات عديدة. ولم نتخلص من هذا الاحتلال إلا بالوحدة. وحدة صلاح الدين التي ضمت مصر والشام والعراق والحجاز واليمن، وكان النصر لنا في حطين سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م وتحرير المدينة المقدسة. وهنا تظهر سماحة الإسلام وتسامحه واعتداله وروحه السمحة المتسامحة النبيلة، فلم ينتقم المسلمون من الفرنج، بل سمحوا لهم بالخروج من المدينة المقدسة بحرية تامة. فالمسلمون لم يقوموا بأية مذبحة في كل تاريخهم الطويل، بل أن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة الأخيار أوصوا جنودهم أن لا يقتلوا شيخاً ولا طفلاً ولا امرأة ، وأن لا يهدموا كنيسة أو ديرا، وأن يعاملوا القسس والرهبان بالسماحة والمعاملة الحسنة، وكان الرسول ﷺ قد أعطى اليهود في المدينة المنورة حقوقا مدنية وسياسية غير منقوصة، وعاملهم معاملة حسنة، هكذا فعل المسلمون مع النصارى في بلاد

الشام ومصر وشمال إفريقيا والأندلس وبقية أنحاء العالم. ما كنا ولن نكون قتلة، بل جعل المسلمون الدخول في الإسلام خيارا للشخص دون ضغط أو خوف ، قال تعالى " لا إكراه في الدين".

ونحن اليوم نعاني من ظلم واستبداد اليهود في فلسطين واحتلالهم للقدس منذ سنة ١٩٦٧م. فالمؤسسات الإسلامية والمسيحية تنوء تحت الاحتلال الصهيوني في القدس الخالدة. فإذا كان أجدادنا في الماضي قد كتبوا الكثير عن القدس، وذكروا فضائلها ومحاسنها، وما ألمّ بها من ظروف وحوادث واحتلال. فنحن اليوم أحوج ما نكون إلى تأليف العديد من الكتب عن المدينة المقدسة ، لإبراز الدور الكبير والمشرف للعرب والمسلمين في القدس الشريف. حتى تبقى ذكراها خالدة متجددة في أفئدة أبنائنا وبناتنا، ليعملوا على تحريرها من أيدي الغاصبين الصهاينة، تماما كما حررها الأجداد من أيدي الفرنجة (الصليبيين) في العصور الوسطى. فالقدس أعادها الأجداد بالجهاد والبذل والدماء، والقدس اليوم لن تعود إلا بالجهاد والتضحية والفداء، لأن اليهود المغتصبين المتشددين لا يريدون الخروج من القدس لزعمهم أنها عاصمتهم الأبدية. ولكنهم سيخرجون منها بعون الله بهمة أبنائنا وشهدائنا، وتصميم وصبر شعوبنا وامتنا الواحدة،

والله من وراء القصد

اربد ٧/ ١٢/ ٢٠٠١م

يوسف غوانمة

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الباب الأول

الاحتلال الفرنجي (الصليبي) للقدس ثم الجهاد والتحرير

- أحوال بلاد الشام قبل الحملة الفرنجية الأولى .
- سقوط القدس بيد الفرنجة.
- تأسيس مملكة بيت المقدس اللاتينية
- الصحوة والإفاقة وصيحة الجهاد
- الجهاد والوحدة وتحرير القدس
- الخلاف بين الملوك الأيوبيين وتسليم القدس للفرنج
- تحرير القدس على يد الملك الناصر داود أمير إمارة الكرك الأيوبية
- تطهير وتحرير الساحل الفلسطيني من الفرنج

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

أحوال بلاد الشام
في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري
(الحادي عشر الميلادي)

تعرض المشرق الإسلامي إلى سلسلة من الصراعات والخلافات بين القوى التي تطمع في الحكم والسيطرة. ففي سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م تغلب البويهيون بقيادة معز الدولة على بغداد، وحجروا على الخليفة العباسي أبو القاسم عبد الله المستكفي بالله (٣٣٣-٣٣٤هـ/ ٩٤٤-٩٤٦م) ، واستبدوا في الملك، وبذلك تدخل الدولة العباسية تحت النفوذ البويهي، وبقي الأمر كذلك حتى ظهرت قوة جديدة من الأتراك من بني سلجوق، فتقدموا إلى خراسان بزعامة طغرلبك، فملكوها، وملكوا طبرستان ، ثم اصبهان وفارس من بني بويه، وأخيرا تقدم طغرلبك سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م إلى بغداد فغلب عليها من يد معز الدولة ابن بويه، المستبدين على الخليفة العباسي أبو جعفر عبد الله القائم بالله (٤٢٢-٤٦٧هـ/ ١٠٣١-١٠٧٥م)، فحجر طغرلبك على الخليفة ، واستبد بالأمور دونه، وهكذا يبدأ نفوذ جديد على الدولة العباسية هو النفوذ السلجوقي.

ويرى ابن خلدون أن النفوذ العربي في الدولة العربية الإسلامية في المشرق الإسلامي، ينتهي منذ منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. فقد تسلم الأتراك السلطة في العراق والشام، وتسلمها من بعدهم أولئك الذين ربوا في كنفهم، وتحت رعايتهم :كالزنكيين ، والأيوبيين ثم المماليك. ويعلق ابن خلدون على ذلك قائلا : "وانقبضت العرب راجعة الحجاز، مسلوبة من الملك ، كأنه لم يكن لهم فيه نصيب".

ظهرت في أوروبا بنفس الفترة الزمنية التي تعرض بها الشرق الإسلامي

للتفتت والتمزق وسيطرة الأتراك على السلطة إلى دعوة أطلقها البابا اربان الثاني، في سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م تدعو إلى تخليص قبر المسيح، وإنقاذ القدس والأراضي المقدسة من قبضة العرب المسلمين ، وقد استغل رجال الدين المسيحيين في أوروبا العاطفة الدينية لإشعال هذه الحروب بين الشرق والغرب، جاعلين من الدين ستارا يخفون وراءه أطماعهم وأهدافهم. وكان لبطرس الناسك وغيره من الوعاظ والمبشرين المسيحيين دور كبير في إثارة الغرب المسيحي ضد الشرق العربي الإسلامي، وكان لوعظهم بالإضافة لخطبة البابا أربان الثاني النارية في كليرمون، دور كبير في تعبئة النفوس المسيحية بالحقد والكراهية ضد العرب والمسلمين. وقد أثر هذا التحريض والإثارة باسم الدين في اندفاع المواطنين في أوروبا للانخراط في الحملات الفرنجية التي وجهت نحو بلاد الشام، لأن الدين كانت له مكانته في المجتمع الغربي الوسيط، كما أن أوروبا امتازت بالتعصب الأعمى في هذه الناحية.

وهكذا فقد أخذت هذه الدعوة طابعا دينيا، ولكن الباحث المتقصي يرى أن الكنيسة والبابوية كانت تهدف إلى أمور أخرى. نذكر منها التخلص من مضايقات أمراء الإقطاع لها، وإرسالهم في هذه الحروب إلى الشرق الإسلامي، بالإضافة إلى أن هؤلاء الأمراء كانوا يطمعون في الاستيلاء على إقطاعات جديدة، ومكتسبات مادية وعسكرية أخرى . كما هدفت الكنيسة والبابوية من وراء هذه الدعوة إلى توحيد الكنيستين الشرقية والغربية باستيلائهم على القسطنطينية معقل الكنيسة الشرقية الأرثذوكسية. كما إننا لا نجانب الحقيقة إذا قلنا بأن الهدف الديني كان واجهة لهذه الحروب التي استمرت في شرقنا العربي مئتي سنة، وهذا ما أكده المؤرخ الفرنسي رينيه جروسيه في كتابه (حصيلة التاريخ)، بأن الحركة الفرنجية (الصليبية) لم تقم نتيجة لدوافع دينية.

http://www.al-maktabeh.com

يقول الدكتور جوزيف نسيم في كتابه (العرب والروم واللاتين في الحرب

http://www.al-maktabeh.com

الصليبية الأولى): "أن الحروب الصليبية التي حمل المشتركون فيها شارة الصليب، هي في الواقع حروب التوسع[١] والاستعمار ضد دولة الروم والمسيحيين الشرقيين ، الذين كانوا ينظرون إليهم باعتبارهم هراطقة وملحدين. وهي في ذات الوقت حروب التوسع والتعصب والاستعمار ، ضد العرب والمسلمين في المشرق والمغرب ، الذين رأوا فيهم خطرا يتهددهم ، فعملوا على القضاء على استقلالهم، وتفتيت وحدتهم، وإعاقة تكتلهم، تحقيقاً لاتجاهاتهم الاستعمارية". وهكذا لم يكن الباعث الديني هو الدافع الرئيسي لتلك الحركة، بل كان ستاراً لتغطية الأغراض الحقيقية، السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والشخصية والتوسعية يقول المؤرخ رينيه جروسيه: " أن الحرب الصليبية أدت إلى توسع استعماري للغرب المسيحي في الشرق العربي على حساب الإسلام"

أما على صعيد الجبهة العربية الإسلامية، فقد تمكن السلاجقة من السيطرة على مقاليد الأمور في بغداد، وكانت القاهرة تحت نفوذ الدولة الفاطمية. وكانت بلاد الشام في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي تتعرض إلى ظروف صعبة بسبب الصراع الذي نشب بين العباسيين والفاطميين للاستحواذ عليها. أضف إلى ذلك أن مصادمات عنيفة حدثت بين السلاجقة والبيزنطيين، ففي سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م هاجم السلطان ألب أرسلان البيزنطيين، وانتصر على امبراطورهم رومانوس دايجينوس وأسره في معركة ملاذكرد. وقبل ان يتوجه لملاقاة الإمبراطور ترك في بلاد الشام طائفة من عسكر الأتراك، منهم الأمير أتسز بن أوق الخوارزمي التركماني. فتوجه أتسز إلى دمشق وحاصرها ونهب قراها، ولكنه لم يتمكن منها، وبقيت قواته تحاصر دمشق مدة ثلاث سنوات، وأخيراً تمكن منها سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٦م فهرب نائبها الفاطمي حيدرة بن ميرزا الكتامي، وقد عانت دمشق الكثير أثناء حصاره لها. أما أخوه الأمير شكلي بن أوق، فقد انتزع عكا وطبرية من الفاطميين سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٥م، وبذا بدأ

السلاجقة الأتراك يسلخون بلاد الشام عن الدولة الفاطمية مدينة بعد أخرى.

أصبحت مدينة القدس ضمن أملاك الأمير اتسز بن أوق، الذي سار بقواته إلى مصر سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م للاستيلاء عليها لحساب السلطان السلجوقي ملكشاه الذي خلف والده ألب ارسلان، إلا أن حملته باءت بالفشل، وعاد هارباً مهزوماً إلى الشام. ونتيجة لهزيمته هذه، ضعف مركزه في الشام، فتمرد عليه أهلها وثاروا. ففي القدس ثار الأهالي بقيادة قاضي القدس، واستولوا على أموال الأمير اتسز وأولاده التي تركها هناك. إلا انه هاجم القدس، وتمكن من دخولها بالقوة وقتل بها ثلاثة عشر ألفاً، وذبح قاضيها كما يقول المؤرخ الذهبي في كتابه (دول الإسلام الجزء الثاني الصفحة الرابعة).

وحاول أمير الجيوش بدر الجمالي وزير الدولة الفاطمية أن يعيد السيطرة على بلاد الشام ويرد على اتسز ومحاولته غزو مصر. فأرسل سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م جيشاً بقيادة ناصر الدولة الجيوشي، فاستولى على أعمال فلسطين وأعمال دمشق، ثم حاصر دمشق وضيق عليها. فاضطر اتسز إلى مراسلة تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان السلجوقي، وكان إذ ذاك يحاصر حلب، مستنجداً به ويعده بتسليم دمشق إليه. فسار تتش بقواته سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م إلى دمشق، وعندما علم ناصر الدولة الجيوشي بمقدمة رفع الحصار عن دمشق، واتجه إلى الساحل ومنها إلى مصر. وعندما اقترب تتش من دمشق خرج أتسز إلى لقائه فألقى تتش القبض عليه وقتله، وبعمله هذا كما يقول الذهبي: " احسن إلى الرعية، وفرحوا بقتله اتسز لجوره وعسفه". ثم أن السلطان ملكشاه فاقطع دمشق وأعمالها لأخيه تاج الدولة تتش، الذي قام بدوره، فاقطع الأمير ارتق بن اكسب التركماني مدينة القدس وأعمالها .

أما بقية مدن بلاد الشام فقد كانت حلب للسلطان ملكشاه الذي قام بدوره فاقطعها مع اللاذقية وحماه إلى نائبة الأمير قسيم الدولة آقسنقر والد عماد الدين

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

زنكي، وجد نور الدين محمود زنكي. وفي سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، اقطع السلطان ملكشاه مدينة انطاكية للأمير ياغي سنان. وفي سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م توفي الأمير ارتق بن اكسب أمير القدس، فآلت القدس إلى ابنيه سكمان وايلغازي، وبذا تشكلت في بلاد الشام ما يسمى بإمارات المدن.

ومما تجدر ملاحظته أن بلاد الشام في هذه الفترة كانت موزعة بين الملوك والأمراء السلاجقة والعرب على النحو التالي:

* مملكة حلب وكان على رأسها، الملك رضوان بن تُتُش.
* مملكة دمشق وكان على رأسها، الملك دقاق بن تتش.
* إمارة أنطاكية وكان على رأسها، الأمير ياغي بن سنان.
* إمارة بيت المقدس وكان على رأسها، الأميران سكمان وايلغازي.
* إمارة شيزر وكان يحكمها الأمير العربي أبو العساكر سلطان بن منقذ.
* إمارة طرابلس وكان يحكمها الأمير العربي، أبو علي فخر الملوك ابن عمار.
* إمارة حمص وكان يحكمها الأمير العربي، جناح الدولة ابن مُلاعب.

أما السلاجقة فقد انقسمت دولتهم بسبب صراعاتهم على السلطة على النحو التالي:

* سلطنة فارس (أصفهان) على رأسها بركياروق وكان يحكم بغداد أيضاً.
* مملكة خراسان وما وراء النهر، على رأسها أبو الحرث سنجر.
* سلطنة سلاجقة الروم، على رأسها قلج أرسلان بن سليمان ابن قتلمش.

هذا بالإضافة إلا خلافتين:

الأولى: الخلافة العباسية في بغداد.

الثانية: الخلافة الفاطمية في القاهرة.

وكانت هذه القوى ممزقة متشاحنة متصارعة عند فجر الحروب الفرنجية (الصليبية)، مما كان له اكبر الأثر في نجاحها، وتكريس وجودها في الوطن العربي لقرنين من الزمان. ويصف ابن القلانسي حالة الأمة العربية والإسلامية آنذاك قائلاً: " وفي هذه السنة ٤٩٥هـ/ ١١٠١م وردت الأخبار بما أهل خراسان والعراق والشام عليه من الخلاف المستمر والشحناء والحروب والفساد، وخوف بعضهم من بعض، لاشتغال الولاة عنهم وعن النظر في أحوالهم بالخلف والمحاربة (ذيل تاريخ دمشق، ص١٤٠).

سقوط القدس بيد الفرنجة في الحملة الفرنجية الأولى

وصلت طلائع الحلة الفرنجية الأولى إلى البسفور في منتصف رجب ٤٩٠هـ/ أواخر حزيران ١٠٩٧م، ثم واصلت تقدمها عبر الأناضول، فافتتحت نيقية، ومرعش وحصون الدروب، ووصلت إلى جبل السماق. وأخيراً اصطفت جموعها أمام مدينة انطاكية وشددت عليها الحصار مدة تسعة اشهر، فسقطت المدينة بأيديهم في أول رجب ٤٩١هـ ٣ حزيران ١٠٩٨م.

اتجهت القوات الفرنجية بعد فتح إنطاكية نحو الجنوب، فما هو موقف الإمارات العربية تجاه هذه القوات؟؟. إن الإمارات التي استقلت في بعض المدن الشامية عند ضعف السلطة السلجوقية هي: شيزر، وطرابلس وحمص. وقبل أن يتجه الفرنج إلى هذه الإمارات استولوا على معرة النعمان في ١٢ صفر ٤٩٢هـ/ ١١ كانون أول ١٠٩٨م. وكان أهلها قد طلبوا العون والمساعدة من الملك رضوان بن تتش صاحب حلب، وجناح الدولة ابن ملاعب صاحب حمص. إلا أن صيحاتهم لم تجد تجاوباً، ويذكر ابن القلانسي أن الفرنج قتلوا في معرة النعمان عشرين ألف رجل وامرأة وصبي.

وعندما كان الفرنج في كفر طاب، أرسل إليهم أبو العساكر سلطان بن منقذ صاحب شيزر سفارة تعهدّ بموجبها بألا يعترض سبيلهم عند اختراقهم إقليم

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

شيزر، وانه سيقدم إليهم كل ما يحتاجون إليه من غذاء، وقد لاقت هذه العروض قبولاً لدى ريموند أحد قادة الفرنج. وفي ربيع الأول ٤٩٣هـ/ ١٧ كانون ثاني ١٠٩٩م، أرسل ابن منقذ للفرنج دليلين ليرشدهم في عبورهم إقليم العاص.

أما أمير حمص جناح الدولة ابن ملاعب، فقد أرسل إلى الفرنج رسلاً بينما كانوا في حصن الأكراد، وكان هؤلاء الرسل محملين بالهدايا الثمينة. وتعهد بتقديم الأموال والطعام لهم، شريطة أن لا يتعرضوا له بسوء، وقد قبل الفرنج هذا العرض، وكان ذلك في ربيع الأول ٤٩٣هـ/ ٢٧ كانون ثاني ١٠٩٩م.

وبينما كان الفرنج في طريقهم إلى طرابلس، مروا بمدينة مصياف، فخرج إليهم أميرها العربي، وعقد معهم اتفاقية، مقابل تقديم الأموال والميرة لهم. وعندما كانت القوات الفرنجية في طريقها نحو الجنوب، أرسل أمير طرابلس فخر الملوك ابن عمار رسله إلى الفرنج، وتعهد بدفع الأموال لهم. كما بادر برفع أعلامهم على أسوار المدينة وغيرها من المواقع، إشارة إلى ولائه لهم. وبالمقابل أرسل الفرنج رسلهم إلى ابن عمار ليتفقوا على الشروط، ولاحظ الرسل مقدار غنى طرابلس، لذا قرروا زيادة المبالغ المتفق عليها.

وكانت مدينة جبلة ضمن أملاك ابن عمار، إلا أن القاضي أبو محمود عبد الله بن منصور استطاع الاستقلال فيها. وعندما حاصرها الفرنج وضيقوا عليها خرج إليهم القاضي، واتفق على أن يدفع لهم مبلغاً من المال، وعددا من الخيول.

وبعد أن اطمأن الفرنج إلى أن الأمور تسير بمثل هذا اليسر والسهولة، وغادروا إقليم طرابلس في ١٦ أيار ١٠٩٩م. وقد تولى إرشادهم على الطريق إدلاء من طرابلس، أرسلهم ابن عمار معهم، فوصلوا بيروت بعد ثلاثة أيام. وقد قدم أهل بيروت للفرنج الأموال مقابل أن لا يتعرضوا إلى مزارعهم، ووعدوهم بالتبعية لهم، وحدث نفس الشيء مع صيدا وعكا والرملة.

وأخيراً اصطفت القوات الفرنجية حول بيت المقدس، واحكموا الحصار

حولها، فقام الأهالي متكاتفين في تحصين مدينتهم، وتعبئة حاميتها استعداداً للمواجهة.ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل اندفعت جموع الأهالي من المناطق المجاورة، ومعهم التعزيزات العسكرية لتقديم العون لحاميتها، والدفاع عن المدينة المقدسة، كما جلبوا معهم الأرزاق والطعام استعداداً للحصار.يقول المؤرخ وليم الصوري مؤرخ مملكة بيت المقدس اللاتينية: لقد بالغ المواطنون في الدفاع عن مدينتهم وتحصينها، واعتلوا الأسوار والأبراج، وراحوا يراقبون كل حركة من حركات جيشنا. ورغم كل ذلك اقتحم الفرنج المدينة المقدسة، وذلك يوم الجمعة ٢٢ شعبان ٤٩٢هـ/ ١٥ تموز ١٠٩٩م بعد حصار دام أربعين يوماً.

استباح الفرنج المدينة المقدسة وقتلوا كل السكان الذين كانوا موجودين في أنحاء المدينة وعند دخول الفرنج المدينة التجأ قسم من الأهالي إلى المسجد الأقصى واحتموا به، فاقتحمت القوات الفرنجية المسجد، وقتلوا عشرة آلاف شخص كانوا محتمين فيه. فلم يتركوا امرأة ولا طفلاً ولا شيخاً إلا وقتلوه، ويذكر المؤرخون الفرنج ومنهم المؤرخ(فوشيه دي شارتر) الذي كان مرافقاً للحملة وأرّخ لها فيقول : " كانت القدم تغوص حتى الكاحل في دماء المسلمين". ويعلق المؤرخ وليم الصوري مؤرخ مملكة بيت المقدس اللاتينية فيقول : " لم يكن بالإمكان التطلع إلى هذا العدد الهائل من القتلى، دون أن تصاب بفزع شديد، فكل الأرض كانت ملطخة بدماء القتلى. وكان من الصعب أن تحملق بالمنتصرين الفرنج، حيث كانوا ملطخين بالدماء من الرأس إلى أخمص القدمين، فمنظرهم يسبب الرعب لكل من يقابلهم " أما المؤرخون المسلمون فيذكر ابن الأثير أن الفرنج قتلوا في المسجد الأقصى سبعين ألفاً من بينهم عشرة آلاف عالم وفقية، ونهبوا من قبة الصخرة أربعين قنديلاً من الفضة، زنتها أربعة عشر ألف درهم ، بالإضافة إلى مائة وعشرين قنديلا من الفضة، وأخذوا من الأموال مالا يحصى.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وهنا نطرح التساؤل التالي: لماذا نجح الفرج في حملتهم بسهولة فاحتلوا إنطاكية ثم دانت لهم معظم المدن الشامية الساحلية، وتوجوا فتوحاتهم هذه باحتلال القدس؟؟. وفي هذا المقام لا بد أن نذكر تعجب بعض المؤرخين المسلمين بخصوص هذا الحدث الهام، فالمؤرخ أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي ، يقول: "والعجب أن الفرنج لما خرجوا إلى المسلمين، كانوا في غاية الضعف من الجوع وعدم القوت، حتى أنهم أكلوا الميتة وكانت عساكر الإسلام في غاية القوة والكثرة، فكسروا المسلمين وفرقوا جموعهم "(النجوم الزاهرة،ج٥ ص١٤٨).

ومن دراستنا للأوضاع السائدة في الشرق الإسلامي آنذاك ، نستطيع القول أن تواطؤاً وتواكلا وتقاعسا حدث في الجبهة الإسلامية. فالمصادر أكدت أن قوة مصر العسكرية كانت قادرة على دحر الحملة الأولى والقضاء عليها. إلا أن وزير الدولة الفاطمية في مصر آنذاك الأفضل بن بدر الجمالي، لم يوجه هذه القوات لمحاربة الفرنج. بل انه بدلاً من ذلك أرسل إليهم سفارة بينما كانوا يحاصرون إنطاكية. ويؤكد ذلك المؤرخ الفرنجي ريمون داجيل، وهو من أوائل الذين أرخوا للحملة الفرنجية الأولى وشاهد عيان لأحداثها. فيذكر أن السفراء الفاطميين وصلوا بعد سقوط إنطاكية بيدهم، فهنؤهم على عملهم هذا وانتصارهم على السلاجقة الأعداء التقليديين لهم. وأشاروا إلى المعاملة الحسنة التي كان يعاملها الفاطميون للنصارى في مصر،(تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ص ١١٢). وتم الاتفاق بين الطرفين الأفضل وزير الدولة الفاطمية والفرنج على اقتسام بلاد الشام بينهما، فيأخذ الفرنج الأجزاء الشمالية، بينما تكون الأجزاء الجنوبية من نصيب الفاطميين ومن ضمنها مدينة القدس. لذا خرج الأفضل بجيش من مصر عدته عشرون ألفاً ، وقاده بنفسه إلي بيت المقدس، وانتزعها من أميريها سكمان وايلغازي لأنها ضمن أملاكه حسب المعاهدة التي

تمت بينه وبين الفرنج، ثم عاد إلى مصر. حدث كل هذا والخليفة الفاطمي المستعلي لا حكم له على الأفضل لأنه كان مستبداً بالأمور دونه" النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٤٥".

وبعد وصول الجيوش الفرنجية إلى طرابلس، أرسل الأفضل إليهم سفارة أخرى طلب منهم التشديد على الأتراك السلاجقة، والخلافة العباسية في بغداد، واحتلال المزيد من أملاكهم في الشام. ولكي يثبت لهم حسن نواياه، واستعداده للتعاون معهم، وكمكافأة لهم لما فعلوا. ذكر لهم انه سوف يمنحهم امتيازاً خاصاً، وذلك بالسماح لمجموعات من الحجاج غير المسلمين لزيارة القدس، تكون كل مجموعة بين مئتين إلى ثلاثمائة شخص، وتعهد بأن يعيدهم سالمين بعد أداء مراسم الحج (وليم الصوري، النسخة الإنجليزية، ج١، ص٣٢٦).

اعتبر الفرنج هذه السفارة، وهذا العرض إهانة لهم، فطلبوا من السفارة المصرية العودة ومعهم الجواب التالي: (أن الجيش لن يقبل الذهاب هناك في فصائل صغيرة طبقا للحالات المقترحة، وعلى النقيض من ذلك ، فإنه سيزحف إلى القدس كجيش واحد متحد) (وليم الصوري، ج١، ص٣٢٦).

هذا التغير الذي طرأ على موقف الفرنج وجعلهم ينقضون معاهدة الصداقة المعقودة بينهم وبين الأفضل، سببها واقع الحال في بلاد الشام والشرق الإسلامي عامة، فانتصارهم في إنطاكية، شجعهم على المضي في تحقيق هدفهم والوصول إلى القدس. بالإضافة إلى أنهم خلال وجودهم في بلاد الشام، عرفوا أحواله، ودرسوا ظروفه. فالتمزق والخلاف كان على أشده، والقوات السلجوقية كانت في شغل شاغل بسبب الانشقاق الذي دب في صفوفهم، فكانت قواتهم موزعة. كما أن القوات الفرنجية لم تواجه جيشا إسلاميا موحدا، اثنا تقدمهم نحو بيت المقدس واحتلالها.

فالخلافات والصراعات بين القادة المسلمين ومحاربتهم بعضهم بعضا،

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وانقساماتهم وأطماعهم الشخصية والإقليمية، وانعدام الثقة فيما بينهم، وظلهم وتعسفهم لرعاياهم، وخوف بعضهم من بعض، كل ذلك أدى إلى تحالفهم مع الأجنبي وتسليمه الأرض العربية. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تحالفوا معه ضد بعضهم البعض، وحاربت جيوشهم مع جيوشه ضد خصومهم من أبناء جنسهم ودينهم.

أصيب المسلمون بالدهشة والذهول لما آلت إليه أحوالهم وسقوط مدينة القدس بيد القوات الفرنجية، ونتيجة رفض المسلمين لما حل بالديار الشامية ، خرج الأفضل بقواته من مصر متثاقلا متباطئاً في طريقه إلى عسقلان فوصلها في رمضان ٣٩٢هـ/آب ١٠٩٩م. ومن عسقلان أرسل الأفضل إلى الفرنج يوبخهم على ما فعلوه، ومن نقضهم للمعاهدة التي أبرمها معهم. فما كان منهم إلا أن هاجموه على غرة، وقتلوا من قواته الكثير، فتحصن في عسقلان واحتمى خلف أسوارها، ولم تتمكن قوات الفرنج من دخولها فعادوا إلى القدس. وظلت عسقلان بيد الفاطميين حتى سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م، وهذا دلالة على أن القوة الفاطمية كانت حقيقية، ولكنها لم توجه بإخلاص لمحاربة ومواجهة الفرنج.

وهكذا فقد تخلت الخلافة الفاطمية عن بلاد الشام وبيت المقدس بالذات، وعندما حاولوا نجدة أهل الشام فيما بعد، كانت حملاتهم مجرد حملات استعراضية، حتى أن المؤرخ أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي قال: وليتهم لم يرسلوها. أما الخلافة العباسية في بغداد، فقد تنادى العلماء والفقهاء الشاميون، وخرجوا إلى بغداد لطلب النجدة من الخليفة العباسي أبو العباس المستظهر بالله. وجلسوا في الجامع الكبير ببغداد، وذكروا ما حل بالديار الشامية والمقدسات الإسلامية ، وتذكر المصادر التاريخية بأنهم (بكو وأبكوا) (ابن الأثير ، الكامل، ج١٠،ص ٢٨٤). إلا أن الخليفة لم يكن له نفوذ، فطلب من السلطان السلجوقي بركياروق نجدة أهل الشام، فأرسل السلطان قوات رمزية

، فهزمت في أول لقاء مع الفرنج، وهكذا تركت بلاد الشام لمصيرها، دون نجدة من القاهرة أو بغداد.

هذا هو الموقف الرسمي في مصر والعراق والشام، فما هو الموقف الشعبي والأهلي من الاحتلال الفرنجي للساحل الشامي وفلسطين والقدس؟؟ فبعد استيلاء الفرنج على القدس، قاوم الأهالي هذا الوجود وحاربوه بشدة، ورفضوا وجوده في بلادهم ولم يقبلوا التعاون أو التعامل معهم. حتى أن سكان المدن والقرى الساحلية الفلسطينية هجروها، واتجهوا إلى الداخل، أو إلى منطقة شرقي الأردن أو دمشق، فتعطلت الزراعة في الساحل الفلسطيني. وكانت سياسة الفرنج تجاه أهالي فلسطين، تتمثل في عرض عضلاتهم وإرهابهم، وبلغت المقاومة الشعبية أوجها، حتى أنهم تمكنوا من السيطرة على الطريق بين الرملة وبيت المقدس، ومنعوا الفرنج من ولوجه. وقد عبر وليم الصوري عن هذه (المقاومة الشعبية) قائلا: كانت البلاد مليئة بالعصابات، ومن جراء ذلك أصبح الطريق بين الرملة والقدس محفوفا بالمخاطر. وقد هاجم بغدوين الأول (بلدوين)، سكان المناطق المجاورة للقدس والرملة وعاقبهم دون رحمة، وسفك دماء الكثيرين منهم، لسيطرتهم على هذه الطريق ، ومقاومتهم للاحتلال الفرنجي لبلادهم. وظلت المقاومة الشعبية متأججة في فلسطين، فسكان القرى الفلسطينية كانوا يعبرون خير تعبير عن المقاومة للمحتل المغتصب ، ورفضهم للوجود الفرنجي في بلادهم والتعاون معهم. فقد انضم هؤلاء إلى كتائب المجاهدين المسلمين في بلاد الشام، وكانوا على علاقات قوية بهم، يساعدونهم ، ويعملون كإدلاء لقواتهم عندما تدخل فلسطين. وذكر وليم الصوري عن تأثير المواطنين الفلسطينيين قائلا: أنهم كانوا أعداء قساة لشعبنا، وأنهم علموا عدونا كيف يدمرونا، وكانوا قادرين على ذلك، لأنهم يملكون معلومات كافية عن حالتنا، إذ لا يوجد أكثر دمارا وتأثيرا من وجود عدو داخل أبوابنا، فقد تحولوا

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

كل البلاد إلى مقاطعة من الرعب، ولم يجرؤ أي شخص على الخروج من التحصينات.

ومن هنا نرى أن الموقف الشعبي في فلسطين والشام كان إيجابيا، فقاوموا الاحتلال والوجود الفرنجي قدر استطاعتهم، وبذلوا دماءهم في سبيل القدس والمدن الشامية الأخرى.ونتيجة للموقف المتخاذل الذي وقفه الفاطميون والسلاجقة، وخلافاتهم وصراعاتهم فيما بينهم، تمكن الفرنج من تكريس وجودهم في القدس العربية الإسلامية، وفي الأرض الفلسطينية والشامية. وكان بإمكان الأفضل بن بدر الجمالي وزير الدولة الفاطمية، تغيير مجرى الأحداث ولكنه لم يفعل ولم يخلص النية في مقاومة الفرنج. فأبو المحاسن يوسف بن تغري بردي يقول: " واشتغل بها عن السواحل الشامية حتى استولت الفرنج على غالبها، وندم على ذلك حين لا ينفع الندم". فالأفضل كان يعمل على توطيد وإيجاد ملك له في مصر، خصوصاً وأن الخلافة الفاطمية كانت تسير من ضعف إلى ضعف، بالإضافة إلى انه كان يود ضرب أعدائه السلاجقة والخلافة العباسية في بلاد الشام، ليعيد سيطرته عليها، ولكن جهوده باءت بالفشل. فانشغل بهذه الأطماع عن الخطر الفرنجي، لا بل تعاون معهم في اقتسام بلاد الشام، حتى تكون القوة الفرنجية الجديدة في شمال الشام حاجزاً يحول بينه وبين الممالك الإسلامية الأخرى المجاورة. فالصراعات والخلافات بين القادة المسلمين، وخروج مصر من المعركة، وضعف الخلافة العباسية في بغداد، كل ذلك أدى إلى ضياع القدس وفلسطين ومعظم بلاد الشام فسقطت جميعها بأيدي القوى الفرنجية الأوروبية الاستعمارية الاستيطانية.

تأسيس مملكة بيت المقدس اللاتينية

اجتمع زعماء الفرنجة بعد أن احتلوا القدس لتنظيم أمورهم في القدس

واختيار قائد لهم وللدولة الجديدة التي هم بصدد تأسيسها. وهنا بدأت المشكلة الأولى في الظهور وهي هل يكون رأس هذه الدولة من العلمانيين ام من الكنسيين؟؟. وعلينا أن لا ننسى أن للكنيسة الغربية الكاثوليكية الفضل في الدعوة للحروب الفرنجية (الصليبية) لأن البابا أوربان الثاني هو صاحب الفضل في ذلك. ولما كان كرسي بيت المقدس خالياً بسبب وفاة بطرق القدس الأرثوذكسي(سمعان) في قبرص، وذلك قبل استيلاء الفرنجة علىٰ القدس. لذا أصبحت دولة الفرنجة مطلقة الحرية في تعيين أحد رجال الدين الكاثوليك بطرقاً على القدس.(عاشور، الحركة الصليبية،ج١،ص٢٥١).وبعد نقاش ومداولات تم الاتفاق على أن يكون في رأس هذه الدولة الجديدة جودفري بوايون، فتسلم حكم هذه المملكة الناشئة في ٤٩٣هـ/ تموز ١٠٩٩م. رفض جورفري لقب ملك واكتفى بلقب (حامي بيت المقدس)، اعترافاً منه بأن الدولة الجديدة ليست لها الصفة السياسية البحتة، وان لها صفتها الدينية التي تجعل للكنيسة نوعاً من الإشراف عليها، أي أن هذه الدولة جمعت بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية، أي النظامين (الملكي والثيوقراطي). توفي جودفري سنة ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م، فتولى حكم القدس أخوه بلدوين الأول فجعل من هذه الدولة مملكة وراثية.

اكمل الفرنج احتلال المدن الساحلية فاستولوا على أرسوف وقيسارية سنة ٤٩٣هـ،/ ١١٠٠م وقتلوا أهلها ونهبوا ما فيها، وجعلوا من يافا بندر بيت المقدس على البحر المتوسط. وفي شوال سنة ٤٩٤هـ/ آب ١١٠٠م سقطت مدينة حيفا بأيدي الفرنج، فقتلوا من بها، وكانت حيفا ثغراً تجارياً هاماً، ومركزاً مزدهراً للصناعات البحرية. أما عكا فقد احتلوها عنوة في رمضان ٤٩٧هـ/ أيار ١١٠٤م. وفي ذي الحجة ٥٠٢هـ/ تموز ١١٠٩م تمكن بغدوين(بلدوين الأول) ملك القدس بمساعدة صنجيل صاحب إنطاكية من تشديد الحصار على طرابلس، فملكوها بالسيف بعد حصار دام سبع سنوات، ونهبوا ما فيها، واسروا رجالها

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وسبوا نساءها وأطفالها ولم تستطع أساطيل الأفضل نجدتها، فأبو المحاسن يقول عن الأفضل : "وإن كان أرسل مع الأسطول عسكرا فهو كلا شئ (النجوم الزاهرة، ج٥، ص١٧٨). ولضعف الموقف الفاطمي سقطت بقية المدن الساحلية، فسقطت بيروت في شوال ٥٠٣هـ/ ١١١٠م، وسلمت صيدا في جمادى الآخر ٥٠٤هـ/ كانون أول ١١١٠ أما صور فقد صمدت طويلاً واستبسلت في محاربة الفرنج إلا أنها استسلمت أخيرا في جمادى الآخر ٥١٨هـ/ ١١٢٤م، وبذلك اصبح الساحل الشامي كله تحت السيطرة الفرنجية.

وكان أول توسع للفرنج خارج أرض فلسطين في منطقة جنوب شرقي الأردن، فقد وعى بلدوين الأول أهمية المنطقة لمملكته، فاندفع بقواته نحوها سنة ٥٠٩هـ/ ١١١٥م، واستقر المقام به في الشوبك، حيث وجد آثار وبقايا قلعة قديمة، تتميز بموقع استراتيجي ممتاز. فأعاد بلدوين بناءها وشحنها بالرجال والعتاد. وجعل منها نقطة مراقبة للطرق الموصلة بين دمشق والقاهرة. وللتحكم في سير القوافل التجارية القادمة من اليمن والبحر الاحمر، وعرفت هذه القلعة باسم (مونتريال) تكريماً لذكرى بلدوين الأول الذي أعاد بناءها. ثم أقام الفرنج بوادي موسى جنوب الأردن الحالي عدة حصون وهي: سلع، الوعيرة، هرمز وطفيل، وذلك تمكينا لسيطرتهم على الشريان الاقتصادي القادم من الشرق الأقصى عبر البحر الأحمر. ولم يكتف بلدوين بذلك، بل اندفع في سنة ٥١٠هـ/ ١١١٦م نحو البحر الأحمر في رأس خليج ايلة (العقبة)، فاحتل ايلة(العقبة) وأعاد بناء قلعة ايلة، وحصنها وزودها بالعتاد والرجال، ثم أعاد بناء وتحصين قلعة جزيرة فرعون التي لا تبعد كثيراً عن الساحل، وشحن كلا من القلعتين بالحاميات العسكرية. ثم بنى أسطولاً في ميناء ايلة (العقبة)، وبذا اصبح للفرنج وجود في البحر الأحمر، وصار لهم جزء من تجارة الشرق الأقصى عبر هذا الميناء بالإضافة إلى أن قواتهم العسكرية وأسطولهم البحري اصبح موضع تهديد

للمقدسات الإسلامية في مكة والمدينة. ثم اكمل الفرنج احتلال منطقة جنوب الأردن باحتلالهم للكرك سنة ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م، وبذا أصبحت هذه المنطقة أحد بارونيات مملكة بيت المقدس اللاتينية الهامة من النواحي العسكرية والاستراتيجية والاقتصادية، وخط الدفاع الأول عن مملكة بيت المقدس ضد جيرانها المسلمين. كما أنها تحكمت في حركة التنقل والمواصلات بين أجزاء العالم العربي والإسلامي، وبطرق الحاج الشامي والمصري والمغربي. واهم من ذلك كله أنها منعت أي اتصال عسكري يمكن تحقيقه بين القاهرة ودمشق، كما شكلت حاجزاً منيعاً يقف في وجه أي اتصال بين الشام ومصر والحجاز واليمن (يوسف غوانمة، إمارة الكرك الأيوبية، ص (٦٥-٦٧).

وكان بلدوين الأول قبل أن يصبح ملكاً على مملكة بيت المقدس اللاتينية، أميراً على الرها وهي مدينة بالجزيرة الفراتية بين الموصل والشام وهي التي انتزعها من صاحبها الأرمني ثوروس سنة ٤٩٢هـ/ آذار ١٠٩٨م، فكانت الرها أول إمارة يؤسسها الفرنج في الشرق العربي، أصبحت هذه الإمارة إحدى الإمارات الفرنجية الهامة، لأنها تقف حاجزاً يمنع أي اتصال بين حلب في شمال الشام والموصل في شمال العراق، بل إنها تهدد دار الخلافة في بغداد.

وهكذا اصبح في بلاد الشام إمارة الرها، وإمارة إنطاكية، وإمارة طرابلس، ومملكة بيت المقدس التي كانت تشمل على أربع بارونيات هي: بارونية صيدا ومركزها صيدا، وبارونية الجليل ومركزها طبرية، وبارونية يافا ومركزها يافا، وبارونية الكرك والشوبك ومركزها الكرك.

ولكي تحكم القوى الفرنجية سيطرتها على المناطق التي احتلتها، أخذت تبني القلاع والحصون أو تعيد بناء القديم منها، وتشحنه بالعتاد والرجال. وأصبحت هذه الحصون بؤراً استيطانية تهدد جيرانها المدن والقرى الشامية. حتى أننا نستطيع تشبيه بلاد الشام(بظهر القنفذ) لكثرة ما أقام الفرنج فيها من قلاع

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وحصون. وقد أدرك الفرنج الحقيقة التالية وهي: أن بقاءهم في بلاد الشرق الإسلامي مرهون ببقاء الفرقة والعداوة والبغضاء بين المسلمين، فعملوا كل ما في وسعهم كي يبقوه منشقاً، متباعداً، متباغضاً، لان ذلك فيه حياتهم وبقاؤهم.

الصحوة والإفاقة وصيحة الجهاد

أصيب العرب والمسلمون بنكسة كبيرة وذهول لاستيلاء الفرنج على القدس وفلسطين والساحل الشامي كله، وإقامة مملكة بيت المقدس اللاتينية في قلب الوطن العربي، التي فصلت بلاد الشام والعراق عن مصر والشمال الأفريقي والأندلس. وأصبحت هذه القوى الأوروبية الاستيطانية حاجزا يمنع أي لقاء أو وحدة بين أقطاره. ثم ركزت سيطرتها على منطقة جنوب الأردن الحالي، فأصبح لها وجود في البحر الأحمر وتجارة الشرق الأقصى، وصارت تهدد المقدسات الإسلامية في الحجاز، ومع كل هذه الأحوال التي مرت بها الأمة، إلا أن أمتنا العربية والإسلامية ظلت قادرة على الصمود والتحدي ، فكان لا بد لهذا الظلام أن ينجلي، بجذوة أو بشرارة تكون هي المنطلق والبداية للعمل الكبير. ولا شك أن هذا العمل مهما كان يجب أن ينطلق على يد رجل تتمثل فيه صفات القيادة والتضحية والفداء، والقدرة على وحدة الصف العربي الإسلامي . وفعلا حدث ذلك على يد شخصية عماد الدين زنكي ابن الاتابك آق سنقر. وكان آق سنقر من خواص السلطان السلجوقي، فولاه أتابكية حلب. ولكن آق سنقر. قتل على يد تاج الدولة تتش سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م، فتولى الحكم بعده ابنه عماد الدين زنكي، الذي تمكن بعد جهود مضنية من تثبيت حكمه، فاستولى على الموصل وحلب وحماة، وأجزاء من شرق الأناضول، وبذا أصبح سيد الموقف في شمال العراق وشرق الأناضول وشمال سوريا.

بدأت الصحوة أو الإفاقة بظهور، عماد الدين زنكي على مسرح الأحداث في بلاد الشام، الذي أقام نواة الوحدة العربية الإسلامية التي يخشاها الفرنج

والغرب الأوروبي كله. فاستطاع بقوة وبسالة أن يحقق بطولات وانتصارات ضد الفرنج في الشام، توجت بضربة حكيمة سددها إلى إمارة الرّها. وهذه الإمارة هي أول إمارة فرنجية أسست في الشرق العربي، فسار بقواته إليها وتمكن بعد حصار وقتال عنيف من تحريرها سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م. وكان لهذا النصر اصداؤه الواسعة في المعسكرين الإسلامي والفرنجي، وقد وصفها ابن الأثير بأنها فتح الفتوح، فهو يقول: (وأشبهها ببدر صدقاً، من شهده فقد تمسك من الجهاد بأوثق سبب)، (ابن الأثير، الباهر، ص٦٧). وبتحرير الرها تغيرت نظرة المسلمين نحو الفرنج ، فانحلت عقدة الخوف لديهم، وانتهت أسطورة القوة التي تشدق بها الفرنج بالإضافة إلى أن هذا الانتصار بث فيهم روح الجهاد والتضحية والنضال . فانطلق عماد الدين زنكي بعدها يهاجم القلاع والحصون الفرنجية في الشام، ثم عمل على توحيد الجبهة العربية الإسلامية، لأنه لا نصر للعرب والمسلمين إلا بوحدتهم.

فمعركة الرها كانت الجذوة أو الشرارة ونقطة تحول في حركة اليقظة العربية والإسلامية ، فقد أذكت فيهم روح القتال والنضال والتضحية. وتحول المسلمون من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم مدفوعين إلى ذلك بالدعوة إلى الجهاد، وبذا تحول ميزان القوى في بلاد الشام لصالح المسلمين . أما على الصعيد الفرنجي فكانت هذه المعركة صدمة أصابتهم في مقتل، فاهتز كيانهم، فسارعت أوروبا لنجدتهم بالحملة الفرنجية الثانية ٥٤٢-٥٤٤هـ/١١٤٧-١١٤٩م اشترك فيها لويس السابع ملك فرنسا، وكونراد الثالث إمبراطور ألمانيا، ووجهت نحو دمشق ولكنها فشلت في تحقيق أهدافها، ولم تستطع أوروبا من إعادة ميزان القوى لصالح الفرنج في الشام، ولا شك أن هزيمة الفرنج هذه تعتبر نقطة تحول في تاريخهم في الشرق العربي. كما أن هذه الحملة رمت إلى ساحة الصراع في بلاد الشام أميرا فرنسيا مغامرا هو البرنس رينودي شاتيون (ارناط)، ابن سيد إقطاع

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

شاتيون في وادي اللوار من شمال فرنسا. وسوف يلعب هذا الأمير المغامر دورا بارزا في الصراع الدائر بين الفرنج والمسلمين، وسيصبح معول هدم لمملكة بيت المقدس، بسبب صلفه وتعنته وتعصبه وكرهه الشديد للعرب والمسلمين والإسلام ومقدساتهم.

لم تطل الحياة بعماد الدين زنكي فاغتاله أحد مماليكه سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م، وخلفه ابنه نور الدين محمود زنكي، فجعل من حلب قاعدة تحركاته ضد الفرنج، ونهج نهج أبيه في الجهاد والعمل على تحقيق جبهة إسلامية متحدة. فضم دمشق إلى ممتلكاته بعد أن انتزعها من مجير الدين آبق بن محمد بوري بن طغتكين سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م. وبضم دمشق إلى ممتلكاته أصبحت مملكته تمتد من الموصل والرها والجزيرة شمالا إلى شرقي الأردن جنوبا. وبذلك أصبح جارا عنيدا قويا لمملكة بيت المقدس، وهو أمر كانت تخشاه وتحسب حسابه، وهو وجود قوة إسلامية منظمة تجاورها. ويعبر ابن الأثير عن مخاوف الفرنج من وقوع دمشق في أيدي النوريين بقوله: "وكان أبغض الأشياء إلى الفرنج، أن يملك نور الدين دمشق لأنه يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له (أي دمشق) ، فكيف إذا أخذها وقوي بها" (التاريخ الباهر، ص١٠٧).

بدأ نور الدين زنكي يضغط على بيت المقدس، استمرارا لحركة الجهاد التي بدأها والده باستيلائه على الرها. وتمكن نور الدين من قتل (ريموند) أمير إنطاكية سنة ٥٤٤هـ/١٤٤٩م، فترك وراءه طفلا صغيراً هو (بيمند) في وصاية والدته (كونستانس) التي تزوجت من (أرناط)، فأصبح أرناط أميرا على إنطاكية بحكم زواجه منها وذلك سنة ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م. قام أرناط بأعمال استفزازية لنور الدين زنكي وهاجم عددا من المدن والمناطق الإسلامية في شمال الشام. ولكن نور الدين تمكن من أسره في إحدى المعارك وذلك سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م، فسجنه في قلعة حلب وبقي مسجونا فيها إلى سنة ٥٧١هـ/١١٧٦م، أي ما يقارب الستة عشر عاما.

ساءت الأحوال في مصر، واشتد الصراع والنزاع بين الوزراء وتمكن ضرغام بن عامر من أن يستبد بالأمور دون الخليفة العاضد. فهرب منافسه شاور بن مجير السعدي إلى دمشق، والتقى بنور الدين زنكي، وزين له ضم مصر إلى دولته. وبعد تردد وبضغط من الخلافة العباسية في بغداد أرسل نور الدين قواته إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه، الذي اصطحب معه ابن أخيه الشاب صلاح الدين يوسف بن أيوب. وعندما علم (عموري) ملك مملكة بيت المقدس بذلك سار بقواته إلى مصر، خوفا من أن يستولي عليها نور الدين عندئذ تصبح مملكة بيت المقدس بين فكي كماشة. بالإضافة إلى أن سياسة الفرنج وأوروبا من ورائها كانت تهدف إلى منع أي وحدة بين مصر والشام ، والعمل على إجهاض ومنع أي لقاء. وحدثت معارك بين الطرفين تمكنت القوات النورية بعدها من السيطرة على الديار المصرية وطرد القوات الفرنجية الغازية. وتكريما لاسد الدين شيركوه عهد الخليفة الفاطمي العاضد بالوزارة إليه. ولكن الحياة لم تطل بأسد الدين فتوفي سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م بعد شهرين من توليه الوزارة. فعهد الخليفة العاضد بالوزارة مكانه إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب، وصدر الأمر بتنصيبه بالوزارة في ٢٥ جمادى الآخرة ٥٦٤هـ/ ٢٦ آذار ١١٦٩م، وتلقب بالسيد الأجل الملك الناصر.

وما أن تم لصلاح الدين الظفر بمنصب الوزارة حتى سعى لوضع حد للدولة الفاطمية فأسقطها في أول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧هـ/ ١٠ أيلول ١١٧١م، وخطب على منابر مصر والقاهرة للخليفة العباسي المستضيئ . ثم استولى صلاح الدين على ذخائر ونفائس القصر الفاطمي، وصفا الجو له وتلقب بالسلطنة ، وصار يخطب باسمه على منابر مصر بعد الخليفة العباسي والملك العادل نور الدين محمود.

تمكن صلاح الدين من تثبيت أركان حكمه في مصر، فقضى على كل معارضة في الداخل والخارج، ثم سعى حثيثا إلى تهيئة وتسهيل الاتصال بين

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

القاهرة ودمشق، فحرر مدينة ايلة (العقبة) سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م. ثم قاد حملتين بنفسه الأولى سار بها إلى الشوبك سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، والثانية إلى الكرك ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م، ولكنه لم يتمكن من هاتين القلعتين بسبب حصانتهما وقوتهما. وكان هدفه القضاء على بارونية الكرك والشوبك، التي كانت تقف حجر عثرة في طريق حركة الاتصالات والمواصلات بين مصر والشام والحجاز والجنوب العربي، فبعد أن احتل الفرنج كل فلسطين، لم يكن من سبيل للوصول إلى مصر إلا عن طريق منطقة شرقي الأردن عبر الأزرق، والجفر وباير، ومعان وايلة (العقبة) ثم إلى سيناء فالقاهرة. ومن هنا فقد لعبت هذه البارونية دورا خطيرا في مراقبة حركة الجيوش والقوافل التجارية بين الشام ومصر، وقوافل الحجيج المتجهة إلى الحجاز.

الجهاد والوحدة وتحرير القدس

أدرك صلاح الدين أن حركة نضاله وجهاده ضد الفرنج وتحرير القدس، ستكون طويلة ومريرة، لذا فهي بحاجة إلى مورد اقتصادي هام يرفد هذه الحركة. ولكي يضمن هذا المورد، كان لا بد له من ضم اليمن إلى دولته، كي يسيطر على التجارة الدولية القادمة من الشرق الأقصى عبر اليمن والبحر الأحمر. فأرسل أخاه شمس الدولة توراشاه بقوات إلى اليمن فتمكن من الاستيلاء عليها وضمها إلى دولة صلاح الدين سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م. وبذلك أصبح لديه مورد اقتصادي هام كان بأمس الحاجة إليه، وبالمقابل فقد ارتبط بعلاقات تجارية مع بعض الدويلات الإيطالية كالبندقية، وبيزا، وجنوا، وغيرها. وخدمة لهذه التجارة كان لا بد أن يضمن سلامة الطريق الذي تمر منه تجارة الشرق الأقصى. لذا وضع صلاح الدين يده على مداخل البحر الأحمر من الجنوب حيث عدن واليمن، وعند مخارجه من الشمال حيث ايلة (العقبة) والسويس (القلزم). وهكذا جعل صلاح الدين من البحر الأحمر بحيرة إسلامية، ومنع أي وجود للفرنج فيه، حماية

لتجارته وصونا للمقدسات الإسلامية في مكة والمدينة من عبثهم وتدخلهم.

وكان لتطور الأحداث في دمشق والقدس الأثر بأن يصبح صلاح الدين سيد الموقف في كل من مصر والشام. ففي سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م توفي كل من نور الدين محمود زنكي صاحب دمشق وعموري ملك مملكة بيت المقدس اللاتينية. وخسرت كل من دمشق والقدس قائدا كبيرا، كما ترك كل منهما طفلا صغيرا في الحكم، فنور الدين ترك ابنه الصالح إسماعيل وهو طفل صغير. أما عموري فترك طفلا صغيرا لم يتجاوز الاثني عشر عاما هو بلدوين الرابع.

حدث انقسام بين القادة النوريين واختلفوا فيمن سيكون وصيا على الصالح إسماعيل، وبذلك أصبحت الأخطار تهدد بلاد الشام لافتقار الدولة إلى رجل قوي يسير دفة الأمور بحكمة وروية. كما أن الوحدة التي طالما عمل آ ل زنكي على تحقيقها تعرضت لامتحان رهيب. وهذا ما حدث في مملكة بيت المقدس فقد حدث انقسام بين القادة والأمراء على الوصاية، وكان عموري آخر الملوك العظام في مملكة بيت المقدس. ولكن دمشق قيض الله لها رجلا قويا هو صلاح الدين، فوضع الأمور في نصابها، وقدر له أن يقود المسلمين إلى النصر، بعد أن تولى مقاليد الأمور في كل من مصر والشام سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م. فبعد دخوله دمشق في هذه السنة قال: "والله ما جئت إلى ها هنا شرها ولا طمعا في الدنيا وفي مصر كفاية . أنا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جمع شملهم وألف كلمتهم". أما مملكة بيت المقدس فقد حدث في بنائها تصدع وانشقاق، فظهر حزبان، الأول حزب الحمائم إن جازت لنا هذه التسمية (المتساهلين)، يتألف من البارونات الوطنيين والفرسان الاسبتارية (كان هدف هذه الجماعة هدفا إنسانيا وهو معالجة المحتاجين ثم أصبحت قوة دينية عسكرية محاربه امتلكت القلاع والحصون)، ويتزعمهم الكونت ريموند الثالث أمير طرابلس. وكان هذا الحزب يدعو إلى التفاهم مع المسلمين تقديرا منهم لحالة الضعف التي انتهت إليها

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الحركة الفرنجية (الصليبية)، بالقياس إلى قوة المسلمين التي قادها أبطال أقوياء كنور الدين وصلاح الدين. وكان هذا الحزب يسعى إلى تحقيق السلام، وينفر من القيام بالمغامرات المحفوفة بالمخاطر. أما الثاني فهو حزب الصقور ، وكان يتألف من الوافدين حديثا من الغرب الأوروبي ، أو جماعة الطارئين، ومن الفرسان الداوية (وسموا بالهيكليين وهم جماعة دينية متطرفة، كان غرضها دينيا ثم تحولت إلى هيئة عسكرية متعصبة حاقدة). وقد اشتهر هذا الحزب بالنزعة العدوانية، والكره الشديد للمسلمين، وغلبت عليه الروح القتالية والتطرف الشديد، وقد تزعم هذا الحزب (أرناط) أمير بارونية الكرك، بعد زواجه من (إتينيت دي ميلي) وريثة بارونية الكرك والشوبك سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٧م.

اتخذ صلاح الدين استراتيجية عسكرية تجاه الفرنج، تتلخص بإجهاد العدو وضربه في أي وقت وأي مكان. كي يبقى العدو في حالة استنفار دائمة، وبذا يستطيع إنهاكه وتحطيم إرادته القتالية، والتأثير النفسي عليه. فالبناء والإعداد للمشروع النهضوي الوحدوي الصلاحي استمر مدة سبعة عشر عاما. وهذا المشروع كي تكتب له مقومات النجاح، كان لا بد له من قوة عسكرية قوية، تحمي مكتسباته وتحقيق طموحاته، واقتصاد كثيف يضمن من موارده الكبيرة، استمرار هذا المشروع، فشجع صلاح الدين تجارة الشرق الأقصى وسيطر عليها. ثم عمل على وحدة الصف العربي والإسلامي والقضاء على كل التناقضات التي يمكن أن تسئ إلى هذا المشروع أو تجهضه من الداخل، بالإضافة إلى القيادة الواعدة الواعية المخلصة لأهداف الأمة وكرامتها وعزتها. ولم يغفل صلاح الدين القوى العالمية من حوله، وقد تمثلت هذه بالقوتين الأعظم آنذاك وهما: الدويلات الإيطالية، والدولة البيزنطية، فالدويلات الإيطالية استطاع أن يعقد معها اتفاقيات تجارية، نظرا لارتباط مصالحها التجارية مع دولته. يقول صلاح الدين : (ومن هؤلاء الجنويين الذين يسربون الجيوش، البنادقة، البيازنة،

الجنوية، كل هؤلاء تارة لا تطاق ضراوة ضرهم، ولا تطفأ شرارة شرهم. وتارة يجهزون سفاراً، يحكتمون على الإسلام في الأموال المجلوبة، وتقصر عنهم يد الحكام المرهوبة. وما منهم ألان إلا من يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وبلاده. وكلهم قررت معه المواصفة، وانتظمت معه المسالمة، على ما نريد ويكرهون، ونؤثر ولا يؤثرون). أما البيزنطيون فعقدوا مع صلاح الدين معاهدة نصت على المسالمة، والعلاقات الحسنة بين الطرفين. يقول صلاح الدين: (فمنهم صاحب القسطنطينية، وهو الطاغية الأكبر، وصاحب المملكة التي أكلت على الدهر وشربت... وجرت لنا معه غزوات بحرية، ومناقلات ظاهرية وسرية. فأخذنا ولله الحمد بكظمة، وأقمناه على قدمه، ولم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رسله في جمعة واحدة، في نوبتين بكتابين، كل واحد منها يظهر فيه خفض الجناح وإلقاء السلاح، والانتقال من معاداة إلى مهاداة، ومن مناضحة إلى مناصحة).

وهكذا فقد ضمن صلاح الدين تحييد أكبر قوتين، يمكن أن تتدخلا إلى جانب الفرنج في بلاد الشام. ثم أن الوحدة التي نشدها صلاح الدين، أصبحت حقيقة واقعة، تتمثل بوحدة مصر والشام وشمال العراق وشرق الأناضول والحجاز واليمن، والتي أطلقنا عليها (وحدة صلاح الدين).

ثم بدأ صلاح الدين يعمل على تحرير القدس، فنقل كل عملياته العسكرية إلى دمشق، واتبع في ذلك استراتيجية شرحها في رسالة كتبها للخليفة العباسي في بغداد، بعد هزيمته في معركة تل الصافية سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م، فهو يقول: (وعرفنا أن البيت المقدس لم نتمكن بمصر منه على بعد المسافة وانقطاع العمارة، وكلال الدواب. وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية والمنفعة جامعة، واليد قادرة، والبلاد قريبة، والغزوة ممكنة، والميرة متسعة، والخيل مستريحة، والعساكر كثيرة، والجموع متيسرة، والأوقات مساعدة).

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وجه صلاح الدين قواته لمحاربة الفرنج فأنهك قواهم، ولم يخض معهم معركة تلتحم فيها قوات الطرفين، بل اتبع استراتيجية عسكرية قتالية، تتمثل في ضربه للعدو وإيقاع الخسائر الهائلة بهم، ثم الانسحاب إلى منطقة شرقي الأردن ومن ثم إلى دمشق. فقد كانت قوات صلاح الدين تدخل إلى فلسطين عبر نهر الأردن وتصل إلى نابلس وسبسطة وطبرية وصفورية، تقتل وتستولي على الغنائم ثم تنسحب مسرعة إلى قواعدها. لقد كانت أعمال صلاح الدين العسكرية، تمثل حرب استنزاف للعدو، أجهدت قواتهم وأكثرت من خسائرهم، وفي نفس الوقت رفعت من معنويات قوات صلاح الدين المنتصرة.

وبعد أن اطمأن صلاح الدين إلى أن الوحدة التي نشدها قد تحققت، أراد أن يخوض المعركة الفاصلة مع الفرنج، على أن يحدد هو زمانها ومكانها. وفي خضم استعدادته هذه، قام ارناط أمير بارونية الكرك بحملتين عسكريتين إلى الحجاز واليمن. الأولى كانت سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م، انطلق بها ارناط من الكرك، ووصلت قواته إلى تيماء في شمال الحجاز، وبعد أن سمع صلاح الدين بذلك أمر نائبه في دمشق عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه ابن ايوب نجدة الحجاز ومهاجمة الكرك. فسار عز الدين إلى الكرك وأخذ ينهب ويدمر كل ما في طريقه، وعندما علم ارناط بذلك عاد إلى الكرك مسرعا. وهكذا لم تحقق حملة ارناط أهدافها بالوصول إلى المدينة المنورة وهدم قبر الرسول ونقله إلى الكرك. أما الحملة الثانية فكانت ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م، جعلها ارناط مكونة من قسمين القسم الأول بري، فقد أرسل قوات برية أقامت في تبوك شمال الحجاز بانتظار أوامره، أما القسم الثاني فكان بحرياً، حيث بنى عدة سفن في الكرك ونقلها على الجمال الى ايلة (العقبة) فأعاد تركيبها، ومن العقبة سار بخمسة سفن حربية إلى ميناء عيذاب جنوب مصر واستولى على عدد من الحجاج ومقدار كبير من أموال التجار القادمين من اليمن والشرق الأقصى. ثم سار باتجاه عسير وعدن،

وكان هدفه الاستيلاء على تجارة الشرق الأقصى وحرمان صلاح الدين من هذا المورد الهام. فإضعاف صلاح الدين اقتصادياً يعني بالتالي إضعافه عسكرياً، وهي استراتيجية وعاها الفرنج وعرفوها. بالإضافة إلى أنه أراد الوصول إلى الكعبة وهدمها ومن ثم إلى المدينة ونبش قبر الرسول، وهو بهذا يريد تحدي المشاعر الإسلامية والإساءة إلى مقدساتهم.

أفشل صلاح الدين حملة ارناط هذه، فطلب من قائد أسطوله حسام الدين لؤلؤ التصدي لها، فأعدّ أسطولا ونقله إلى العقبة وأعاد تركيبه هناك. ثم أبحر خلف ارناط وتمكن من حرق سفنه التي كانت في ساحل الحوراء مقابل المدينة.ثم لحق بقوات أرناط المتجهة إلى المدينة براً، فلما علم ارناط بذلك هرب إلى تبوك ومنها إلى الكرك حيث احتمى خلف أسوارها، وهكذا فشلت جهود الفرنج في العبث بالمقدسات الإسلامية. وكان لعمل أرناط هذا أثره في أنها ألهبت مشاعر المسلمين، وأسهمت في ازدياد محبة المسلمين لصلاح الدين، وذاعت شهرته، في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وأصبح رمزاً للزعيم والقائد البطل أمل العروبة وموضع رجاء الإسلام. أما بالنسبة للفرنج فقد صدعت هزيمتهم في الحجاز والبحر الأحمر صفوفهم وعجلت بنهايتهم، وأثبتت فشل سياستهم التوسعية في بلاد الشرق الإسلامي. كما أنها مهدت المجال لصلاح الدين لتحرير بيت المقدس، فتهديد الحرمين الشريفين في مكة والمدينة كان من شأنه إثارة الحماس لتحرير بيت المقدس.

بدأ صلاح الدين الاستعداد للمعركة الفاصلة، فهاجم الكرك مرتين الأولى سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م والثانية ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م. وفي كلا المرتين تمكن صلاح الدين من دخول المدينة والوصول إلى قلعة الكرك. ولكن هذه القلعة استعصت عليه، فلم يتمكن منها، وفي كلّ مرة كان يفك حصاره عنها ويعود إلى دمشق أو يدخل إلى فلسطين ليضرب الفرنج في عقر دارهم. وأثناء عودته إلى دمشق في

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

المرة الثانية ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م أمر أحد كبار أمرائه عز الدين أسامة بناء قلعة عجلون في قمة جبل عوف، لتكون في مواجهة قلعة (كوكب الهواء) الفرنجية، قاطع نهر الاردن، في مكان عال حصين. وقد أحكمت قلعة عجلون سيطرتها على كل المنطقة الممتدة من بحيرة طبرية إلى البحر الميت، كما كانت تمثل خط دفاع هام لحماية دمشق والوقوف في وجه القوات الفرنجية القادمة من غرب نهر الأردن، باتجاه شمال الأردن والجولان إلى دمشق.

كانت ظروف مملكة بيت المقدس تتحول من سيئ إلى اسوأ، كما أن حزب المتشددين سيطر على الأمور فيها، وهي فئة متعصبة حاقدة، تكره العرب والمسلمين، وتطلب دوماً التوسع على حساب الأرض العربية الإسلامية وعلى رأسهم ارناط. فعندما مرت قافلة من بارونية الكرك والشوبك وكانت في طريقها من مصر إلى الشام، هاجمها ارناط واستولى على جزء منها واسر بعض أفرادها. ولما قالوا له أن هناك معاهدة بيننا وبينك تنص على حرية التنقل من هذه المنطقة قال لهم : " قولوا لمحمدكم يخلصكم". ولما بلغت العبارة صلاح الدين، أرسل إلى ملك بيت المقدس يطلب منه إطلاق سراح الأسرى، ورد ما نهبه ارناط. إلا أن الملك كان ضعيفاً فلم يستمع أرناط لطلبه، فنذر صلاح الدين إن ظفر به سيقتله بيده عقاباً على ما اقترفته يداه، ولمهاجمته الديار المقدسة في مكة والمدينة قبل ذلك، وتحديه للمشاعر الإسلامية.

وجد صلاح الدين أن الظروف أصبحت مواتية لخوض المعركة التي طالما خطط لها وعمل من أجلها سنوات عديدة. فأعلن (الجهاد الأعظم)، واستنفر القوات من جميع أنحاء دولته: من الموصل، والجزيرة، واربل، وديار بكر، وماردين، ومصر والشام واليمن والحجاز. فأخذت جموع العساكر والمتطوعة والمجاهدون تتقاطر إلى دمشق من كل فج. وعندما اكتملت الاستعدادات، خرج صلاح الدين إلى رأس الماء قرب درعا الحالية في حوران. ثم تقدم بقواته إلى

منطقة شمال الأردن إلى اربد وبيت رأس وأم قيس، ومنها هبط بقواته إلى غور الأردن. ودخل إلى أرض فلسطين من على جسر السد جنوب بحيرة طبرية، بعد أن تركوا أثقالهم في الاقحوانة (منطقة الكفارات وملكا وأم قيس الحالية). فاحتل طبرية ثم سارت قواته إلى حطين، منتظراً وصول الفرنج إليه.

اختار صلاح الدين هذا المكان في غور الأردن، بحيث تكون موارد المياه خلفه وتحت سيطرته، وخطوط إمداداته سهلة ميسرة كما اختار الزمان الذي جعله في شهر تموز حيث تكون الحرارة شديدة في غور الأردن. وقد تمكن صلاح الدين من استدراج قوات الفرنج إلى هذا المكان في هذا الوقت بالذات. وبعد قدومها أمر رجاله بتقطيع روايا مياه شرب الجيش الفرنجي، ثم طلب منهم احراق الحشائش اليابسة المحيطة بقوات الفرنج، ومنعهم من الوصول إلى موارد المياه في نهر الأردن. وعندما حدد ساعة الصفر أمر قواته بالهجوم، فاجتمعت عليهم حرارة القتال وحرارة الشمس والنار ومرارة العطش.وتم النصر لصلاح الدين في ٢٥ ربيع الآخر ٥٨٣هـ/ ٤ تموز ١١٨٧م وتمكن المسلمون من سحق قواتهم، وإبادة اكبر جيش حشده الفرنج في الشام،يقول المؤرخ الذهبي: (فمن عاين القتلى قال ما ثم أسير، ومن عاين الأسرى قال ما ثم قتيل) "دول الإسلام،ج٢،ص٩٤".

وبعد هذا النصر المبين، جمع صلاح الدين كبار أسرى الفرنج، وكان بينهم (جي) ملك مملكة بيت المقدس، وارناط أمير بارونية الكرك والشوبك ، فبر صلاح الدين بقسمه، فضرب ارناط بسيفه فهد كتفه، ثم أمر مماليكه فقتلوه. وهكذا استؤصلت شافة مملكة بيت المقدس بقطع رأس ارناط الذي دمر برعونته وتعصبه بناء دولة اللاتين.

تقدمت قوات صلاح الدين الظافرة، فحررت مدن الساحل الفلسطيني، ثم اصطفت قواته أمام أسوار القدس، وشدد عليها الحصار، ودخلتها قواته بالأمان

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

في يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣هـ/ ١٢تشرين أول ١١٨٧م. وسمح صلاح الدين للفرنج بالخروج من القدس، فساروا إلى صور، وهذا يدلل على التسامح الذي امتاز به المسلمون. فلم يقترف المسلمون في تاريخهم أي مجزرة أو حرب إبادة عرقية، كتلك التي تعرض لها المسلمون في الساحل الشامي وفي بيت المقدس. فالإسلام عرف بالتسامح الديني، ولم يجبر أحدا على ترك دينه واعتناق الإسلام (لا إكراه في الدين)، هذه هي رسالة العرب والمسلمين، رسالة إخاء ووفاء ومحبة وبناء حضاري، واحترام للشعوب الأخرى ومعطياتهم الحضارية والعلمية.

دخل صلاح الدين القدس وطهرها من دنس الغاصبين المحتلين، وأعاد إليها السمة العربية الإسلامية، وأزال التغييرات التي أحدثها الفرنج في المسجد الأقصى وقبة الصخرة. واحتفل المسلمون بتحرير القدس، وقدم العلماء والفقهاء من كل الأنحاء للمشاركة في الدخول إلى القدس مع صلاح الدين، كما تبارى الشعراء في تمجيد هذا التحرير نذكر ما قاله الشريف الشاعر محمد بن اسعد بن معمر الحلبي، نقيب الأشراف بالديار المقدسة:

أترى مناما ما بعيني أبصر ... القدس تفتح والفرنجة تكسر
ومليكهم في القيد مصفود ولم ... ير قبل ذاك لهم مليك يؤسر
فتح الشام وطهر القدس الذي ... هو في القيامة للأنام المحشر
يا يوسف الصديق أنت لفتحها ... فاروقها عمر الأمام الأطهر

تطلعت القوى الأوروبية والفرنج في بلاد الشام إلى المشروع النهضوي الجهادي بحذر شديد. وكانت أوروبا السباقة دوما في إنجاد القوى الفرنجية بعد كل عمل كبير يحدث في المنطقة العربية، أو أي نصر يحرزه العرب ضد القوى الفرنجية الاستيطانية الاستعمارية، فتسارع إلى نجدة الفرنج بإرسال الحملات العسكرية. حدث ذلك بعد تحرير الرها على يد عماد الدين زنكي، وها هي تسارع إلى نجدتهم بعد معركة حطين وتحرير القدس، بإرسال حملة عسكرية

جديدة، ضمت أكبر ملوك أوروبا. نذكر منهم ريتشادر قلب الأسد ملك بريطانيا، وفيليب أغسطس ملك فرنسا . وتمكنت هذه القوات بالإضافة إلى قوات الفرنج المتواجدة في الساحل الشامي، وفي صور بالذات الذي سمح لهم صلاح الدين بالخروج سالمين إلى هناك، من احتلال مدينة عكا سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م. وبذلك أصبحت عكا مركز ثقل الوجود الفرنجي في الساحل الفلسطيني، وعاصمة مملكة بيت المقدس اللاتينية حيث أصبحت هي العاصمة بعد تحرير القدس على يد صلاح الدين. وهكذا عاد الصراع مجددا بين المسلمين والفرنج، الذين أدهشهم هذا العمل الكبير الذي قام به صلاح الدين. وكان هدفهم الأول استعادة المدينة المقدسة من أيدي المسلمين، وضرب المشروع الوحدوي الصلاحي وتدميره وتمزيقه.

وبعد جولات بين الفرنج والمسلمين، اتفق الطرفان بعد مشاورات ومراسلات ومفاوضات طويلة على عقد صلح بينهما عرف بصلح الرملة. وذلك في ٢١ شعبان ٥٨٨هـ/ ٢ أيلول ١١٩٢م، وقد حدد هذا الصلح بمدة ثلاث سنوات وثلاثة شهور وقد نصت معاهدة الصلح على ما يلي:

١. أن يستقر بيد الفرنج المنطقة الساحلية من صور إلى يافا وعملها، وقيسارية وعملها، وحيفا وعكا وعملها بالإضافة إلى ارسوف.

٢. أن تكون البلاد الجبلية التي فيها القلاع بيد المسلمين.

٣. أن تكون اللد والرملة مناصفة بين الطرفين.

٤. أن تكون عسقلان خرابا

٥. اشترط صلاح الدين دخول الإسماعيلية (الباطنية) المتواجدين في وسط سورية الحالية، في الصلح . وفي المقابل اشترط الفرنج دخول إنطاكية، وطرابلس في الصلح.

٦. أن يكون للفرنج والحجاج النصارى حرية الحج إلى بيت المقدس، دون دفع أية ضريبة.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

غادر ريتشادر فلسطين عائدا إلى بلاده بعد الصلح مباشرة، أما صلاح الدين فسار إلى دمشق، وما لبث أن مرض فجأة واشتدت عليه العلة، ففاضت روحه إلى ربه صبيحة يوم الأربعاء ٢٧ صفر ٥٨٩هـ/ ٤آذار ١١٩٣م، وكان عمره ستا وخمسين سنة وأشهرا. وبموت صلاح الدين طويت صفحة من صفحات الخالدين الأبطال في تاريخ امتنا الماجدة. لقد كان صلاح الدين قائدا ما زالت الأجيال تذكره وتتذكره كلما مرت أمتنا بمحنة الاحتلال من قبل الغرب المستعمرين، فهو نموذج فريد رائد، وهو صانع المشروع النهضوي الوحودي لأمتنا في العصور الوسطى، وفي مرحلة من أحلك المراحل التي مرت بها أمتنا العربية والإسلامية.

الخلاف بين الملوك الأيوبيين وتسليم القدس للفرنج

دب النزاع والصراع على السلطة بين الملوك الأيوبيين بعد وفاة صلاح الدين وتمكن العادل أخو صلاح الدين من أن يستأثر بالسلطة دون أبناء أخيه صلاح الدين وهم: الظاهر غازي، والأفضل علي، والعزيز عثمان. وبعد أن أصبح سيد الموقف في مصر والشام وزع البلاد بين أبنائه الثلاثة: المعظم عيسى في دمشق، والأشرف موسى في المناطق الشرقية (شمال الشام وشرق الأناضول) والكامل محمد في مصر.

كانت استراتيجية أوروبا تركز على ثلاثة عناصر تجاه الأمة العربية والإسلامية في العصور الوسطى. فالأول هو تمزيق الأمة وزرع الفتن والبغضاء بين قادتها، ومحالفة قسم منهم، وبذل المساعدة والدعم له. كي يبقى الوطن العربي ممزقا مفتتا، لأن أي وحدة كانت تشكل خطورة على وجوده، وعلى مصالحه في المنطقة، أما العنصر الثاني الذي عمل الفرنج جاهدين على تكريسه، وهو إخراج مصر من المعركة. فعندما خرجت مصر من المعركة على يد الأفضل بن بدر الجمالي وزير الدولة الفاطمية، ضاعت القدس وفلسطين،

واحتل الفرنج الساحل الشامي كله. وعندما أعادها صلاح الدين إلى الصف العربي الإسلامي، كان النصر للمسلمين وتحرير القدس. ولما عجز الفرنج من احتلال القدس مباشرة، كانت الاستراتيجية الفرنجية وأوروبا تؤكد على أن احتلال القدس يكون عن طريق القاهرة، فإذا سقطت القاهرة بأيديهم ، تسقط القدس والشام مباشرة. فعندما أعاد العادل وحدة مصر والشام، حاولوا إجهاض هذه الوحدة بإرسال حملة جديدة هي الحملة الرابعة ولكنها انحرفت عن هدفها وتوجهت إلى القسطنطينية وفشلت. وتحقيقا للعنصر الثاني من استراتيجية الفرنج تجاه الأمة العربية والإسلامية تنادت أوروبا للقيام بحملة جديدة هي الحملة الخامسة وكان وجهتها إلى دمياط مستهدفة احتلال مصر، لأن احتلال مصر يعني سقوط القدس في أيديهم. إلا أن اجتماع الجيوش الأيوبية تحت قيادة واحدة، ونجدة الجيوش الشامية لمصر، بقيادة المعظم عيسى ملك دمشق، ومشاركة جيوش أخيه الأشرف موسى كل ذلك أدى إلى هزيمة الفرنج في المنصورة، ثم رحيلهم عن مصر سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م. وهكذا فقد أفشلت وحدة الجيوش الأيوبية مقولة الفرنج هذه وأدت إلى هزيمتهم ثم رحيلهم عن مصر. أما العنصر الثالث والأخير من استراتيجية الفرنج وأوروبا كان يتمثل بتدمير الاقتصاد العربي الإسلامي، لأن الاقتصاد عنصر هام في رفد حركة النضال والجهاد، والإعداد لمقاومة المحتل. ومن هنا فإن الفرنج وجهوا جل اهتمامهم لتدمير الاقتصاد الأيوبي في مصر وبلاد الشام، بقطع شريان التجارة الدولية عبر البحر الأحمر القادم من الشرق الأقصى، ولكن صلاح الدين فوّت عليهم ذلك. وستسعى أوروبا دوما وستعمل جاهدة إلى تحقيق هذا الهدف في العصرين الأيوبي والمملوكي.

أصيب المشروع النهضوي الوحدوي إلى نكسة بعد وفاة الملك العادل ٦١٥هـ/١٢١٨م، فنشب الصراع والخلاف بين أبنائه الثلاثة. وانتهزت أوروبا مرة أخرى هذا الخلاف، وعملت جاهدة للاستفادة من هذا الصراع الذي وصل إلى

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

حد العنف العسكري. ولكي يحافظ كل منهم على أملاكه خوفا من أخيه، صار كل منهم يستنجد بالقوى الأجنبية. فالمعظم عيسى تحالف مع الخوارزمية القادمين من الشرق (أذربيجان)، بينما أرسل الكامل محمد إلى الإمبراطور فردريك الثاني في صقلية، يطلب منه العون والمساعدة ضد أخيه، باذلاً له مدينة القدس إن فعل ذلك.

وهكذا ضاعت القدس مرة أخرى على يد الكامل فسلمها للإمبراطور فردريك الثاني سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م، نتيجة للخلاف والفرقة، وانعدام الثقة بين الحكام المسلمين وأنانيتهم، تماما كما حدث في الحملة الأولى. فالاثنان الأفضل والكامل محمد عقدا تحالفا مع الفرنج (تحالف العجز والتمزق) مما أدى إلى احتلال وضياع القدس مرتين.

تحرير القدس على يد الناصر داود أمير إمارة الكرك الأيوبية

صدم المسلمون لضياع القدس والتفريط بها، فقد عقد الكامل محمد معاهدة مع فردريك الثاني في ٢٨ ربيع الأول ٦٢٦هـ/ ٢٥ شباط ١٢٢٩م سلم بموجبها القدس إليه، بالإضافة إلى الناصرة وبيت لحم واللد والقرى الممتدة على طول الطريق بين القدس وعكا. فالكامل محمد اتفق مع فردريك من أجل ذلك ويؤكد ابن واصل هذا الرأي بقوله: "ورأى الملك الكامل أنه إن شاقق الإمبراطور، ولم يف له بالكلية، أن يفتح له باب محاربة مع الفرنج، ويتسع الخرق ويفوت عليه، كلما خرج بسببه". (مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤٢) أما المؤرخ اللاتيني روجر فيذكر أن الحروب الداخلية، أنهكت الكامل فآثر عقد المعاهدة مع الفرنج لمدة عشر سنوات بدون إراقة دماء.

لم يغفر المؤرخون المعاصرون للكامل هذه الزلة، فنعتوه بالخيانة والتقصير، واعتبروا ذلك العمل وصمة في الدين. وحزن المسلمون لخروج القدس من أيديهم، وأنكروا عليه هذا الفعل. وقامت المآتم في جميع بلاد

المسلمين، واستعظموا ذلك وأكبروه واستشنعوه منه. (ابن الأثير، الكامل، ج١٢، ص٤٨٢). وجلس المؤرخ والفقيه سبط ابن الجوزي في الجامع الأموي، يذكر للمسلمين ما جرى على البيت المقدس، وذكر ما في تسليمه من الصغار للمسلمين والعار، وعلق هو نفسه على هذه الحادثة في تاريخه فقال: "يا خجلة ملوك المسلمين لمثل هذه الحادثة"، (مرآة الزمان، ج٨، ص٤٣٢). ووصف المؤرخ ابن واصل الناس في الجامع الأموي قائلا: "وكان يوما مشهودا، وعلى يومئذ ضجيج الناس وبكاؤهم وعويلهم". (مفرج الكروب، ج٤، ص٢٤٦).

وكان مما جاء في المعاهدة التي عقدها الكامل مع فردريك، أنه اشترط عليه أن لا تجدد أسوار القدس. أما القرى الواقعة في منطقة القدس فتبقى بأيدي المسلمين، ويعين وأل عليها، يكون مقامه في قرية البيرة شمالي القدس. وبقي بيت المقدس بيد الفرنج طيلة حياة الكامل محمد، ولم يفكر أو يحاول استرداده منهم، علما بأنه كان يستطيع ذلك بما لديه من قوات عسكرية، ولكنه لم يفعل ذلك تماما كما تصرف الأفضل في الحملة الفرنجية الأولى، فقد كانت لديه القوة العسكرية، ولكنه لم يتصد للفرنج ويمنع احتلالهم للقدس فكلاهما كان مشغولا بأمور مصر الداخلية، ويعمل على تثبيت حكمه فيها.

توفي الكامل محمد في رجب ٦٣٥هـ/ آذار ١٢٣٨م. وبعد وفاته عاد التمزق والانشقاق إلى صفوف البيت الأيوبي. فاهتبل الفرنج هذه الفرصة، وأخذوا يعززون وجودهم في المدينة المقدسة وفلسطين، فأعادوا بناء بعض أسوار القدس، ثم عمروا في غربية قلعة وحصنوا أبراجها، وشحنوا هذه القلعة بالأجناد والعتاد. وصاروا يضيقون على المسلمين، ويحاولون السيطرة على أجزاء أخرى من فلسطين. فقاموا بزعامة ثيوبالد الكمباني حاكم القدس، بتحصين عسقلان وغيرها إثر وصول جموع فرنجية إلى فلسطين، واستولوا أيضا على قافلة تجارية إسلامية قرب نهر الأردن، كانت في طريقها إلى دمشق. عندئذ

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

رأى الملك الناصر داود أمير إمارة الكرك وجوب استنقاذ القدس من الفرنج. فالمنهاجي السيوطي ذكر أن الناصر داود كان يعمل منذ قدومه إلى الكرك (على استنقاذ بيت المقدس من أيدي الفرنج، وتطهيره من أرجاسهم وأدناسهم) "إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، لوحة ٧٨ب".

حشد الناصر داود قواته، وسار من الكرك إلى نابلس ثم إلى القدس . وكان الفرنج لا يتوقعون هذا الهجوم، سيما وأن الخلاف والانقسام بين الأيوبيين كان على أشده. أما هم فكانوا في شغل شاغل، بسبب احتفالاتهم بأعياد الميلاد، فحاصر الناصر داود بيت المقدس، ونازل القلعة بالمجانيق. وقبيل فجر ذلك العيد، هجمت قواته على القدس، فدهش الفرنج (وحاروا حين سمعوا التكبير في كل جانب من جوانب البلد، ووضع المسلمون فيهم السيف) "السيوطي، إتحاف الأخصا، لوحة ٧٩ب". فاجتاحت قوات الناصر داود القدس، وذلك في جمادى الأولى ٦٣٧هـ/كانون أول ١٢٣٩م، وطهروه من الفرنج. أما القلعة التي حصنها الفرنج، فبقيت محاصرة مدة سبعة وعشرين يوما وأخيرا (سلمت إليه بالأمان، ولما سلمت إليه هدمها)، "ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص٢٤٧". ثم سمح الناصر داود للفرنج بمغادرة القدس، وهذا التصرف يذكرنا بما فعله صلاح الدين يوسف بن أيوب، مع الفرنج، عند تحريره للقدس بعد معركة حطين.

ثم كتب الناصر داود من إنشائه للخليفة العباسي في بغداد المستنصر بالله، يبشره بهذا التحرير. كما أمر بكتابة البشائر إلى سائر الممالك الإسلامية، يخبرهم بتحرير بيت المقدس وتطهيره من الفرنج. وفي هذه المناسبة تبارى الشعراء في مدح الناصر داود من ذلك قصيدة نظمها الشاعر جمال الدين ابن مطروح نقتطف منها الأبيات التالية:

المسجد الأقصى له عادة ... سارت فصارت مثلا سائرا

إذا غدا بالكفر مستوطنا أن يبعث الله له ناصرا

فناصر طهره أولا وناصر طهره آخرا

أما المنهاجي السيوطي فقال: (ثم رجع الناصر بعد تمام هذا الفتح المبين إلى الكرك، وقد سطرت هذه المثوبة في صفحات حسناته، وتواردت الألسن بالثناء له وشكر مساعيه المثوبة المحمودة) "إتحاف الاخصا، لوحة ٧٩ب".

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن بعض الملوك الأيوبيين أولوا مدينة القدس جل اهتمامهم ورعايتهم، فعندما حرر صلاح الدين القدس، حصنها وجدد أبراجها وقوى أسوارها وحفر خندقا عميقا حولها. ثم عمد إلى المسجد الأقصى وقبة الصخرة فجدد عمارتها، ثم بنى فيها مدرسة للشافعية ورباطا للصوفية، والخانقاه والصلاحية، والبيمارستان الصلاحي، وأوقف عليها أوقافا عديدة. وأنشأ الملك المعظم عيسى صاحب دمشق المدرسة المعظمية عند الباب المعروف بباب الدويدارية لتدريس المذهب الحنفي. وبنى المدرسة النحوية بصحن الصخرة لتدريس علوم اللغة العربية، وجدد الأبواب الخشبية للمسجد الأقصى ونقش اسمه عليها، وبنى القناطر التي على الدرج القبلي للصخرة، وفي سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م، بنى الأبراج في المسجد الأقصى، ويعتبر المعظم عيسى أحد اثنين من الملوك والسلاطين الأيوبيين الذين لهم آثار وأعمال جليلة في القدس. "الحنبلي، الأنس الجليل ج١، ص٣٨٣، ٣٨٤، ٤٠٣".

تطهير وتحرير الساحل الفلسطيني من الفرنج

تمكن الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد من توحيد مصر والشام تحت سلطانه، بعدما أصابها التمزق والتفتت بسبب الخلافات والصراعات التي نشبت بين الملوك الأيوبيين. وكمحاولة من أوروبا لإجهاض المشروع النهضوي الوحدوي هذا، وجهت أوروبا حملة فرنجية جديدة هي

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الحملة الفرنجية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا. ووجهت هذه الحملة إلى مصر وذلك تحقيقا لاستراتيجية الفرنج القائلة بأن سقوط القاهرة يعني بالتالي سقوط القدس. وحطت هذه الحملة الفرنجية السابعة على دمياط وتمكنت من احتلالها سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م.

كان الصالح نجم الدين أيوب في دمشق، فلما وصلت أخبار هذه الحملة إليه، حمل على محفة ونقل إلى مصر لأنه كان مريضا، فوصل إلى قواته التي كانت في المنصورة لملاقاة الفرنج. وأثناء ذلك اشتد المرض على الصالح نجم الدين، ولم يلبث أن فاضت روحه في ١٤ شعبان ٦٤٧هـ/ ٢٢ تشرين ثاني ١٢٤٩م. كتمت زوجته شجر الدر وفاته، وأرسلت لابنه تورانشاه تطلب منه القدوم إلى مصر ليتسلم السلطنة بعد أبيه، وكان إذ ذاك في حصن كيفا قاطع الفرات.

صمد الجيش الأيوبي بقواته الفتية المكونة من فئة المماليك، وهزم الفرنجة في المنصورة، ووقع الملك لويس التاسع ملك فرنسا في الأسر. وبعد المعركة اتفق أمراء المماليك مع شجر الدر على قتل تورانشاه وإقامة دولة خاصة بهم. وفي يوم الاثنين ٢٨ محرم ٦٤٨هـ/ ٣ أيار ١٢٥٠م تآمروا عليه وقتلوه، وبمقتله انقرضت الدولة الأيوبية بالديار المصرية بعد حكم دام إحدى وثمانين سنة من سنة ٥٦٧ إلى ٦٤٨هـ.

تعرض المشروع النهضوي الوحدوي إلى نكسة كبيرة بقيام هذه الدولة، ونشب صراع دموي بين أيوبية الشام ومماليك مصر. وفي خضم هذا الصراع والتمزق تعرض الوطن العربي إلى غزو التتار على يد هولاكو، وسقطت بغداد بعد تدميرها سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م. ثم اتجهت القوات التترية إلى بلاد الشام، إلا أن دولة المماليك الناشئة تمكنت من إثبات وجودها. فانتصرت على التتار في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م بقيادة السلطان قطز وبذلك أنهت المد التتاري المدمر، فسلمت القدس من عبثهم وتدميرهم، فرحل التتار عن الشام.

وقد حاول التتار التحالف مع الفرنج في عكا حيث كان لويس التاسع هناك، ينتظر تطور الأحداث بعد رحيله عن مصر، إلا أن مشروعهم هذا باء بالفشل.

أخذت دولة المماليك الناشئة على عاتقها بناء دولة قوية عسكريا واقتصاديا، وذلك بعد أن تولى السلطة الملك الظاهر بيبرس البندقداري، الذي تآمر على قطز أثناء عودة جيش المماليك إلى مصر منتصرا في معركة عين جالوت فأرداه قتيلا وتولى الملك مكانه في ١٦ ذو القعدة ٦٥٨هـ/ ٢٣ تشرين أول ١٢٦٠م.

ويعتبر الظاهر بيبرس المؤسس الحقيقي لدولة المماليك في مصر والشام، فقد بدأ ببناء المشروع النهضوي الوحدوي، عن طريق تنظيم أمور الدولة الداخلية. فقوى الاقتصاد، وربط الدولة بشبكة هائلة من المواصلات والاتصالات، وضمن لدولته تجارة كثيفة، واقتصادا قويا بعد أن حرر الاقتصاد وحيده تماما كما فعل صلاح الدين. لأنه كان بحاجة إلى مورد اقتصادي قوي، يرفد حركة نضاله وجهاده ضد الفرنج. وكانت أوروبا نفسها بحاجة إلى استمرار هذا المورد الاقتصادي، لأن كثيرا من دول أوروبا كان اقتصادها قائما على التجارة مع المنطقة العربية، ونقل سلع مصر والشام والشرق الأقصى إلى أوروبا، ونقل سلع أوروبا إلى المنطقة العربية، ومن ثم إلى الشرق الأقصى. فالتنمية الاقتصادية والبشرية كانتا هما وهدفا أساسيا في سياسة السلاطين المماليك الأقوياء.

وبعد أن بنى الظاهر بيبرس الجبهة الداخلية وقواها، وعقد المعاهدات والاتفاقات مع الدول الأوروبية والدولة البيزنطية، توجه إلى المدن والقلاع والحصون الفرنجية يحررها الواحدة تلو الأخرى. فقد جعل المماليك مهمة الجهاد وتحرير الأرض الشامية من الفرنج في مقدمة أولوياتهم، وكانوا على درجة عالية من التدريب العسكري والانضباط والطاعة. وتمثلوا بأخلاق وصفات الفروسية في العصور الوسطى، حتى أطلق عليهم (داوية الإسلام) لشجاعتهم

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وبذلهم وتضحياتهم. فقد تمكنوا من هزيمة الفرنج في الحملة السابعة، ثم دمروا قوات التتار في عين جالوت وطردوهم من الشام نهائيا. وقاد حركة الجهاد هذه السلطان الظاهر بيبرس، فكان في حركة دائبة متنقلا بين مصر والشام يقارع الفرنج ويحرر المدن والقلاع. ففي سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م، حرر قيسارية وارسوف في الساحل الفلسطيني (شافع بن علي، حسن المناقب السرية، ص٨٩، ٩٠). ثم قام بتحرير مدينة صفد سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٦م، كما أغار في هذه السنة على مدينة طرابلس، وحصن الأكراد، وصور واحرق ودمر. ثم ملك بعض القلاع في هذه النواحي نذكر منها: جبلة وعرقة والقليعات قرب طرابلس. وفي سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٧م حرر مدينة يافا وقلعة الشقيف في مرتفعات جبال لبنان الجنوبية. أما أهم عمل قام به في سنة ٦٦٧هـ/ أيار ١٢٦٨م فهو تحرير مدينة إنطاكية، وقلعتها التي كانت تابعة لأمير طرابلس، فأسر (الكند اسطبل) حاكمها. (شافع بن علي، حسن المناقب، ص١٢٧). وقد كان لتحرير إنطاكية أصداء واسعة لدى الفرنج في بلاد الشام، وأوروبا، لأن مدينة إنطاكية كانت أول مدينة استولى عليها الفرنج في الحملة الأولى، وثاني إمارة بعد الرها أسسها الفرنج في بلاد الشام (عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠٩٥).

لم تتمكن أوروبا من نجدة الفرنج في بلاد الشام، بسبب ظروفها آنذاك، وضعف الحماس لنجدة الوجود الفرنجي في المنطقة العربية. لذا رأينا أن القوى الفرنجية، بدأت تعتمد على قواها الذاتية، وصارت تطلب وتلتمس عقد الهدن والمعاهدات مع السلاطين المماليك بيبرس ثم قلاوون. وقد استجاب المماليك لمطالبهم، واستخدموا هذه الهدن لصالح حركة التحرير العربية الإسلامية. فأعطتهم تلك المعاهدات فرصة للراحة والاستعداد لمعارك تحريرية قادمة. بالإضافة إلى أن تلك المعاهدات التي كانت تعقد مع أطراف بعينها دون الأخرى، أعطت المماليك حرية الحركة في مهاجمة فريق دون أن يستطيع الآخر

التدخل.وهكذا تمكن المماليك من توظيف هذه الهدن والمعاهدات لصالح معركة التحرير الشاملة التي بدأها بيبرس، ثم جاء قلاوون ليكمل المشوار. فقد حرر قلاوون العديد من القلاع والحصون والمدن الشامية أهمها : مدينة طرابلس التي حررتها جيوشه سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م، ولم يبق في الساحل الشامي من مدن هامة سوى مدينة عكا حاضرة مملكة بيت المقدس اللاتينية، وقد تمكن الملك الأشرف خليل بن قلاوون من تحريرها سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م. وقد ترتب على تحرير عكا، انهيار مقاومة الفرنج في الساحل الشامي، فبادروا بإخلاء معاقلهم، فاستولى المماليك على: صيدا، وبيروت، وصور، وحيفا، وعثليث، وانطرسوس. وهكذا سقطت آخر المعاقل الفرنجية في شرقنا العربي، وتحررت بلاد الشام تماما من سيطرتهم. ويعلق العديد من المؤرخين على هذا الحدث الهام بأقوال مختلفة. فأبو الفداء يقول: (وتطهر الشام والسواحل من الفرنج). "المختصر، ج٤،ص٢٧). أما الذهبي فيقول: (وتنظفت الشام من الفرنج). "دول الإسلام، ج٢، ص١٩١". ويقول ابن كثير: (ولم يبق بالسواحل ولله الحمد معقل للفرنج إلا بأيدي المسلمين، وأراح الله منهم البلاد والعباد)، : "البداية والنهاية، ج١٣، ص٣٢١".

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

مصادر ومراجع الباب الأول

- **ابن الأثير**، الكامل في التاريخ، دار صادر بيروت، ج١٠، ج١٢، بيروت، ١٩٧٩.
- **ابن الأثير**، الباهر في الدولة الاتابكية، تحقيق عبد القادر طليمات، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٢م.
- **ابن خلدون**، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، طبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١م.
- **ابن شداد**، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق دومنيك سورديل، وسامي الدهان، ٣أجزاء، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٥٣-١٩٦٣م.
- **ابن طولون الصالحي**، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تاريخ مصر والشام، ٢جزء، تحقيق محمد مصطفى، المؤسسة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٢م.
- **ابن القلانسي**، ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الأباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م.
- **ابن كثير**، البداية والنهاية، ٤أجزاء، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٥٨هـ.
- **ابن واصل**، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، الجزء الرابع والجزء الخامس، تحقيق حسنين ربيع وسعيد عاشور، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٧٢، ١٩٧٧م.

- **أبو الفداء**، المختصر في تاريخ البشر، ٤ أجزاء، المطبعة الشاهانية، القسطنطينية، ١٢٨٦هـ.
- **أبو المحاسن**، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الجزء الرابع والخامس، مطبعة دار الكتب المصرية، نسخة مصورة، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ١٩٦٣م.
- **الإدريسي**، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الجزء الثاني، طبع روما، ١٩٧١م.
- **بنيامين التطلي**، رحلة بنيامين (٥٦١-٥٦٩هـ) نقلها إلى العربية عزاز حداد، بغداد، ١٩٥٤م.
- **جوزيف نسيم**، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، ط٣، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١م.
- **الحنبلي**، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب، عمان، الأردن، ١٩٧٣م.
- **الذهبي**، دول الإسلام، تحقيق فهيم شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم، الجزء الثاني، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م.
- **ريموند داجيل**، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة حسين عطية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٠م.
- **السبكي**، طبقات الشافعية الكبرى، الجزء الثالث، المطبعة الحسينية، القاهرة، ١٣٢٤هـ.
- **سبط ابن الجوزي**، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الجزء الثامن، نسخة مصورة(ب-ت).
- **سعيد عاشور**، الحركة الصليبية، ٢ جزء، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٢م.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

- **سعيد عاشور**، الظاهر بيبرس، المؤسسة العامة للتأليف والنشر، سلسلة أعلام العرب، القاهرة، ١٩٦٣م.

- **القلقشندي**، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ١٤ جزءاً، نسخة مصورة نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ١٩٦٣م.

- **المنهاجي السيوطي**، إتحاف الاخصا بفضائل المسجد الأقصى، (مخطوط).

- **المقدسي**، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة ليدن، ١٩٠٩م.

- **المقريزي**، السلوك لمعرفة دول الملو، ٤ أجزاء، الأول والثاني تحقيق محمد مصطفى زيادة ١٩٣٤-١٩٤٢م، والثالث والرابع تحقيق سعيد عاشور، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٧٠-١٩٧٣م.

- **ناصر خسرو**، سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٠.

- **نقولا زيادة**، فيلكس فابري في فلسطين، بحث في المؤتمر الثالث لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، ١٩٨٠.

- **يوسف غوانمة**، إمارة الكرك الأيوبية، دار الفكر، عمان، ١٩٨٢.

- **يوسف غوانمة**، نيابة بيت المقدس، دار الحياة، عمان، الأردن، ١٩٨٢م.

- **يوسف غوانمة**، معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج، دار الفكر، عمان، ١٩٩٥م.

- **يوسف غوانمة**، عروبة القدس في ضوء الحقائق التاريخية، مجلة شؤون عربية، العدد ٤٠، ١٩٨٤م.

- **يوسف غوانمة**، صفحات من تاريخ القدس وفلسطين والأردن في العصر الإسلامي، دار الفكر، عمان، ١٩٩٩م.

- **يوسف غوانمة**، في التاريخ والحضارة العربية الإسلامية، دار الفكر، عمان، ٢٠٠٠م.

Fulcher of chartres

A history of the expedition to jeruslem. Tr. By frances rita ryan, edited with an introduction harold's fink, konuville, u.s.a. 1969

Grousset,R.

The sum of history, english version, by a .and H. Temple patterson. Oxford, 1951

William of tyre,

A History of deeds done beyoned the sea, tr. By Babcock and Krey, 2 vols., New york, 1943.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الباب الثاني

القدس في عصر دولة المماليك
«دراسة حضارية»

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الأول: النيابة وتأسيسها

- تأسيس نيابة بيت المقدس.
- دار النيابة.

(1) تأسيس نيابة بيت المقدس

تمكنت دولة المماليك الناشئة في مصر من بسط سيطرتها على بلاد الشام بعد انهيار المقاومة الأيوبية، وتصديهم للتيار وتدمير قواتهم في معركة عين جالوت سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠). فورث المماليك والحالة هذه أملاك أسيادهم الأيوبيين، وتشكلت في بلاد الشم ست نيابات قامت على إنقاض الممالك والإمارات الأيوبية التي كانت فيها. ولم تتكون هذه النيابات دفعة واحدة بل جاءت على فترات تبعاً للظروف التي كانت توجب أقامتها، وهذه النيابات هي: نيابة دمشق، ونيابة حلب، ونيابة طرابلس، ونيابة حماة، ونيابة الكرك، ونيابة صفد[١].

ولكن الناصر محمد بن قلاوون أقام نيابة جديدة في غزة[٢]، وعين عليها

(١) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ط مصورة عن الطبعة الأميرية، القاهرة، ٤/ ٩١-١٨٠. الخالدي، كتاب المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الانشا، مخطوط مكتبة جامعة القاهرة ، لوحة ٧.

Cohen & lewis,

Population and revenue in the towns of palestine in the sixteenth century, princeton. 1978.p.9.

(٢) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٩/ ٣٦، ويقول أبو المحاسن (حتى أن مدينة غزة هو الذي مصرها وجعلها على هذه الهيئة، وكانت قبل كآحاد البلاد الشامية، وجعل لها نائباً وسمي بملك الأمراء، ولم تكن قبل ذلك إلا ضيعة من ضياع الرملة) (٩/ ١٩٣).

الأمير علم الدين سنجر بن عبد الله الجاولي(ت٧٤٥هـ) نائباً[١]، وأضاف إليه ولاية القدس والخليل ونابلس وقاقون ولّد والرملة ونظر الحرمين الشريفين[٢] وعهد إليه مهمة توصيل الماء من الخليل إلى القدس والقيام ببعض المنشآت في القدس، ثم ندبه في سنة ٧١٣هـ(١٣١٣م) لعمل الروك في الشام[٣] . وكان السلطان الناصر محمد بن قلاوون قد ندبه قبل ذلك لتعمير مدينة الكرك، فبنى فيها سنة ٧١١هـ (١٣١١م) جامعاً ومدرسة وبيمارستاناً وحماماً وداراً للنيابة[٤]. وكان القدس قبل ان يتولاه علم الدين سنجر الجاولي نيابة صغيرة تابعة لدمشق، وممن تولوا نيابته الامير كراي المنصوري في عهد السلطان المظفر بيبرس الجاشنكيز سنة ٧٠٩هـ(١٣٠٩م)، وقد قدم هذا الأمير المساعدة للناصر محمد بن قلاوون أثناء ثورته بالكرك وسار إلى دمشق بقواته مناصراً السلطان[٥]. ونتيجة لذلك كافأه الناصر محمد فعينه نائباً للشام سنة ٧١٢هـ(١٣١٢م) ثم عزله وسجنه وبقي في السجن إلى أن توفي بقلعة الجبل في القاهرة سنة ٧١٩هـ(١٣١٩م) [٦].

وهكذا فأن نيابة القدس كانت تابعة لنائب دمشق الا ان الناصر محمد بن قلاوون ربطها نيابة غزة، واصبح نائب غزة هو نائب القدس وناظر الحرمين الشريفين. الا ان الناصر محمد بن قلاوون ربط جميع نواب الشام بنيابة دمشق

(١) ابن حبيب. درة الأسلاك في دولة الأتراك، ج١ لوحة ٩٨ (مخطوط)، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٩/ ٣٦.

(٢) أبو المحاسن. المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج٢ لوحة ٩٢ (مخطوط)، الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ط مكتبة المحتسب، عمان، ١٩٧٣ ،٢/ ٢٧٢.

(٣) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٩/ ٣٦.
الروك: كلمة قبطية تعني قياس الأرض وحصرها في سجلات وتثمينها أي تقدير درجة خصوبتها لتقدير الخراج عليها. (النجوم الزاهرة ج٩ حاشية (ص٤٢).

(٤) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت (ب.ت) ج٢، ص١٧٠، ١٧١ .

(٥) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٨/ ٢٥٨، ٢٦٨.

(٦) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٩/ ٣٣، ٣٤٥.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

في سنة ٧١٤هـ (١٣١٤م)، وجعل مكاتبة النواب إليه تتم عن طريق نائب دمشق الأمير تنكز بن عبد الله [١]، وقد رفض بعض الأمراء هذا الإجراء ومن بينهم نائب غزة الأمير علم الدين سنجر الجاولي (لأنه كان يظن انه بتقدمه وسابقته لا يتقدم عليه تنكز)[٢]. عندئذٍ انتزعت منه نيابة القدس، وعندما حاول الهرب إلى اليمن اعتقله السلطان الناصر محمد سنة ٧٢٠هـ (١٣٢٠م) وسجنه في الإسكندرية، وبقي في السجن حتى أطلق سراحه سنة ٧٢٨هـ (١٣٢٨م) حيث عفا عنه وأمرّه مائة وجعله في أمر المشورة [٣]. ومما يؤكد أن نيابة القدس انتزعت من الجاولي وضمت إلى دمشق أن الناصر محمد بن قلاوون زار القدس سنة ٧١٧هـ (١٣١٧م) وطلب من الأمير تنكز نائب دمشق أن يلقاه بالإقامات وليكون في استقباله هناك[٤]، وكانت التولية في معظم وظائف نيابة بيت المقدس تتم من قبل نائب دمشق[٥]. وبقيت على هذا الحال حتى أصبحت نيابة مستقلة كغيرها من نيابات بلاد الشام، وقد تضاربت الآراء حول تحديد التاريخ الذي أصبحت فيه نيابة مستقلة، ثم ما هي الأسباب التي دعت السلاطين المماليك جعلها كذلك؟

فالنصوص التي لدينا متضاربة فأبو المحاسن ذكر أن الأمير كراي المنصوري كان نائباً للقدس سنة ٧٠٩هـ(١٣٠٩م)، وابن حبيب وأبو المحاسن ومجير الدين الحنبلي ذكروا أنّ الناصر محمد قلاوون ولىّ الأمير علم الدين سنجر الجاولي نيابة غزة (ونظر الحرمين الشريفين والنيابة بالقدس الشريف وبلد الخليل عليه السلام) بحدود سنة ٧١٣هـ(١٣١٣م) [٦]. وذكر مجير الدين أيضا أن الأمير

(١) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٩/ ٣٨ .
(٢) ابن حجر، الدرر الكامنة، ٢/ ١٧١.
(٣) ابن حجر، الدرر الكامنة، ٢/ ١٧١. وانظر أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٩/ ٩٠ .
(٤) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٩/ ٥٥.
(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ٤/ ١٩٩.
(٦) ابن حبيب، درة الأسلاك في دولة الأتراك، مخطوط بدار الكتب المصرية، =

تمراز المؤيدي كان يتولى هذا المنصب في سنة ٧٧٧هـ(١٣٧٥م) [١]. وفي سنة ٧٨٢هـ(١٣٨٠م) تولاه الأمير بدر الدين حسن بن عماد الدين العسكري، أما الأمير ناصر الدين محمد بن بهادر فكان متولياً لنيابة بيت المقدس في سنة ٧٨٩هـ(١٣٨٧). وذكر أيضا أن الأمير شرف الدين موسى بن بدر الدين حسن تولى النيابة في سنة ٧٩٣هـ (١٣٩٠م)، ثم شغل هذا المنصب في سنة ٧٩٥هـ(١٣٩٢م) الأمير بلوى الظاهري، وفي السنة التالية ٧٩٦هـ(١٣٩٢م) تولاه ثلاثة أمراء هم: جانتمر الركني الظاهري، وفي جمادى الأولى منها تولاه الأمير قردم الحسيني بأمر من السلطان برقوق [٢] ثم تولاه الأمير شهاب الدين احمد اليغموري[٣].

أما الخالدي فذكر في كتابه المقصد الرفيع المنشأ أن نيابة دمشق فيها ست نيابات هي: نيابة القدس، ونيابة صرخد، ونيابة بعلبك، ونيابة حمص، ونيابة عجلون، ونيابة مصياف. ولكن نيابة القدس أصبحت طبلخاناه في سنة ٧٦٧هـ(١٣٦٥م)، وفيما بعد صار متوليها من الأبواب الشريفة في القاهرة، ويضاف إليه الرملة ونابلس [٤].

ويذكر القلقشندي في صبح الأعشى أن النيابة في بيت المقدس استحدثت في سنة ٧٧٧هـ(١٣٧٥م) ونيابتها أمره طلبخاناه، وجرت العادة أن يضاف إليها نظر القدس والخليل[٥].

= ج١ لوحة ٩٨. أبو المحاسن، المنهل الصافي، ج٢ لوحة ٩٢ (مخطوط)، مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٢٧٢.

(١) الحنبلي، المصدر السابق، ٢/ ٢٧٢. وأنظر: أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ١٥/ ٣٨٨.

(٢) المقريزي، السلوك، ٢/ ٣/ ٨١٢.

(٣) الحنبلي، المصدر السابق، ص٢٧٢.

(٤) الخالدي، المقصد الرفيع المنشأ، لوحة ١٤٧ (مخطوط).

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ص١٩٩.
أمير طبلخاناه : هو الأمير الذي يكون بخدمته أربعون مملوكاً، وتدق في بابه بعد =

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

ولكن المقريزي يذكر في أحداث سنة ٧٩٦هـ (١٣٩٣م)، أن السلطان برقوق انعم في جمادى الأولى من هذه السنة على (قردم الحسيني بنيابة القدس) [١] بينما كان في غزة في طريقه لمحاربة التتار بقيادة تيمورلنك الذي اخذ يضغط على الحدود الشرقية للدولة المملوكية[٢].

ومن المعروف ان المماليك ورثوا عن اسيادهم الايوبيين مهمة الجهاد ضد الوجود الصليبي في بلاد الشام، وخاض سلاطينهم معارك طاحنة ضدهم، حتى تمكن السلطان الاشرف خليل من فتح عكا آخر المعاقل الصليبية في فلسطين[٣]، وبذلك تم تطهير بلاد الشام من الفرنج نهائياً سنة ٦٩٠هـ (١٢٩١م). ولكن الصليبيين لم ييأسوا، بل اخذوا يقومون بأعمال ضد المماليك منطلقين من قبرص حيناً، ومن الدويلات الأوروبية أحيانا أخرى. ثم زادت اتصالاتهم بالتتار، وصاروا يعملون على إقامة حلف معهم كي تبقى حدود المماليك الشرقية في خطر مستمر[٤] ، ولتمكين الصليبين من استعادة الأراضي التي فقدوها في بلاد الشام وعلى رأسها بيت المقدس، وفعلاً أقيم تحالف بين التتار والغرب الأوروبي ومملكة أرمينية الصغرى والقوى الصليبية في بلاد الشام لهذه الغاية[٥].

= صلاة المغرب كل يوم ثلاثة أحمال طبلخاناه ونفيران وتوقد المشاعل، والطبلخاناه تعني الفرقة الموسيقية السلطانية وهي مرتبة حربية من مراتب أرباب السيوف في الدولة المملوكية. (ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص١١٣).

(١) المقريزي: السلوك، ٣/ ٢/ ٨١٣.

(٢) المقريزي: نفس المصدر، ص٨١٣.

(٣) المقريزي: السلوك، ١/ ٣/ ٧٦٤ وما بعدها.

Atiya, The Crusade in the later Middle Ages, New York, 1970, p.30.

يوسف غوانمة: تاريخ شرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى، القسم السياسي، ص١٣٤.

(٤) المقريزي: السلوك، ٣/ ٨١٣.

سعيد عبد الفتاح عاشور، الظاهر بيبرس، سلسلة إعلام العرب، ص٧٥، ٨٩، ٩٥.

(٥) سعيد عاشور: الظاهر بيبرس، ص٩٦.

إذن فكرة السيطرة على بيت المقدس ظل أملا يراود الفرنج طيلة العصر المملوكي فبعد سقوط عكا قاموا بحصار اقتصادي ضد المماليك، كما شنوا الغارات المتكررة على سواحل مصر والشام لتحقيق هذه الغاية[١]. واعنف هذه الغزوات، تلك التي شنها بطرس لوزجنان سنة ٧٦٧هـ(١٣٦٥م) على مدينة الإسكندرية، فاجتاحت قواته المدينة ثلاثة أيام، وقتلت ودمرت وأسرت الكثير من أهالي المدينة، وبعد أن تم لهم ما أرادوا غادروا الإسكندرية إلى بلادهم[٢]. وفي سنة ٧٦٩هـ(١٣٦٧) قام الفرنج بحملة ضد طرابلس الشام، فدخلوا المدينة ونهبوا بعض الأسواق وحملوا معهم بعض الأسرى وقتلوا آخرين من سكان المدينة[٣]. وهكذا دخلت الدولة المملوكية حرباً بحرية مع الفرنج، ناهيك عن الحصار الاقتصادي الذي أيده البابا وباركه.

ونتيجة لغزوة بطرس لوزجنان على الإسكندرية، استلزم الأمر أن يتولى الإسكندرية أمير كبير، كي يتمكن من الوقوف في وجه الأخطار الصليبية فولى السلطان الأشرف شعبان الأمير بكتمر الشر يقي نيابة الإسكندرية (وهو أول نائب ولي نيابة الإسكندرية من النواب)[٤].

لقد اظهر المماليك تفهماً للخطرين الصليبي والتتاري، واستعدوا لذلك،

(١) المقريزي: السلوك، ٣/ ٢/ ٨١٣.
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ١٢/ ٣٨٥٢. *Atiya, op. cit.,pp. 36-38* .

(٢) النويري السكندري: كتاب الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، تحقيق عزيز سوريال عطية، الهند، ١٩٧٠م، ٢/ ١١٣.
المقريزي: السلوك، ٣/ ١/ ١٠٦ *Atiya, op. cit.,pp 354-366* .

(٣) المقريزي: السلوك، ٣/ ١/ ١٤٩.
أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ١١/ ٥٢.

(٤) النجوم الزاهرة: ١١/ ٣٠. ويقول المقريزي (وهو أول من باشرها نيابة سلطنة). (السلوك ٣/ ١/ ١١٥). وانظر: ابن إياس: بدائع الزهور، ط دار الشعب، القاهرة ١٩٦٠، ص ١٨٤، ١٨٥.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

فالظاهر بيبرس أقام خطاً دفاعياً قوياً على الحدود الشرقية لدولته وشحنة بالرجال والعتاد واحكمه بشبكة اتصال قوية تربطه بالقاهرة، كما أقام خطاً دفاعياً آخر يمتد من الشوبك والكرك جنوباً إلى أعالي العاصي شمالاً، كي يقف في وجه الخطرين التتاري والصليبي معاً[١]. فالصليبيون هددوا السواحل المصرية والشامية، واجتاحوا مدنه وعطلوا حركة التجارة والاتصالات البحرية المملوكية. أما التتار فكانوا يعبرون الفرات في طريقهم إلى بلاد الشام والديار المصرية، ولكن سرعان ما تتصدى لهم القوات المملوكية فيعودوا القهقري إلى بلادهم، وان كانوا قد وصلوا إلى غزة واجتاحوا دمشق بقيادة محمود غازان سنة ٦٩٩هـ (١٢٩٩م) [٢]. ثم اجتاحوها مرة أخرى سنة ٨٠٣هـ (١٤٠٠م) بقيادة تيمورلنك ، وسفكوا دماء الكثير من سكانها وسكان المدن الفلسطينية الأخرى، ولكنهم لم يدخلوا بيت المقدس فسلم من عبثهم وتدميرهم.

ان الهدف الحقيقي من وراء الهجمات الصليبية وتحالفهم وتعاونهم من التتار إعادة سيطرتهم على فلسطين وبيت المقدس بالذات، فغزوة القبارصة على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ(١٣٦٥م) كان غرضها الوصول الى بيت المقدس عن طريق القاهرة [٣]. وبعد فشلهم حول الفرنج نشاطهم نحو بلاد الشام، فهاجموا

(١) سعيد عاشور: الظاهر بيبرس، ص٩٤.
أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك في مصر والشام، ص٢٠٨.
يوسف غوانمه: تاريخ شرقي الأردن (القسم السياسي)، ص٥٧.

(٢) يقول المقريزي (امتدت التتر إلى القدس والكرك تنهب وتأسر). السلوك، ١/ ٣/ ٨٩٠. ويقول أيضا: (نهبت التتار الأغوار حتى بلغوا إلى القدس وعبروا غزة وقتلوا بجامعها خمسة عشر رجلا وعادوا إلى دمشق وقد أسروا خلقا كثيرا). السلوك. ١/ ٣/ ٨٩٦. وانظر: أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٨/ ١٢٢.

(٣) Atiya, op. cit.,P. 375. ويذكر النويري السكندري أن الذين اشتركوا مع القبارصة في غزوة الإسكندرية: البنادقة ١٤ غرابا، الجنوبة ٧ غرابين، الروادسة ١٠ غربان، الفرنسيين ٩ غربان. (الإلمام بالإعلام، ٢/ ٢٣٠).

طرابلس ونهبوها، ثم هددوا بيت المقدس نفسه، حيث اجتاحت قواتهم يافا فرضة القدس على البحر المتوسط في سنة ٨١٣هـ(١٤١٠) [١]، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تسللت قوات فرنجية إلى القدس نفسه عن طريق الحج[٢]، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق حملهم القديم.

ولما أدرك السلطان الأشرف شعبان عظم الخطر الذي يهدد بيت المقدس من الصليبيين، عمد الى رفع مرتبة نائبها فجعله برتبة طبلخاناه [٣]، ولكن النيابة بقيت مرتبطة بنائب دمشق. وقد زود السلطان نائب بيت المقدس بالقوات والعتاد كي يتمكن من صد الأخطار التي تهدد البلد المقدس. إلا أن المقريزي ذكر في سنة ٧٩٦هـ(١٣٩٣م)، أن السلطان الظاهر برقوق انعم على الأمير قردم الحسيني بنيابة القدس، وذلك في غزة أثناء توجهه لمحاربة التتار بزعامة تيمورلنك.

وهذا النص الذي اورده المقريزي، هو أول إشارة صريحة عن تولية نائب لنيابة بيت المقدس من قبل السلطان في القاهرة، وسببه الخطر التتاري الذي أخذ يهدد دولة المماليك وبلاد الشام ويضغط عليها بشدة. أن خوف الظاهر برقوق على المدينة المقدسة، دفعه إلى استحداث نيابة مستقلة فيها، كي تستطيع الوقوف في وجه الأخطار الداهمة، تماما كما فعل السلطان الأشرف شعبان بعد غزوة بطرس لوزجنان للإسكندرية، فاستحدث نيابة الإسكندرية وجعل فيها أميرا كبيرا وزوده بالرجال والعتاد، للوقوف في وجه الخطر الفرنجي الذي ما فتئ يهدد السواحل الشامية والمصرية معا.

(١) المقريزي: السلوك، ٤/١/١٤٣.

(٢) الحنبلي: الأنس الجليل، ٢/٣١٧.

(٣) وقد أيد ذلك المؤرخان الخالدي، والقلقشندي معا، أما التاريخ الذي ذكره القلقشندي من أن نيابة بيت المقدس استحدثت في سنة ٧٧٧هـ (١٣٧٥م)، فإننا لا نميل إلى الأخذ به، فمن دراستنا للأحوال السياسية والعسكرية في هذه السنة، لم نجد فيها من الأمور الهامة التي دفعت السلطان لاستحداث نيابة في بيت المقدس، فلا يوجد ما يبرر هذا العمل. =

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه، أن مجير الدين الحنبلي ذكر أن تولية النيابة والنظر في بيت المقدس كان يتم من قبل نواب الشام، ولم يزل الأمر كذلك :إلى نحو ٨٠٠هـ، (١٣٩٧م)، فأصبح تولية النائب من قبل السلطان في القاهرة[١]. والملاحظ هنا أن التاريخين لدى المقريزي والحنبلي متقاربان مما يدعم وجهة النظر التي ذهبنا إليها.

وزيادة في التأكيد فقد عمد السلطان الظاهر برقوق إلى ترميم دار الوكالة في مدينة بيت المقدس سنة ٧٨٨هـ(١٣٨٦م) وعهد ذلك للأمير سيف الدين بيدمر الخوارزمي نائب دمشق، واثبت ذلك في نقش ذكر فيه أن هذا الترميم تم (بنيابة مولانا ملك الأمراء بيدمر كافل الممالك بالشام)[٢]. ولم يذكر أنه تم بنيابة نائب بيت المقدس، بدليل أن نيابة القدس آنذاك كانت لا تزال تحت اشراف نائب دمشق. أضف إلى ذلك أن المقريزي وأبا المحاسن يشيران بعد هذا التاريخ إلى تولية نواب في نيابة بيت المقدس كغيرها من نيابات بلاد الشام[٣]. ففي سنة ٨٤٤هـ(١٤٤٠م) ذكر المقريزي النيابات في بلاد الشام على النحو التالي: نيابة

= (القلقشندي: صبح الأعشى، ٤/ ١٩٩.
الخالدي: المقصد الرفيع، لوحة ١٤٧ مخطوط.

(١) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٢٨٢.

(٢) *Van Berchem, Corpus inscriptionum (Jerusalem Ville), Le Caire, 1922, p.300*
وبيدمر هذا عزله السلطان برقوق في نفس السنة وعين عوضه في نيابة دمشق الأمير أَشْقْتَمر الماردياني الذي كان يقيم في القدس بطالا.
(السلوك، ٣/ ٢/ ٤٦٦، ٥٤٩، ٦٨٧).

(٣) وعلى سبيل المثال انظر: المقريزي: السلوك، ٣/ ٣/ ١٠٣٨. ٤/ ١/ ٨١، ٨٨، ١٠٩، ١٣٨، ١٨٨، ٢٦٦، ٤٤٦، ٤٥١، ٤٨٣. ٤/ ٢/ ٩٧٥، ٤/ ٣/ ١١٦١. وانظر أيضا: أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ١٢/ ٢٣١، ١٣/ ٧٥، ٩٠، ١٠٥، ١٢٦، ١٤/ ١٠، ٢٦٢، ١٥/ ٧٦، ٢٩١، ٢٩٤، ٣١٨، ٣٢٢، ٣٣١، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٩، ٣٨٣، ٣٨٩، ٤٤٨، ٥٣٢، ١٦/ ١٢٧، ١٣٠. وانظر كذلك: ابن الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ٢/ ٢٨٧، ٣/ ٤٤، ٣٤٨.

الشام ونيابة حلب، ونيابة طرابلس، ونيابة حماه، ونيابة صفد، ونيابة غزة، ونيابة القدس، ونيابة الكرك[١]، أما أبو المحاسن فزاد عليها نيابة ملطية[٢]. ومن هنا نجد أنه أصبح في فلسطين ثلاث نيابات هي : نيابة صفد، ونيابة بيت المقدس ونيابة بيت غزة، وهذا يناقض ما ذهب إليه لويس وغيره من الباحثين من أن فلسطين في العصر المملوكي كانت تشتمل على نيابتين فقط هما نيابة غزة ونيابة صفد[٣]. ويحاول المستشرقون اثبات أن القدس لم يلق الاهتمام الكافي في العصر الإسلامي كبقية المدن الأخرى، بدليل أن القدس لم يكن عاصمة لدولة، أو مركزاً لحكم. ولكننا في هذه الدراسة نثبت عكس ذلك، فمدينة القدس كانت تتمتع بمكانة روحية لدى المسلمين، وكان الاهتمام بها كبيرا على مدى العصور، فبنوا فيها المسجد الأقصى وقبة الصخرة أثرا خالدا ما زال حتى الوقت الحاضر. أما في العصر الأيوبي والمملوكي فقد لقيت المدينة المقدسة العناية والرعاية، فمهرها المماليك بمنشآتهم العديدة ثم جعلوا منها نيابة مستقلة وعينوا فيها الأمراء الكبار وأصبحت مركز حكم كغيرها من المدن الهامة في بلاد الشام، بل فاقتها في الأهمية لمكانتها الروحية والدينية لدى الجميع، وتمكنت القدس بنائبها وقواتها أن تقف بقوة وحزم في وجه الأخطار والأطماع الصليبية والتتارية معا.

(١) المقريزي: السلوك، ٤/ ٣/ ١٢٠٠.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ١٥/ ٢٢٦.
ملطية أو ملاطية: بلدة كبيرة حصينة، تقع على سفوح جبال اللكام، وهي إحدى الحصون المنيعة منذ العصر العباسي، تكثر حولها التلال المكسوة بالإشجار والسهول الخصبة.
(لي سترانج: فلسطين في العهد الإسلامي، ص٤٨٠).

(٣) *Cohen & Lewis, op. cit.,p.9.*

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(2)
دار النيابة

جعل السلطان الظاهر برقوق من بيت المقدس نيابة مستقلة، وكان القدس قبل ذلك ولاية أو نيابة صغيرة تابعة لنائب دمشق، وجرت العادة أن يقيم هذا الوالي أو النائب في قلعة بيت المقدس الواقعة في الجهة الغربية من المدينة عند باب الخليل[١]. ولكن بعد استقلال نيابة بيت المقدس صار نوابها ينزلون في زاوية الدركاة قرب البيمارستان الصلاحي[٢]. وبقي الأمر هكذا مدة ثم صار النواب يسكنون في دار النيابة نفسها.

وتقع دار النيابة في الزاوية الشمالية الغربية من سور المسجد الأقصى، وتتصل بمنارة الغوانمة[٣]، ويتصل بها من الشرق المدرسة الصبيبية، ولدار النيابة هذه خمسة شبابيك تطل على ساحة المسجد الأقصى[٤]. ويظهر من مخطط البناء المطل على ساحة الحرم أن الأسس الأولى لدار النيابة أقيمت فوق منطقة صخرية مرتفعة عن مستوى الحرم، لذا فلا يوجد أروقة أسفل دار النيابة

(١) العماد الكاتب الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م، ص١٤٥.
الحنبلي : الأنس الجليل، ج٢ ج٥٥، ٢٧١.

(٢) الحنبلي: الأنس الجليل، ٢/ ٤٧.

(٣) الغوانمة: ينتسبون إلى غانم بن علي الأنصاري من رجال صلاح الدين وشيخ الخانقاه الصلاحية، خدم أبناؤه وأحفادهم المدينة المقدسة وكان منهم العلماء والفقهاء، تقلدوا عدة مناصب في القدس منها مشيخة الخانقاه الصلاحية وخطابة المسجد الأقصى، ونظر الحرمين في القدس والخليل. ولعائلة الغوانمة آثار باقية في المدينة المقدسة منها منارة الغوانمة، وباب الغوانمة، وحارة الغوانمة.

(٤) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي، دار الكتب، القاهرة ١٩٢٤م، ١/ ١٥٩.

كتلك الموجودة في السور الغربي للحرم، فطبيعة الأرض الصخرية لم تساعد على إقامة تلك الأروقة. ولا تشير الدلائل إلى وجود باب يوصل المبنى بساحة الحرم، وأكد هذا ابن فضل الله العمري، فقال أثناء تحدثه عن المدرسة الجاولية (ليس لها استطراق إلى الحرم)[١]. وهكذا فالوصول إلى دار النيابة من داخل الحرم يكون بالخروج من باب الغوانمة. ثم الاتجاه يمينا عبر درج وحارة الغوانمة حتى تصل إلى طريق الآلام. وبعد السير شرقا في طريق الآلام تتجه يمينا في طريق جانبي ترقى إليه صعودا بأمتار قليلة فينتهي إلى بوابة كبيرة. ومن خلالها يمكن الولوج إلى ساحة كبيرة تحيط بها أبنية عديدة، ومن مجموعة هذه الأبنية تتكون دار النيابة، وتقع في الجزء الغربي من الساحة الحالية، ويمكن الدخول إلى هذه الدار بواسطة درج خاص يقع في الجهة الشمالية منها، ثم إلى الباب والدركاه ثم الصحن. وفي صدر هذا الصحن من جهة القبلة يوجد إيوان كبير له خمسة شبابيك تطل على ساحة المسجد الأقصى وهي التي أشار إليها ابن فضل الله العمري[٢]. وهذا الإيوان (القاعة الكبيرة) مسقف بالعقود المتقاطعة، واستخدم في بنائه الحجر المنحوت المصقول، والإيوان هذا كان يجلس النائب في صدره للنظر في أمور الناس وحل مشاكلهم. ووجد إيوان للحكم في معظم النيابات المملوكية في مصر والشام وهو ما يطلق عليه (دار العدل)، يجلس النائب فيه ومعه القضاة لفض المنازعات والنظر في المظالم المرفوعة إليه والتي لم يقبل أصحابها بحكم القضاة فرفعوها إلى النائب من باب الاستئناف[٣]. وجرت العادة أن يجلس النائب بدار العدل هذه مرتين في الأسبوع

(١) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي، دار الكتب، القاهرة، ١٩٢٤م، ١/١٥٩.

(٢) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ١/١٥٩.

(٣) المقريزي، السلوك، ٣/٢٧٦، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ١٢/١٧٣. للباحث، عمان حضارتها وتاريخها، ١٩٧٩ ص١٩٦.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

للنظر في القضايا الكبيرة ، ويتقبل النائب فيه أيضا السلاطين والزائرين القادمين لزيارة بيت المقدس.إلا أن بعض السلاطين كانوا يفضلون الإقامة في المدرسة التنكزية بباب السلسلة ففي سنة ٨٢٠هـ(١٤١٧م) قدم السلطان سيف الدين شيخ المحمودي لزيارة بيت المقدس فأقام في هذه المدرسة، أما الأمراء والمباشرون الذين كانوا صحبته فقد توزعوا في مدارس وخوانق المدينة المقدسة[١]. وجدد بناء هذا الإيوان الكبير (دار العدل) الأمير شاهين الشجاعي نائب بيت المقدس، وأثبت ذلك بنقش نسخي جميل على عتبة مدخل الإيوان هذا نصه:

شاهين رسم بتجديدها المقر الشجاعي

وقد تولى شاهين الشجاعي نيابة بيت المقدس في عهد السلطان الأشرف برسباي بعد سنة ٨٣١هـ (١٤٢٧م)[٢].

وحدثت إضافات أخرى إلى دار النيابة، ففي سنة ٨٩٢هـ(١٤٨٧م)، بني الأمير خضر بك نائب بيت المقدس مقعدا خاصا ملاصقا لإيوان الحكم من جهة الشمال، وسقفه بالخشب المدهون، وجعله على طريقة مجالس الحكام في الديار المصرية، فصار النائب وأعوانه يجلسون فيه، وكانوا قبل ذلك يجلسون في صدر الإيوان[٣]. ونصت الوثائق على وجود (مجلس الحكم) في بيت المقدس، فالوثيقة رقم ١٣٨ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس أشارت إلى ذلك المجلس[٤].

ودار النيابة هذه كانت في الأصل تدعى (المدرسة الجاولية)، بناها الأمير

(١) ابن الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب، القاهرة، ١٩٧١، ٢/ ٣٩٥.

(٢) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٢٧٤.

(٣) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٣٣٧.

(٤) وثائق المتحف الإسلامي بالقدس وثيقة رقم ١٣٨.

علم الدين سنجر بن عبد الله الجاولي[١]، في حدود سنة ٧١٣هـ(١٣١٢م) في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون، ففي هذه السنة كان سنجر الجاولي نائبا في غزة[٢]، وبالإضافة إلى نيابة غزة عهد إليه السلطان ولاية القدس وبلد الخليل ونابلس وقاقون ولد والرملة[٣]. ثم انتدبه السلطان في نفس السنة لإيصال الماء من عين مدينة الخليل إلى القدس (ولم يزل مجدا في العمارة مصرا على اعتماد الإشارة إلى أن فار الماء بالبيت المقدس بعد فراره)[٤]، ومن المرجّح أنه قام ببناء مدرسته في السنة نفسها. ثم تحولت المدرسة فيما بعد إلى دار للنيابة وسكنى للنواب، وقد أشار بعض الباحثين إلى أن المدرسة الجاولية تحولت إلى دار للنيابة سنة ٨٣٠هـ (١٤٢٦م) على يد نائبها شاهين الشجاعي[٥].

ولكننا نرى خلاف ذلك، فشاهين الشجاعي كان نائبا للقدس بعد سنة ٨٣١هـ، وهو الذي جدد إيوان الحكم وكتب ذلك في لوحة تأسيسية مثبتة على

(١) هو أبو سعيد سنجر بن عبد الله الجاولي، ولد بآمد سنة ٦٥٣هـ، وقد اشتراه أحد الأمراء المماليك يقال له جاول فنسب إليه، تدرج في سلك الدولة المملوكية حتى أصبح استادارا، وتقلد عدة مناصب منها نيابة الشوبك وحماة وغزة، ثم شد الدواوين. استنابه الناصر محمد في سنة ٧١١هـ لبناء عدة منشآت في الكرك فبنى فيها قصرا للنيابة والجامع والحمام والمدرسة الشافعية والبيمارستان وخانا للسبيل، ثم عهد إليه في سنة ٧١٣هـ بروك البلاد الشامية. له عدة منشآت في مصر والشام منها الجامع بالخليل ومدرسة بالقاهرة وأخرى في غزة وخانا في بيسان. ويذكر السبكي أنه كان رجلا فاضلا صنف شرح مسند الشافعي، وسمع على دانيال بالكرك، توفي سنة ٧٤٥هـ. (السبكي، طبقات الشافعية، ٦/ ١٠٦، ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ٢/ ١٧٠-١٧١).

(٢) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٨/ ٣٦.

(٣) -أبو المحاسن، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج٢ لوحة ٩٢ (مخطوط).
قاقون: حصن يقع في فلسطين قرب الرملة، ويتبع لقيسارية. (لي سترانج، ص٤٣٨).

(٤) ابن حبيب، درة الأسلاك في دولة الأتراك، ج١ لوحة ٩٨ (مخطوط).

(٥) كامل العسلي، معاهد بيت المقدس، عمان، ١٩٨١م، ص٢٢٣.
وقع لديه لبس بين شاهين الشجاعي وشاهين الذباح الذي كان نائبا في القدس سنة ٨٢٨هـ (الأنس الجليل، ٢/ ٢٧٤).

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

مدخل الإيوان الكبير (دار العدل). ولكنه لم يحول المدرسة إلى دار للنيابة، فباعتقادنا أن المدرسة تحولت إلى دار للنيابة بعد سنة ٧٩٦هـ، أما عن اتخاذها سكنى للنواب فكان ذلك في أواخر القرن التاسع الهجري في حياة مجير الدين الحنبلي حيث يقول: (وهي التي صارت في عصرنا مسكنا للنواب بالقدس الشريف)[١].

ولا يوجد لدينا ما يثبت اتصال دار النيابة بساحة المسجد الأقصى مباشرة، فمدخلها يقع خارج الحرم من جهة حارة الغوانمة وطريق الآلام، ولكنا نميل إلى القول بأن النيابة هذه كانت متصلة اتصالا مباشرا بساحة الحرم بواسطة طريق خاصة، خصوصا وأنها أصبحت سكنى للنائب فالأمر يستلزم دخوله للحرم مباشرة في أوقات الصلاة ولا شك أن ذلك كان يتم بواسطة باب خاص، وهذا الباب ربما كان من جهة المدرسة الصبيبية المحاذية لدار النيابة شرقا أو أنه يقع من جهة منارة الغوانمة غربا.

وتشغل المدرسة العمرية الحالية مجموعة من الأبنية من ضمنها دار النيابة موضوع البحث، وهناك تساؤل هل الباب الحالي للمدرسة العمرية هو الباب الأصلي لمجموعة الأبنية هذه، أم أن هناك بابا آخر غيره؟. فقد لاحظت في الجدار الشمالي للمدرسة الواقع في درب الآلام وعلى بعد عدة أمتار من المدخل الحالي باتجاه الشرق، آثار بوابة كبيرة مغلقة، أبطل استخدامها في عهود لاحقة فاغلق البوابة بالحجارة. ويمكن ملاحظة أن الحجارة المستخدمة في إغلاق فراغ الباب تختلف عن تلك المستخدمة في بناء الجدار الشمالي، ثم أنها

(١) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٢٧٢.

وتشغل المدرسة العمرية مجموعة من المباني من ضمنها دار النيابة (المدرسة الجاولية)، وقد قمت في صيف عام ١٩٨٠م بزيارة هذه المدرسة واطلعت على أقسامها وأبنيتها الحديثة والقديمة، فمعظم الجزء القديم يحتاج إلى الترميم والصيانة وخصوصا تلك الأجزاء الجنوبية والغربية المتصلة بمنارة الغوانمة.

بنيت بطريقة أقل دقة، ومن حجارة الدبش، بينما بقية الجدار مبني بالحجارة المدقوقة المشهرة يحيط بها إفريز مستطيل الشكل منحوت بطريقة فنية جميلة. فعلى سبيل الافتراض إذا كانت دار النيابة تشتمل أيضا بعض أبنية المدرسة العمرية الحالية، فالمدخل يجب أن يكون كبيرا واسعا مهيبا يتناسب ودار النيابة، لذا فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن مدخل النيابة كان في الأصل من الجهة الشمالية ولكنه أغلق وبطل استعماله فيما بعد، وبقي المدخل الحالي لتلك الأبنية. وهذا يجرنا إلى القول بأن دار النيابة اشتملت على أبنية أخرى زيادة على المدرسة الجاولية وربما كل أبنية العمرية الحالية.

al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الثاني: الوظائف في نيابة بيت المقدس

أولاً: الوظائف العسكرية (أرباب السيوف):

١- نائب السلطنة.

٢- نائب القلعة.

٣- والي المدينة.

٤- الحاجب.

٥- الدوادر.

ثانياً: الوظائف الدينية :

١- ناظر الحرمين الشريفين.

٢- مشيخة الصلاحية.

٣- القضاة.

٤- الخطابة.

٥- التداريس.

٦- المحتسب.

٧- ناظر البيمارستان.

ثالثاً : الوظائف الديوانية:

١- كاتب الدست.

(٢) ناظر بيت المال.

(٣) ناظر الجيش.

رابعاً : جيش نيابة بيت المقدس.

خامساً : القلعة.

سادساً : ولاية نابلس والرملة والخليل.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الوظائف في نيابة بيت المقدس

أولاً الوظائف العسكرية (أرباب السيوف)

١- نائب السلطنة

أصبح بيت المقدس نيابة مستقلة سنة ٧٩٦هـ(١٣٩٣م)، على رأسها أمير كبير ولايته يمرسوم شريف من القاهرة. وكان نائب السلطنة يقيم في (دار النيابة)[١]، الواقعة بجانب الرواق العلوي من المسجد الأقصى بجوار منارة الغوانمه[٢]. وكان النائب يجلس في صدر الإيوان الخاص السمى (إيوان الحكم)، ليحكم بين الناس وللنظر في شؤون النيابة. ولكن نائب بيت المقدس خضر بك بنى مقعداً ملاصقاً لإيوان الحكم من جهة الشمال، وصار يجلس فيه على عادة (مجالس الحكم) في الديار المصرية[٣]. ودار النيابة هذه أقيمت مكان المدرسة الجاولية التي بناها الأمير علم الدين سنجر الجاولي سنة ٧١٣هـ، وخصصها للمذهب الشافعي، وتحولت إلى دار للنيابة بعد سنة ٧٩٦هـ(١٣٩٣م) ثم سكن للنواب وكان نواب بيت المقدس قبل هذا التاريخ يقيمون في زاوية الدركاة بجوار البيمارستان الصلاحي وهي من أوقاف الأمير شهاب الدين غازي بن

(١) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٢٧٤.

(٢) المنهاجي السيوطي: أتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، مخطوط جامعة برنستون، لوحة٧٤٥. الحنبلي، المصدر نفسه، ٢/ ٣٠٨.

(٣) الحنبلي، نفس المصدر، ص٣٣٧.

العادل الأيوبي صاحب ميافارفين[١].

وكان لنائب بيت المقدس أقطاع خاص، يشتمل على عدة قرى، وذكرت المصادر أن من بين هذا الإقطاع مدينة أريحا في غور الأردن[٢]. وفي أحيان كان يجمع إليه نظر الحرمين الشريفين القدس والخليل فيطلقون عليه (ناظر الحرمين ونائب السلطنة بالقدس الشريف وبلد سيدنا الخليل) وهذا إمتياز لم يحظ به أي نائب من نواب بلاد الشام، وبذا نال النائب قوة وتشريفاً. وفي أحيان كان النائب يجمع بين : كاشف الرملة، وكاشف نابلس، واستادار الأغوار، ومتولي الصلت وعجلون، كما حدث سنة ٨٤٠هـ(١٤٣٦م) في دولة الأشرف برسباي، الذي جمع للأمير طوغان العثماني بين هذه الوظائف[٣]، وهو أقصى اتساع بلغته نيابة بيت المقدس.

أما تولية النائب فكانت تتم بمرسوم سلطاني، وعندما يتولى هذا المنصب أو تجدد نيابته مرة أخرى، يدخل المدينة مرتدياً خلعة النيابة، يحف به القضاة والمماليك وأعيان المدينة فتزين الأسواق وتدق البشائر، ثم يدخل المسجد

(١) الأنس الجليل، ٢/ ٤٧، ميافارفين: مدينة من الجزيرة وهي قاعدة ديار بكر كثيرة المياه والبساتين.
(صبح الأعشى، ٤/ ٣٢٠).

(٢) الحنبلي، المصدر نفسه، ص٧٥، ٣٢٣. أريحا: عاصمة الغور ويعتبرها اليعقوبي من البلقاء، وتبعد مسافة يوم عن القدس. (لي سترانج: ص٣١٥).

(٣) ابن الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، القاهرة ، ١٩٧٤، ٣/ ٣٨٣.
الحنبلي، المصدر السابق، ٢/ ٢٧٥.
الكاشف : من وظائف أرباب السيوف، ويحكم على جميع البلاد التي يتولى كشفها فيجتمع إلى الأمراء ويمد السماط ويحضره القضاة وتقرأ القصص بين يديه. (القلقشندي: صبح الأعشى، ٤/ ٢٥).
الاستادار: من وظائف أرباب السيوف، وتعني الأمير الذي يتولى قبض مال السلطان، أو الأمير وصرفه، وكان يتولى أمر البيوت السلطانية كلها، وصاحبها أمير كبير. (القلقشندي: صبح الأعشى، ٥/ ٤٥٧).

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الأقصى حيث يقرأ المرسوم السلطاني على المجتمعين[١]. وكانت الطبلخاناة تدق على باب بيته كل ليلة[٢]، تماماً كما يحدث للأمراء الكبار في الديار المصرية. ومن واجبات النائب النظر في أحوال نيابته، وتفقد أحوال الرعية صغيرهم وكبيرهم، ورفع الحيف والظلم عنهم ومراجعة السلطان في بعض الأمور التي هي من مصلحة رعيته، والنظر في القرى والغلات وإيصال الحقوق إلى مستحقيها، وتعيين فقيه في كل قرية ليعلم أهلها أمور دينهم[٣].

ولنيابة السلطنة في بيت المقدس ثلاث ولايات:

١) ولاية الخليل.

٢) ولاية نابلس.

٣) ولاية الرملة[٤]، وفي أحيان كان المرسوم السلطاني ينص على توليته (نيابة القدس ونظر الخليل وكشف الرملة ونابلس)[٥].

وفي أواخر القرن التاسع الهجري، تولى نيابة بيت المقدس نواب اشتهروا بالظلم والقسوة، فأساؤا إلى النيابة وسكانها، ومنهم من تولاها بمال بذله إلى السلطان في القاهرة، ففي سنة ٨٩٢هـ(١٤٨٧م) تولى النيابة ونظر الحرمين بالقدس الأمير دقماق (ببذل عشرة آلاف دينار للخزائن الشريفة، غير ما تكلفه لأركان الدولة)[٦].

(١) الحنبلي، المصدر نفسه، ٢/ ٣٣٧.

(٢) الحنبلي ، المصدر نفسه، ص٢٨٠.

(٣) السبكي، معيد النعم ومبيد النقم ص٢١، ٢٢.

(٤) ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ط القاهرة، ١٣١٢هـ ص١٧٧. الخالدي، المقصد الرفيع المنشأ، لوحة ١٢٨، ١٤٧ (مخطوط). الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٢٧٥، ٣٦٧، ٣٧٣، ٣٧٤.

(٥) المقريزي، السلوك، ٤/ ٢/ ٩٧٥، وانظر: ابن الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ٣/ ٣٤٨.

(٦) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٣٤٢.

٢ نائب القلعة:

لبيت المقدس قلعة وصفت بأنها (حصن عظيم البناء) تقع في الجهة الغربية من القدس بجانب باب الخليل، وكانت هذه القلعة حصينة جداً واشتهر من أبراجها برج عظيم البناء سمي (برج داود)[١]. وتعرضت هذه القلعة للهدم من قبل الملك المعظم عيسى في العصر الأيوبي أثناء الحملة الصليبية الخامسة على دمياط، إذ خشي أن يحتلها الفرنج ويحتموا خلف أسوارها[٢]. ثم أن الكامل محمد سلطان مصر سلم بيت المقدس للفرنج في الحملة الصليبية السادسة سنة ٦٢٦هـ(١٢٢٩م)[٣]. وقد استغل الفرنج حالة الفرقة والنزاع بين صفوف الأيوبيين فعمدوا إلى تحصين بيت المقدس وجددوا بناء القلعة، مما دعا الملك الناصر داود أمير إمارة الكرك الأيوبية إلى تحرير القدس منهم فهاجمهم بقواته سنة ٦٣٧هـ (١٢٣٩م) وأخرجهم منها وأعادها إلى حظيرة الحكم الأيوبي[٤].

وللقلعة نائبها الخاص يكون تعيينه بمرسوم سلطاني[٥]، ونيابته مستقلة عن نيابة السلطنة، ومقره في القلعة، وكان ولاة بيت المقدس ونوابها يقيمون في القلعة قبل أن يتحول القدس إلى نيابة مستقلة[٦]. ومن اختصاص النائب صيانة القلعة وحفظها وعمارة ما وهي من عمارتها، وخزن أنواع الأسلحة

(١) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٥٥.
(٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ٤/ ٢٢. المقريزي، السلوك، ١/ ٢٠٤.
(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٢/ ٤٨٢، ابن واصل، مفرج الكروب، ٤/ ٢٤٢.

Roger of wendover,

The Cusade of fredrick II, from sources of medieval history. Edited by Edward peters. U.S.A.. 1971.p.152.

(٤) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق سامي الدهان، ٣/ ٢٣٢.
(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ٤/ ١٩٩، ١٢/ ٣٢٥.
(٦) الحنبلي، المصدر نفسه، ٢/ ٥٥.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

والزردخاناه، بالإضافة إلى إشرافه على الأحناد المقيمين في القلعة الذين يحرسون المدينة ويقومون بمهمة الدفاع عنها[١].

ويرتب النائب في القلعة طبلاً يدق ليلاً لاستعلام الوقت على عادة القلاع في البلاد الشامية والديار المصرية[٢]. ووضع تحت تصرف نائب القلعة (الحمام الزاجل) لإبلاغ السلطان بكل ما يستجد في النيابة، فهو عين على النائب وجميع موظفي الإدارة في النيابة وأعمالها. وممن تولوا نيابة قلعة القدس: شرف الدين موسى الردادي[٣]، وبدر الدين حسن بن حشيم (ت ٨٧٠هـ)[٤].

والي المدينة:

وكان يطلق على من يتولى هذا المنصب في العصر الإسلامي صاحب الشرطة، ويذكر القلقشندي أن تولية هذه الوظيفة كانت من نائب دمشق عندما كانت نيابة بيت المقدس مجرد نيابة صغيرة تابعة لدمشق. وبعد أن تحولت القدس إلى نيابة مستقلة صارت تولية والي المدينة تتم من قبل نائب بيت المقدس[٥]، وأصبحت فيما بعد من اختصاصات السلطان في القاهرة، وقد نقل إلينا القلقشندي توقيعاً بولاية القدس من إنشاء ابن نباته[٦]، وتولى الأمير شرف الدين المرجاني هذا المنصب سنة ٧٩٦هـ (١٣٩٣م)[٧].

ومن اختصاصات والي المدينة حفظ الأمن ومطاردة اللصوص والمفسدين،

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٢/ ٣٢٦.
(٢) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٥٥ وانظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٤/ ٥٨
(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٢/ ٣٢٥.
(٤) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٢٨١.
(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ٤/ ١٩٩.
(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٢/ ٣٣٠، وانظر النص في الملاحق.
(٧) ابن صرصري، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق وليم برينر، كالفورنيا، ١٩٦٣م، ص١٤٦.

والمحافظة على أرواح الناس وأموالهم، وكان من حقه جلد المخالفين من السكاري بالعصا [١]. ولا يسمح له بالتجسس على الناس وهتك حرمات بيوتهم بحجة البحث عن المنكر، ويساعده في مهمته عدد من رجال الشرطة والحراس والعسس.

٤- الحاجب :

وكان في نيابة القدس أمير حاجب كغيرها من النيابات الأخرى في بلاد الشام[٢]، ومن مهامه الحكم بين الناس وفض المنازعات، كما ترفع إليه الأمور المتعلقة بأرباب الجرائم وغيرها من الأمور التي ترفع إلى حكام الشرطة؛ ويقوم الحاجب أيضا بعرض الجند وتقديم من يرد إلى النائب والاستئذان لهم، وينوب عن النائب في حال غيبته[٣]. وممن تولوا هذا المنصب في القدس الشريف الأمير شاهين الحاجب، وشهاب الدين أحمد بن شرف الدين موسى الذي شغل منصب حجوبية القدس سنة ٨٠٥هـ (١٤٠٢م)، ثم ابنه ناصر الدين محمد التركماني (ت ٨٥٢هـ) وناصر الدين صرصر. العلمي[٤].

٥- الدوادار :

ذكرت المصادر عن وجود وظيفة الدوادار في بيت المقدس، والدوادارية موضوعها تبليغ الرسل عن النائب وإبلاغ عامة الأمور، وتقديم القصص إليه والمشاورة فيمن يحضر لمقابلته. ومن مهامه أيضا تقديم البريد إلى النائب وأخذ خطه على عامة المناشير والتواقيع والكتب الصادرة من نائب السلطنة[٥]. وكان

(١) السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص٦١، ٦٢.
وللباحث، تاريخ شرقي الأردن - القسم الحضاري، ص١١.
(٢) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٢٨١.
(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٤/ ١٩.
(٤) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٢٨١.
(٥) القلشندي، صبح الأعشى، ٤/ ١٩.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

النائب يكلفه في مهمات حربية، ففي سنة ٨٩٩هـ (١٤٩٤م) كلف الأمير جان بلاط نائب القدس الأمير جانم دوادار القدس في مهمة بقرية بيت لقيا فقتل هناك بإيعاز من نائب غزة بسبب خلاف وقع بين النيابتين[١]. ومن الملاحظ أن وظيفة الدوادار لم تكن موجودة في نيابة الكرك، بل وجد فيها مهمندار مهمته تلقي الرسل وأمراء العربان الواردين إلى النيابة، والتحدث في القيام بأمرهم[٢].

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

(١) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٣٧١.

(٢) للباحث، تاريخ شرقي الأردن، القسم الحضاري، ص ١٢.

(2)
الوظائف الدينية

١ ناظر الحرمين الشريفين:

تعتبر وظيفة ناظر الحرمين من أقدم الوظائف الكبرى في بيت المقدس، فوجدت في العصر الأيوبي ومنذ أوائل العصر المملوكي، فكان الناظر في عهد الظاهر بيبرس الأمير علاء الدين إيدغدي الصالحي[١]. ويتولاها أمير كبير برتبة طبلخانة، ففي سنة ٧٧٥هـ(١٣٧٣م) تولى نظر القدس والخليل أمير أحمد بن آل ملك[٢]، وفي سنة ٧٨٠هـ (١٣٧٨م) وليها الأمير بوري الأحمدي[٣]. وفي أحيان يتولاها عالم جليل برتبة قاضي القضاة، عرف فضله بالعلوم والفلاح، نذكر منهم الأمير ناصر الدين محمد بن عمر الشهير بابن العطار (ت ٨٠٨هـ)، وقاضي القضاة شمس الدين محمد بن عطاء الله بن محمد الرازي الهروي (ت ٨٢٩هـ)[٤]، وربما جمع النائب بين النظر والنيابة[٥]. وتوليه الناظر تكون بمرسوم سلطاني من القاهرة فيخلع عليه السلطان ويدخل مدينة القدس وهو يلبس هذه الخلعة، فيتلقاه النائب والقضاة وأعيان النيابة، ويدخل إلى المسجد الأقصى حيث يتلى مرسوم السلطان[٦]. وكان نظر الحرمين في القدس والخليل يضاف إلى الحرمين الشريفين في مكة والمدينة ويكون متوليها ناظر واحد، كما حدث في عهد السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين حيث ولى في سنة ٦٩٧هـ

(١) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٢٧٠.
(٢) المقريزي، السلوك، ٣/ ١/ ٢٢١، ٢٢٤.
(٣) المقريزي، السلوك، ٣/ ١/ ٣٣٨.
(٤) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ١٥/ ١٣١، ١٣٦.
(٥) المقريزي، السلوك، ٤/ ١/ ٨١، الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٥.
(٦) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٣٣٦.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(١٢٩٧م) القاضي شرف الدين عبد الرحمن بن الصاحب نظر الحرمين الشريفين مكة والمدينة وحرمي القدس والخليل[١].

ومن اختصاصات ناظر الحرمين الإشراف عليهما وبناء وإصلاح ما يحتاج إلى إصلاح، أضف إلى ذلك إشرافه على الأوقاف الخاصة بهما، وتثمير تلك الأوقاف لصالح الحرمين[٢]. أما أموال الأوقاف الزائدة فكان يحتفظ بها في صندوق الصخرة[٣]، وكان بعض السلاطين يعملون على العناية بأوقاف الحرمين فيرسمون بعمارة ما يحتاج إلى عمارة وترميم وإصلاح ما يحتاج إلى إصلاح من أموال الدولة[٤].

٢ مشيخة الصلاحية

تعتبر المدرسة الصلاحية من أقدم المدارس في بيت المقدس، أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي بعد تحريره بيت المقدس من الفرنج سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م)[٥]، مكان كنيسة قديمة تعرف بكنيسة صند حنة *(St. Ann)* والقديسة حنة هي والدة السيدة مريم العذراء وكانت قد سكنت في هذا المكان[٦]. وتقع المدرسة الصلاحية داخل أسوار مدينة القدس وخارج الحرم من جهته الشمالية، قرب باب الأسباط فلا تبعد عنه سوى أمتار قليلة، وجعلها لتدريس المذهب الشافعي.

والمشيخة الصلاحية من (الوظائف السنية بمملكة الإسلام)[٧]، ولا يتم

(١) المصدر نفسه، ٢/ ٢٧١، ٩٠.

(٢) المقريزي، السلوك، ٤/ ١/ ٨١.

(٣) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٢٧٥.

(٤) المصدر نفسه، ٢/ ٣٧٨، ٣٧٩.

(٥) العماد الكاتب الأصفهاني، الفتح القسي، ص١٤٥، ٦١٢، الحنبلي، الأنس الجليل ٢/ ٤١.

(٦) *Van Berchem, Corpus inscriptionum (jerusalem ville), p. 91*

(٧) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٤١.

توليتها إلا بمرسوم سلطاني من القاهرة[١]، وعند التعيين يدخل شيخ الصلاحية المدينة ويشق أسواقها وقد ارتدى التشريف السلطاني، يحف به العلماء والفقهاء والنائب والناظر وينتهي إلى المسجد الأقصى حيث يقرأ المرسوم السلطاني[٢]. وشيخ الصلاحية أحد الثلاثة الكبار الذين يصرفون شؤون نيابة بيت المقدس، أما الآخران فهما نائب السلطنة وناظر الحرمين الشريفين. وفي أحيان يتقلد شيخ الصلاحية منصب قاضي القضاة الشافعية في بيت المقدس[٣]، أو يجمع بين نظر الحرمين الشريفين ومشيخة الصلاحية[٤].

وكان بعضهم يجمع بين مشيخة الصلاحية وخطابة المسجد الأقصى، أو بين المشيخة ونصف الخطابة بالمسجد الأقصى، ونصف مشيخة الخانقاة الصلاحية، من هؤلاء محب الدين بن جماعة، وشيخ الإسلام النجمي[٥]، وكان البعض ينيب عنه في نصف المشيخة أحد الشيوخ المقيمين في القدس بينما يظل هو مقيما في القاهرة[٦].

ولشيخ الصلاحية منزلة خاصة لدى السلاطين، وهذا دلالة على ما لهذه المدرسة وشيوخها من احترام وتقدير لدى الدولة ورجالها. فإذا قدم الشيخ إلى القاهرة، يخرج أمير كبير لاستقباله ويصعد به إلى السلطان بقلعة الجبل ، فيقبل عليه السلطان ويكرمه ويجلسه عن يمينه[٧]. ففي سنة ٨١٨هـ (١٤١٥م) قدم إلى القاهرة شيخ الصلاحية شمس الدين محمد بن محمود الرازي الهروي، فأمر

(١) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٣٩٨.
(٢) المصدر نفسه، ٢/ ١١٧.
(٣) المصدر نفسه، ٢/ ٢٨٣.
(٤) المقريزي، السلوك، ٤/ ١/ ٤٤٠، ٤٨٣، ٥٢٥.
(٥) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٢٩٨.
(٦) المقريزي، السلوك ٣/ ٢/ ٨٥٨. الحنبلي، الإنس الجليل، ٢/ ٣٠٤.
(٧) المقريزي، السلوك، ٤/ ١/ ٣١٢.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

السلطان المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي الأمير الطنبغا العثماني فتلقاه خارج القاهرة وصعد به إلى قلعة الجبل، فأقبل عليه السلطان وأكرمه، ثم أنزله في دار خاصة أعدت له. وأثناء إقامته في القاهرة رتب له السلطان في كل يوم مبلغ مائتي درهم ومن اللحم ثلاثين رطلا، وأنعم عليه بفرس أسرج بسرج ذهب والهدايا والثياب الفاخرة، إضافة إلى ما أهدى إليه من رجال الدولة[١].

٣ القضاة

يعتبر قاضي القضاة رأس الهيئة القضائية في نيابة بيت المقدس، ويشغل هذا المنصب قاضي القضاة الشافعية الذي كان يجمع إلى جانب ذلك منصب شيخ الصلاحية وفي أحيان أخرى منصب ناظر الحرمين الشريفين[٢].

وأول من ولي هذا المنصب بهاء الدين يوسف بن رافع بن شداد، تولاه من قبل صلاح الدين سنة ٥٨٨هـ (١١٩٢م)، فكان يجمع بين قضاء القدس وقضاء العسكر والنظر على أوقاف بيت المقدس[٣].

وفي العصر المملوكي جعل السلطان الظاهر بيبرس القضاء في أربعة قضاة، وقد عمم هذا النظام في معظم النيابات في البلاد الشامية والديار المصرية. أما في بيت المقدس فقد اقتصر الأمر على قاض شافعي، ثم تطور الأمر تدريجيا حتى أصبحوا أربعة قضاة. فمنصب قاضي القضاة الحنفية أحدث في سنة ٧٨٤هـ (١٣٨٢م) أما المالكي فأوجد في سنة ٨٠٢هـ (١٣٩٩م)، وكان آخرها الحنبلي حيث أحدث هذا المنصب سنة ٨٠٤هـ (١٤٠١م)[٤]. ولقاضي القضاة نائب في

(١) المقريزي، السلوك، ص٣١٢.

(٢) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٢٨٣.

(٣) العماد الكاتب الأصفهاني، الفتح القسي، ص٦١٢، الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ١٠٢، ١١٨.

(٤) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٢١٩، ٢٤٤، ٢٦١ . وذكر مجير الدين أن شيخ الصلاحية =

كل من نابلس الرملة والخليل، وفي أحيان تنفرد كل مدينة بقاضيها[١].

وكان التعيين في منصب قاضي القضاة بمرسوم شريف من السلطان، وكعادة الموظفين الكبار في النيابة، يدخل القاضي المعين مدينة بيت المقدس مرتدياً خلعة السلطان، ويقرأ توقيعه في المسجد الأقصى بحضور النائب والناظر وبقية القضاة وأعيان النيابة[٢]. ثم صار القضاة يبذلون الأموال للحصول على وظيفة قاضي القضاة في بيت المقدس، ففي سنة ٨٧٨هـ (١٤٧٣م) تولىٰ منصب قاضي القضاة الحنفي القاضي جمال الدين الديري (بعد مال كبير بذله في الولاية)[٣].

ويساعد القاضي في وظيفته (المباشرون) [٤]، وهم الذين يقومون بمساعدة القضاة في الأمور المتعلقة بوظيفته كالكاتب والحاجب وأمناء القاضي والشهود [٥]. أما الحاجب فهو يستأذن على القاضي ويرفع الأمور إليه ،أما الأمناء فهم الذين يحتفظون في أموال اليتامى والغائبين ويصرفون زكاة اليتيم لمن يعينها القاضي. أما الشهود العدول فهم الذين يختارهم القاضي لمساعدته في عمله القضائي، ويختصون عادة بالنظر في صحة الإجراءات القضائية ، ونصت الوثيقة رقم ١٤١ تاريخ ٧٩٥ هـ على وجود (الشهود العدول بالقدس الشريف)[٦]. وكان من أعيان الشهود العدول في بيت المقدس تاج الدين عبد

= وقاضي القضاة الشافعية في القدس سنة ٨٧٢هـ (١٤٦٧م) هو شيخ الإسلام نجم الدين أبو البقاء محمد بن جماعة، أما قاضي القضاة الحنفية فهو جمال الدين عبد الله بن الديري، وقاضي القضاة المالكي هو شمي الدين أبو عبد الله محمد المعزاوي، أما قاضي القضاة الحنبلية فهو شمس الدين أبو عبد الله محمد العليمي. (الأنس الجليل، ج٢ ص٢٨٣).

(١) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٢٨٧، ٣٠٤، ٣١١، ٣١٧، ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٧٠.

(٢) المقريزي، السلوك، ٤/ ١/ ٥٢٥. الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٢٩١، ٢٩٨.

(٣) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٢٩٧.

(٤) عن وظيفة المباشرين أنظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ٤/ ١٩٠، ١٩٢، ٢١٩.

(٥) السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص٨٥-٨٩.

(٦) وثائق المتحف الإسلامي في القدس، وثيقة رقم ١٤١ تاريخ ٧٩٥هـ.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الوهاب ابن القاضي برهان الدين ابراهيم الصلتي الشافعي (ت ٨٧٣ هـ) وصفه الحنبلي انه كان من (أعيان العدول بالقدس الشريف وكان القضاة والحكام يعظمونة)[١]، ونجم الدين محمد بن محمد بن بقيرة السوداني الحنفي (ت٨٥٦هـ)[٢].

٤) الخطابة :

ونعني بالخطابة ،خطابة المسجد الأقصى وقبة الصخرة والمسجد الإبراهيمي في الخليل ، والخطابة من أجل الوظائف الدينية في النيابة وأعلاها رتبة (إذ كان النبي ﷺ يفعلها بنفسه ، ثم فعلها الخلفاء الراشدون فمن بعدهم)[٣] .

ويتم التعيين في أمامة وخطابة المسجد الأقصى والمسجد الإبراهيمي من قبل قاضي القضاة [٤] ، ثم من ناظر الحرمين في بيت المقدس ، وأخيرا صار السلطان يتدخل في التعيين في أمامة المسجد والصخرة[٥] فيأتي التقليد والمرسوم من القاهرة ، فيدخل الإمام القدس وهو لابس خلعة السلطان وهي تشريف وطرحة على العادة ، ويقرا كتاب التقليد في المسجد الاقصى أمام جمهور المصلين والحضور هناك[٦].

(١) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ١٩١.
(٢) المصدر نفسه، ٢/ ٢٢٦، ٢٢٧.
(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٤/ ٣٩، وانظر: ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٢٧.
(٤) المقريزي، السلوك، ٤/ ١/ ٩٨.
(٥) المقريزي، السلوك، ٤/ ١/ ١١٠.، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ١٣/ ٩٧.
(٦) الحنبلي، ٢/ ٢٩٢، ٢٩٥، ٣١٩، ٤٩٥، وانظر : السلوك ٤/ ١/ ١٣٧، ١٤١، ٣/ ٢/ ٩٢٣.
التشريف: هو الخلعة التي يلبسها السلطان أو يمنحها لأحد رجال الدولة كي يلبسها عند قراءة التقليد وتسمى هذه الثياب بأسماء تطابق المناسبة التي منحت من أجلها مثل: =

وفي بعض الأحيان كان شيخ الخانقاة الصلاحية في بيت المقدس يتولى مشيخة الحرم الشريف [١]، وكان بعضهم يجمع بين مشيخة الصلاحية وقضاء الشافعية وخطابة المسجد الأقصى منهم قاضي القضاة شيخ الإسلام نجم الدين أبو البقاء محمد بن برهان الدين إبراهيم بن جماعة [٢]. ثم صارت الإمامة والخطابة في المسجد الأقصى وقبة الصخرة يتقاسمها اثنان ، لكل نصف الخطابة أو الإمامة ، ويتم التعيين من السلطان بالقاهرة[٣]، وفي أحيان تولى الخطابة بالمسجد الأقصى أربعة شيوخ لكل ربع الخطابة [٤] .

ووجد في المسجد الأقصى وظيفة رئيس المؤذنين ، وممن شغلها العدل شهاب الدين احمد بن محمد الخليلي الشافعي (ت ٨٧٤ هـ) ، وكان ايضا احد الشهود العدول في بيت المقدس [٥]. وجرت العادة ان تصرف الجامكيات

= (خلعة النيابة، خلعة الوزارة، خلعة السفر، خلعة الرضا). ورفض ثوب التشريف يعتبر اساءة خطيرة، والخلعة عادة تكون (كاملية) من الصوف مبطنة بفرو سمور، أو ثوباً من الأطلس الأبيض به بنود مطرزة.
(ماير، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، القاهرة، ١٩٧٢م، ص١٠٨-١١١).
الطرحة: وهي عبارة عن وشاح يلبس فوق العمامة ويلتف حول الرقبة ويسترسل على الكتفين وكان هذا الزي إمتيازاً للطبقة الرفيعة من رجال الدين والموظفين.(ماير، الملابس المملوكية، ص٩٣).

(١) أول من تولى مشيخة الخانقاة الصلاحية غانم بن علي بن حسين الأنصاري الخزرجي من قبل صلاح الدين الأيوبي بعد فتح بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ، وتولاها من بعده العديد من أبنائه وأحفاده. ولعائلة الغوانمة المنسوبة إليه آثار جليلة في المسجد الأقصى والمدينة المقدسة، وقد تولوا خطابة المسجد الأقصى مدة طويلة وبقيت مشيخة الخانقاة الصلاحية بأيديهم إلى سنة ٨٩٨هـ.
(الأنس الجليل، ٢/ ٢٩٦، ٣٧٥، ٤٨٢، ٤٨٩، ٤٩٥، ٥٤٣، وانظر: أبو الفلاح، شذرات الذهب، ٥/ ١١٧).

(٢) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ١١٧.

(٣) الحنبلي، الأنس الجليل، ص ١١٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣١٩.

(٤) الحنبلي، المصدر نفسه، ص٣٢٧.

(٥) الحنبلي، المصدر نفسه، ٢/ ١٩٢.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(الرواتب) الى هؤلاء الخطباء والمؤذنين ، ووقفت القرى العديدة في منطقة القدس لهذه الغاية فالوثيقة رقم ٢٢ سنة ٧٠٧ هـ نصت على وقفية لقرية بأعمال القدس ، وكان يسلم ريع وقفها جامكية للخطيب والمؤذن ومصالح السقاية المنصورية على يد (الجناب الكريم العالي السيفي سيف الدين البدري)[١].

التداريس :

ويقوم بهذه الوظيفة أساتذة وشيوخ مشهود لهم بالعلم والفضل ، وأنواع التداريس : الفقه والحديث والتفسير والنحو واللغة والعلوم العقلية وغيرها من العلوم [٢].

وشهد بيت المقدس في العصر المملوكي نهضة علمية رائدة ، ونتيجة للاهتمام الزائد التي أولاها السلاطين للمدينة المقدسة ، فقد قاموا بإنشاء المدارس حتى بلغت نيفا وأربعين مدرسة ، ما عدا المدارس الأخرى المنتشرة في مدن النيابة كالخليل ونابلس والرملة وغيرها.وبعد سقوط بغداد على يد التتار هجرها العديد من العلماء فاستقروا في مدن بلاد الشام والديار المصرية [٣] ، ولكن البيت المقدس استأثر بالعديد من هؤلاء العلماء ووضعوا أسس نهضته العلمية . ثم أن البيت المقدس كان هدف هجرة علمية أخرى مغربية وأندلسية امتدت سنين طويلة ، حيث كان القدس (محط رحالهم وغاية مقصودهم وآمالهم)[٤] . وقد اهتم المشارقة بإخوانهم المغاربة المهاجرين ، فأعدوا لهم الأحياء الخاصة وقدموا لهم كل عون ومساعدة ، وكانت الردة الإسبانية

(١) وثيقة رقم ٢٢ سنة ٧٠٧هـ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس.
سيف الدين بهادر بن عبد الله البدري، أحد الأمراء الكبار في مصر تولى عدة مناصب منها نيابة الكرك، ثم نفي إلى طرابلس وتوفي فيها سنة ٧٤٠هـ. (النجوم الزاهرة، ٩/ ٣٢٤).

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٤/ ٣٩.

(٣) المقريزي، السلوك ٤/ ٢/ ٦١١.

(٤) ابن الصيرفي، نزعة النفوس والأبدان، ٣/ ٦١.

(المسيحية) قد بدأت في الأندلس في نفس الوقت الذي بدأت فيه الحروب الصليبية في المشرق . واستقطبت دمشق بادئ الأمر جموع المغاربة ، ونقل إلينا الرحالة أل الأندلسي ابن جبير صورة عن اهتمام المشارقة بالمغاربة من مهاجرين وطلاب علم ، ففي سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤) زار دمشق وكان القدس ما زال تحت الاحتلال الصليبي فوصف لنا ما يلاقيه المغاربة في دمشق من عناية ورعاية حتى ان نور الدين زنكي خصص للمغاربة (زاوية المالكية) ، وجعل لهم اوقافا كثيرة منها : طاحونتان وسبعة بساتين وحمام ودكانان بالعطارين . وبلغ دخل هذا الوقف خمسمائة دينار سنويا تصرف على المهاجرين المغاربة وطلاب العلم منهم [١] . أما بيت المقدس فقد كان وجود المغاربة فيه واضحا إذ خصص لهم منذ وقت طويل حارة المغاربة وسمي أحد أبواب الحرم القدسي باسمهم . ونتيجة لاستقطاب بيت المقدس لهذا العدد الكبير من العلماء والفقهاء ورجال العلم ، فقد اصبح في العصر موضوع الدراسة محج طلاب العلم يأتون إليه من جميع أنحاء العالم العربي والإسلامي ، يدرسون في مدارسه ويأخذون العلم من علمائه . وقد شمل السلاطين المماليك رجال العلم برعايتهم واسبغوا عليهم فيضا من تشجيعهم وعنايتهم ، وتقربوا من الفقهاء والعلماء بسبب شعورهم بالغربة عن البلاد وأهلها . هذا الشعور جعلهم بحاجة ماسة الى دعامة قوية يستندون عليها ويستعينون بها على إرضاء جماهير المواطنين . وكانت المدارس في ذلك العصر أشبه ما تكون بالمعاهد العلمية العليا او الجامعات في العصر الحاضر [٢] ، أما هيئة التدريس فكانت تتكون من : المدرس والمعيد والمفيد والمنتهي [٣] .

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٢٥٧.

(٢) سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك،القاهرة ١٩٦٢، ص١٥٠.

(٣) السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص١٥١-١٥٥ .

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وكانت المدرسة الصلاحية على راس هذه المدارس ، فوظيفة شيخ الصلاحية في قمة الوظائف الدينية في بيت المقدس ، ويكون تعيينه بمرسوم سلطاني من القاهرة [١] . ولا يتولاها إلا من اتصف بصفات خاصة، وكان من خيرة العلماء وأشهرهم له التصانيف والمؤلفات ، وعرف بالعفة والصلاح .

ومن شيوخ الصلاحية نذكر شيخ الإسلام صلاح الدين ابو سعيد خليل بن عبد الله الدمشقي ثم المقدسي ، ولد بدمشق سنة ٦٩٤ هـ وسمع الكثير ورحل في طلب العلم وبلغ عدد شيوخه ٧٠٠ شيخ. ويقول مجير الدين الحنبلي انه(اخذ عن مشايخ الدنيا وأجيز بالفتوى وجد واجتهد حتى فاق أهل عصره)[٢]، درّس في دمشق ثم في القدس مدرسا في الصلاحية سنة ٧٣١هـ . وأضيف إليه تدريس الحديث بالمدرسة التنكيزية بالقدس من تصانيفه :

١. القواعد ، كتاب يشتمل على علمي الأصول والفروع .

٢. الوشي المعلم فيمن روى عن أبيه عن جده عن النبي ، في مجلد .

٣. عقيلة الطالب في ذكر أشرف الصفات والمناقب في مجلد .

٤. المراسيل والكلام على حديث ذي اليدين في مجلد .

٥. منحة الرائض في بعلوم آيات الفرائض .

٦. كتاب في المدلسين.

٧. كتاب تنقيح المفهوم في صيغ العموم .

وتوفي في القدس سنة ٧٦١هـ (١٣٦٠م)[٣].

= ولمزيد من التفاصيل عن مهمة كل أنظر للباحث تاريخ شرقي الأردن، القسم الحضاري، ص١٣٤.

(١) المقريزي، السلوك ، ٤/١/٥٢٥.

(٢) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/١٠٦.

وقد خصصت الأوقاف الكثيرة لهذه المؤسسات العلمية لينفق منها على المدرسة ومدرسيها وطلابها ، ففي سنة ٨٧٧هـ(١٤٧٢ م) رتب السلطان الأشرف قايتباي لمدرسته في القدس ٦٠ صوفيا ، وجعل لكل صوفي في كل شهر ١٥ درهما ، أما الطلبة فخصص لكل طالب في كل شهر ٤٥ درهما ، أما شيخ المدرسة فجعل له في كل شهر ٥٠٠ درهم[١].

٦ المحتسب :

الحسبة هي امر بالمعروف اذا ظهر تركه ، ونهي عن المنكر اذا ظهر فعله[٢] ،قال تعالى (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) . وهي وظيفة خلقية وسلوكية أوجدها الإسلام لتدعيم اوجه التعاون والتضامن بين الجميع . والمحتسب يشرف على التجارة الداخلية والاسواق والمكاييل والأوزان ، ويمنع الغلاء والاحتكار والغش والتدليس[٣]. كما يراقب سلوك المجتمع فيمنع الفسوق والفجور والتبرج وتعاطي المسكرات ، ويشترط في المحتسب ان يكون حرا عدلا ذا رأي وصراحة وخشونة في الدين وعلم بالمنكرات الظاهرة[٤]، ومن صفاته أيضا الرفق في القول وطلاقة في الوجه وسهولة في الأخلاق .

اما محتسب القدس فكان نائبا عن محتسب دمشق عندما كان القدس ولاية ونيابة تابعة لدمشق[٥]، الا انه استقل فيما بعد عندما اصبح بيت المقدس نيابة مستقلة . والى جانب محتسب القدس وجد في نيابة بيت المقدس محتسب في

(١) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ١٠٧

(٢) الحنبلي، المصدر نفسه، ص٤٩٢.

(٣) الماوردي، الأحكام السلطانية، دار الكتب العالمية، بيروت، ١٩٧٨م، ص٢٤٠.

(٤) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٢٤١.

(٥) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص٢٤١، ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص١٢٥.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ٤/ ١٩٩.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الخليل والرملة ونابلس وكانت تولية هؤلاء من نائب القدس وحدث في سنة ٨٨٠ هـ ان اصبح تعيين محتسب الخليل بمرسوم شريف من القاهرة لان النائب كان يفرض على محتسب الخليل مقدارا من المال ، فيضطر هذا الى التسلط على الفقراء من المتسببين والتجار لجمع هذه الاموال ، ثم الغي هذا وعاد الامر الى ما كان عليه سابقا[١].

٧- نظر البيمارستان :

أنشأ صلاح الدين الأيوبي البيمارستان الصلاحي في بيت المقدس سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م مكان الكنيسة المجاورة لدار الاسبتارية بقرب كنيسة القيامة، وزوده بكل ما يحتاج إليه من العقاقير والأدوية، كما رتب فيه الأطباء الذين يقومون بعلاج المرضى. ووقف على هذا البيمارستان عدة مواضع، وجعل النظر على أوقاف هذا البيمارستان وأوقاف المدرسة الصلاحية والخانقاة الصلاحية على القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن شداد لعلمه وكفاءته[٢].

ومن المعروف ان الأيوبيين والمماليك اهتموا في إقامة البيمارستان وتدريس الطب وقاية لأهل البلاد من الأوبئة والطواعين، وأصبحت البيمارستانات بالإضافة إلى مهمة التداوي،تقوم بمهمة التدريس. فكان البيمارستان ينقسم إلى أربعة أقسام، قسم للجراحة وقسم للحميات وقسم للرمد، وقسم للنساء. وكان يخصص لكل مريض تخت مستقل لنومه. وبلغ عدد الأطباء في إحدى هذه البيمارستانات في العصر الأيوبي ستين طبيباً[٣]. وكان في كل بيمارستان عدد من الصيادلة لإعداد الأدوية المركبة وتوزيعها على المرضى حسب أمر الطبيب.

(١) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٣١٤، ٣١٥.

(٢) العماد الكاتب الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص٦١٢، الحنبلي، الأنس الجليل، ١/ ٣٩١، ٢/ ١٠٢.

(٣) بنيامين التطيلي، رحلة بنيامين، ص١٣٤، ١٣٥، وللباحث تاريخ شرقي الأردن، القسم الحضاري، ص١٣٨.

وكان يعين في كل بيمارستان ناظر خاص برتبة أمير كبير، يقوم بمهمة إدارته، ووجد في بيت المقدس ناظر البيمارستان، ووصف القلقشندي هذه الوظيفة بأنها (من أجلّ الوظائف وأعلاها) [١].

http://www.al-maktabeh.com

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٤/ ٣٨.

http://www.al-maktabeh.com

(3)

ثالثاً : الوظائف الديوانية

١- كاتب الدست:

ويقوم مقام كاتب السر في الرد على الكتب الواردة والصادرة عن النيابة[١]، وقراءة الكتب الواردة على النائب وكتابة أجوبتها، وأخذ خط النائب عليها، بالإضافة إلي تصريف المراسيم الواردة والصادرة الى النيابة، وكان يشغل هذه الوظيفة في القدس اكثر من كاتب دست، نذكر منهم شمس الدين محمد بن خضر بن داوود بن يعقوب (ت ٨٤١هـ)، وصف بأنه كان دينا خيراً، روى وحدّث واسمع سنين عديدة[٢].

٢- ناظر بيت المال:

ولا يتولى هذه الوظيفة إلا ذو العدالة من أهل العلم والديانة، ومهمته النظر في أموال النيابة حيث يرفع إليه حسابها لينظر فيه ويتأمله بالتصرف فيه إما اقبضا أو صرفاً[٣].وذكرت الوثيقة رقم١٣٤ تاريخ ٧٨٥هـ عن وجود (ناظر بيت المال) في القدس الشريف، أما الوثيقة رقم ١٤٨ تاريخ ٧٤٠هـ فقد نصت على وجود (وكيل بيت المال بالقدس الشريف)[٤]، وكان يقوم بهذه الوظيفة أحيانا ناظر الحرم الشريف، ووجد في بيت المقدس بيت المال ونعتته وثائق المتحف الإسلامي في القدس (ببيت المال المعمور بالقدس الشريف)[٥]. وذكر

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ٥/ ٤٦٥.

(٢) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ١٥/ ٢١٤.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٤/ ٣١، ٥/ ٤٦٥.

(٤) وثائق المتحف الإسلامي في بيت المقدس رقم ١٣٤ تاريخ ٧٨٥هـ، ورقم ١٤٨ تاريخ ٧٤٠هـ.

(٥) وثائق المتحف الإسلامي في بيت المقدس رقم ١٣٨ ورقم ١٣٩ تاريخ ٧٤٥هـ، ورقم ١٤٩ تاريخ ٧٩٥هـ.

القلقشندي أن معظم الوظائف كانت موجودة في نيابة بيت المقدس[١]، مثلها في ذلك نيابة دمشق والكرك وصفد وغزة وغيرها.

(٣-) ناظر الجيش:

وموضوعها التحدث في الإقطاعات الخاصة بنيابة بيت المقدس، والكتابة بالكشف عنها، واخذ خط النائب عليها بعد اخذ رأيه وضبط الإقطاعات للأمراء والأجناد في النيابة.ثم الكتابة إلى السلطان عن الإقطاعات المتوفرة عن أصحابها بالموت ونحوها، حيث تحمل إلى ديوان الجيش بالديار المصرية، وبمقتضى ذلك يخرج المنشور السلطاني بشأن هذه الإقطاعات[٢]. ولهذه الوظيفة ديوان خاص يثبت فيه المناشير الخاصة بالإقطاعات المقطعة في النيابة، والصادرة من السلطان في القاهرة، ويساعد الناظر في مهمته كتاب وشهود [٣].

(١) القلشندي، صبح الأعشى، ٤/ ١٩٩.

(٢) القلقشندي، المصدر نفسه، ٤/ ١٩٠.

(٣) القلقشندي، المصدر نفسه، ٤/ ٣١.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(4)
رابعاً: جيش نيابة بيت المقدس

تردد في المصادر عن وجود قوات في نيابة بيت المقدس، مما يؤكد أن جيشاً خاصاً وجد بها، مثلها في ذلك مثل بقية نيابات بلاد الشام. ولدينا إحصائية بعدد جيوش نيابات بلاد الشام أوردها ابن شاهين الظاهري، ولكنه لم يورد شيئاً عن عدد جيش بيت المقدس[١]. وبذا لا نستطيع إعطاء رقم صحيح لعدد هذا الجيش، وان كنا نرى بالمقارنة بجيوش نيابات كل من حماة وصفد والكرك[٢]، إن جيش نيابة بيت المقدس كان بحدود الألف فارس ما عدا الرّجالة، ورجال القبائل العربية في جبل القدس والخليل وجبل نابلس.

وقد اشتركت قوات بيت المقدس في قمع الفتن في النيابة نفسها وفي خارجها، وفي التجاريد والحروب التي خاضها المماليك ضد العثمانيين. ففي سنة ٨٢١هـ (١٤١٨م) ثارت عربان بني عقبة في شرق الأردن على نائب الكرك، فطلب السلطان إلى نائب القدس ونائب غزة نجدة نائب الكرك[٣]. إلا انه في نفس الوقت اسرّ لنائب غزة إلقاء القبض على نائب الكرك فألقى النائبان القبض عليه حسب رغبة السلطان، وأرسل مع نائب القدس إلى دمشق حيث سجن بقلعتها[٤].وفي سنة ٨٢٧هـ (١٤٢٤م) اشتركت قوات القدس بقيادة نائبها الأمير شاهين الذباح في قتال نائب دمشق تنبك البجاسي الثائر في دمشق، بالاشتراك

(١) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس ١٨٩٤م ص١٠٤، ١٠٥.

(٢) ابن شاهين الظاهري، المصدر نفسه، ص١٠٤،
وللباحث: تاريخ شرقي الأردن (القسم الحضاري) ص٢١.

(٣) المقريزي: السلوك، ٤/ ١/ ٤٤٦.

(٤) المقريزي: المصدر نفسه، ٤/ ١/ ٤٥١.

مع قوات مصر وصفد، وتمكنوا من إلقاء القبض وعليه، واعتقاله في قلعة دمشق[١]. ثم اشتركت قوات بيت المقدس مع قوات مصر وصفد في سنة ٨٤٢هـ (١٤٣٨م) لمحاربة الأمير إينال الجكمي نائب دمشق الخارج عن الطاعة، فحاربوه وهزموه وألقوا القبض عليه[٢].

وفي أواخر دولة المماليك الثانية قام المماليك بإرسال التجاريد لمحاربة شاه سوار وأعوانه الذين صاروا يضغطون بشدة على حدود دولتهم الشرقية والشمالية. وقد اشتركت القوات من بلاد الشام في هذه التجاريد، وخصوصاً الرجال المجندون من جبل القدس والخليل وجبل نابلس[٣]. ففي سنة ٨٧٥هـ (١٤٧٠م) اشتركت قوات بيت المقدس بقيادة نائبها الأمير يوسف الجمالي في قتال شاه سوار صحبة القائد الأمير يشبك الدوادر. فهزما شاه سوار والقيا القبض عليه، واستولت القوات المملوكية على البلاد التي كان قد استولى عليها، وكانت قوات بيت المقدس قد عادت من هذه التجريدة في ٢٣ شعبان ٨٧٦هـ[٤].

وفي سنة ٨٨٩هـ (١٤٨٤م) بدأت الخلافات بين السلطان الأشرف قايتباي والسلطان بايزيد بن عثمان ملك الروم[٥]، فجهز الأشرف قايتباي القوات لقتال

(١) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ١٤/ ٢٦٥، ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ص٣٩، ٤٤. وانظر: الحنبلي: الأنس الجليل، ٢/ ٢٧٤.

(٢) المقريزي: السلوك، ٤/ ٣/ ١١١٢، ١١١٣، ١١٣٧، ١١٣٨.

(٣) وقد قتل شاه سوار الكثير من الجيش المملوكي، فابن إياس يذكر القتلى في إحدى هذه التجاريد (وأما من قتل من الجند والمماليك السلطانية ومشايخ عربان جبل نابلس والعشير والتركمان والغلمان فما أمكن حصره). (ابن إياس، بدائع الزهور ط الشعب، ص٤١٣).

(٤) الحنبلي: الأنس الجليل، ٢/ ٢٩١. وانظر: ابن إياس: بدائع الزهور، ط الشعب، ص٤٢٧، ٤٣١، ٤٣٦، ويصف ابن إياس نهاية شاه سوار ويذكر أنه اقتيد إلى القاهرة حيث أعدم على باب زويلة سنة ٨٧٧هـ.
(بدائع الزهور، ص ٤٣٩)

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ط الشعب، ص٥١٨.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

ابن عثمان وحليفه علي دولات أخي سوار، وأرسل يطلب القوات من بلاد الشام. فقام الأمير جانم نائب القدس بإعداد القوات من القبائل العربية وأهالي جبل نابلس والقدس، وسار بهم إلى الرملة حيث التقى مع الجيش المملوكي القادم من مصر بقيادة الأمير تمراز التمشي[١].

واستمرت الحروب بين الطرفين، فأرسل السلطان في السنة التالية تجريدة لقتال ابن عثمان، وصفها ابن إياس بأنها (من اعظم التجاريد) [٢]، ولكن السلطان اضطر إلى جمع الأموال والرجال من أنحاء الدولة (وحصل للناس من المماليك ما لا خير فيه، من أخذ البغال والخيول وغير ذلك، مما حصل به الضرر الشامل وزيادة على ذلك ظلم أرباب الدولة) [٣]. حتى ان العلماء والفقهاء لم يسلموا من ذلك، ففي سنة ٨٩١هـ (١٤٨٦م)، قدم الأمير ماماي الخاصكي إلى بيت المقدس ورسم على أكابر الناس وأخذ منهم مالاً، فأخذ من ناظر الحرمين ناصر الدين بن النشاشيبي أربعة بغال وحصاناً، ومن النائب جانم ٢٠٠ دينار، ومن شيخ الصلاحية ٣٠ ديناراً ، ومن القاضي شهاب الدين الجوهري ٣٠٠ دينار، وحصل للناس في بيت المقدس منه شده [٤]. ثم قدم بعده الأمير آقبردي الدوادار لتجهيز الرجال من جبل نابلس والقدس لقتال بايزيد بن عثمان ملك الروم، وصار يتنقل من مكان إلى آخر لجمع الرجال ودفع النفقات لهم. فتارة ينزل بأرض قاقون وتارة بأرض اللجون [٥] وتارة بالرملة، وأثناء إقامته

(١) الحنبلي: الأنس الجليل، ٢/ ٣٣٢. وقول ابن إياس هذه الحادثة أول الفتن مع ابن عثمان بسبب تعصب الأخير لعلي دولات، واستمرت الحرب بين العثمانيين والمماليك حتى انتهت بسقوط الدولة المملوكية .
(بدائع الزهور، ط الشعب، ص ٥٢٢).

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور، ط الشعب، ص٥٢٨.

(٣) ابن إياس: المصدر نفسه، ص٥٢٩.

(٤) الحنبلي: الأنس الجليل، ٢/ ٣٣٥.

(٥) قاقون: حصن يقع في فلسطين بجوار طولكرم، وكان يتبع لإقليم قيسارية الواقعة على الشاطئ، وورد ذكره في المصادر الصليبية كاكو، شاكو. =

في جبل نابلس ابقى الشيخ خليل بن إسماعيل في مشيخة جبل نابلس على عادته[١].

ولكن الصراع مع ابن عثمان والمماليك أخذ يزداد ويستشري، ففي سنة ٨٩٢هـ (١٤٨٨م) أمر السلطان إعداد القوات لمحاربة ابن عثمان، فأرسل الأمير آقْبَردي الدوادار والقاضي زين الدين بن مزهر كاتب السر الى جبل نابلس والقدس لتجهيز القوات للاشتراك في التجريدة[٢] . وحضر أعيان بيت المقدس للقائهما في الرملة، فسلم الأمير آقبردي لنائب القدس وقاضيها مبلغ خمسة آلاف دينار ليصرفا على الرجال المعينين من جبل القدس والخليل[٣] . وعند تمام استعدادهم غادرت القوات بيت المقدس، في مستهل رجب ، وانضمت إلى قوات جبل نابلس. ومنها سارت العساكر المقدسية والنابلسية لمحاربة ابن عثمان وحصلت (الشدة بسبب التجاريد وذهاب الناس إلى بلاد الروم)[٤] .

وقد عاد بعض رجال هذه التجريدة إلى بلادهم دون إذن من قادتهم، فعمد السلطان إلى إرسال الأمير آقبردي الداوادر إلى جبل نابلس والقدس وطلب من نائب القدس دقماق استرجاع مال التجريدة ممن دفع إليه من الرجال.فاسترجع دقماق الأموال بالضرب والحبس والتعذيب (وفعل بهم فعلاً لم يسمع بمثله في

= (لي سترانج، ص٤٣٨)

اللجون: بلدة تقع في حد فلسطين مع الأردن على بعد ٢٠ميلاً عن الرملة ، وهناك اللجون الواقعة في البلقاء بشرقي الأردن على طريق الحج.

(لي سترانج، ص٤٦٣، ٤٦٤).

(١) الحنبلي: الأنس الجليل/ ج٢ ص٣٣٥. ويذكر ابن إياس أن آقبردي حضر لإخماد الفتن التي حدثت بين عربان جبل نابلس والتي قتل فيها العديد من الأمراء ونذكر منهم الأمير آقبردي بن بخشايش الإينالي استادرا الأغوار.

(بدائع الزهور، ط الشعب، ص٥٣١).

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ط الشعب، ص٥٤٧.

(٣) الحنبلي : الأنس الجليل، ٢/ ٣٤٢.

(٤) الحنبلي : المصدر نفسه، ٢/ ٣٤٣.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الجاهلية، حتى أن بعض الناس باع ابنته كما يباع الرقيق، وتفاحش الأمر وبقي الناس في شدة شديدة ومحنة لم تعهد بالأرض المقدسة من قبل)[١]. ومع ذلك فإن تجهيز المحاربين من القدس ونابلس بقي قائماً، ففي سنة ٨٩٥هـ (١٤٩٠م) أرسل السلطان الأمير أزبك لجمع الرجال من جبل القدس وجبل الخليل ونابلس وغيرها من المناطق الفلسطينية للاشتراك في حرب بايزيد بن عثمان، وحصل للناس شدة بسبب ذلك[٢] . ثم انضمت هذه القوات إلى قوات الجيش المملوكي القادم من القاهرة، وقد وصف ابن إياس هذه التجريدة بأنها من نوادر التجاريد لكثرة ما اشترك فيها من الأمراء والأجناد[٣] . وتؤكد المصادر أن الطاعون الذي اجتاح البلاد سبع سنوات أفنى عدداً كبيراً من الجيش المملوكي[٤]، ولذا عمد المماليك إلى تجنيد الرجال من نيابة بيت المقدس بسبب كثافتها السكانية ولما عرف عن رجالها من البأس والقوة.

وكان جيش نيابة بيت المقدس كغيره من جيوش النيابات الأخرى في بلاد الشام، يشمل على أمراء وأجناد ومماليك، وهو جيش إقطاعي، لذا وزعت على الأمراء والأجناد الإقطاعات في أنحاء النيابة. وكان هذا الجيش يصغر ويكبر حسب الظروف، فهو في تقديرنا ألف فارس نظامي ما عدا الرجالة (المشاة) ومماليك الأمراء، ويبلغ أحياناً الألوف ويضم عندئذٍ رجال القبائل والعشير في جبل القدس والخليل وجبل نابلس، وكان السلطان يصرف لهم النفقات والجوامك كما رأينا.

---

(١) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٣٤٥.

(٢) المصدر نفسه، ٢/ ٣٤٨.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ط الشعب، ص٥٥٩.

(٤) *kedar, merchants in crisis, yele, U.S.A. 1976, p.14.*

(5)
خامساً: القلعة

قلعة بيت المقدس قلعة إسلامية ذكرها الجغرافيون العرب كالاصطخري والمقدسي وابن حوقل، وأشاروا الى أنها بناء مستطيل مبني من الحجر، فالقادم إلى القدس من جهة الرملة تكون القلعة أول بناء يقع نظرة عليه، فهي مرتفعة شامخة[١]. وتقع القلعة في الجهة الغربية ضمن أسوار المدينة[٢]، وفوق باب الخليل مباشرة . وقد بينت في هذا المكان كي تدافع عن أحد المداخل الرئيسية للمدينة المقدسة ولتؤكد أهميتها الدفاعية بجلاء أثناء الحصار[٣]. وهي قلعة حصينة كبيرة ظلت تؤدي دورها في العصور المختلفة، وكانت مكان إقامة والي بيت المقدس، وحتى أثناء الاحتلال الفرنجي للقدس بقيت القلعة تلعب دورها العسكري، وعندما حرر صلاح الدين الأيوبي القدس سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م)، أعاد ترميم هذه القلعة وشحنها بالرجال والعتاد، ورتب فيها والياً يساعده بعض الأجناد[٤] . وفي سنة ٦١٠هـ (١٢١٣م) أعاد المعظم عيسى صاحب دمشق ترميم القلعة وزاد في أبراجها برجاً وأثبت ذلك على لوحة تأسيسه نقش عليها ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم لا اله إلا الله محمد رسول الله خير نصر المؤمنين عمل هذا البرج المبارك بأمر مولانا الملك المعظم شرف الدنيا

(١) لي سترانج، فلسطين في العهد الإسلامي، ص١٨٨، وانظر: ناصر خسرو، سفرنامه، ترجمة يحيى الخشاب، بيروت، ١٩٧٠م، ص٥٦.

(٢) كانت بعض القلاع تبني ضمن أسوار المدينة وتشكل جدرانها جانباً من الأسوار ونلاحظ ذلك في (القدس، والكرك، وعسقلان، وبانياس)، وبعضها يبني مستقلاً عن أسوار المدينة، كما في (قيسارية، وعكا، والقاهرة) *benvenisti, the crusaders in the holy land, p. 273.*

(٣) *ibid., p.274.*

(٤) العماد الكاتب الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ١٤٥.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

والدين أبي المظفر عيسى بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب بن شاذي وتولى عمارته عز الدين عمر بن يغمر المعظمي في شهور سنة عشر وستمائة والحمد لله رب العالمين وبشد الفقير إلى رحمة الله خطلخ المعظمي(١).

ثم إن القلعة تعرضت للهدم من قبل المعظم عيسى سنة ٦١٦هـ (١٢١٩م) أثناء الحملة الصليبية الخامسة على دمياط، من قبل الحيطة كي لا يحتلها الفرنج ويتحصنوا خلف أسوارها، فهدم القلعة وأسوار القدس، وأبقى على برج داود أحد أبراج هذه القلعة(٢). ونتيجة لذلك غادر العديد من السكان المدينة، فقسم اتجه إلى دمشق، وآخر إلى الكرك وثالث إلى مصر(٣).

وفي سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٩م) سلم الكامل محمد سلطان مصر المدينة المقدسة إلى الإمبراطور فردريك الثاني في الحملة الصليبية السادسة، ونصت شروط المعاهدة المعقودة بين الطرفين أن تبقى أسوار القدس وقلعتها خراباً. إلا أن الفرنج انتهزوا فرصة انشغال المسلمين بخلافاتهم الداخلية فعمدوا إلى بناء القلعة وجعلوا برج داود أحد أبراجها. ولكن الملك الناصر داود أمير الكرك هاجم الفرنج في بيت المقدس وحرره من سيطرتهم وذلك في سنة ٦٣٧هـ (١٢٣٩م)، فتحصن الفرنج في برج داود، فحاصرته قواته حتى تمكنوا منه فهدم

(١) *van berchem. Corpus inscriptionum, (jerusalem), p.132.* وورد في النقش اسم (خطلخ المعظمي)، وهو (مبارز الدين بن خطلخ) أحد أمراء المعظم عيسى، وقد ساءت العلاقة بينه وبين سيده المعظم، فأرسله إلى مصر سنة ٦١٦هـ نجدة لأخيه الكامل محمد أثناء الحملة الصليبية الخامسة على دمياط، ورافقه الأمير مبارز الدين سنقر الحلبي (ابن واصل، مفرج الكروب ٤/ ٢٣، ٢٤).

(٢) *Eracles, Recueil des historiens, H. occ. Vol. 2,p. 379.* ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٣ ص٢٢٣، ابن واصل، مفرج الكروب، ج٤، ص٢٢، المقريزي، السلوك، ١/ ٢٠٤.

(٣) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ٨/ ٣٩٥، السلامي، مختصر التواريخ، لوحة ٣٢٢ (مخطوط)، وللباحث، إمارة الكرك الأيوبية، ص٢٠١.

الناصر هذا البرج وسواه بالأرض[١]. أما القلعة نفسها، فقد أرسل للخليفة في بغداد يستشيره أيهدمها أم لتكون معقلاً لبيت المقدس وموئلاً للمجاورين فيه؟[٢] ، والظاهر أن الناصر داود أبقى القلعة ولكنه بنى مكان برج داود مسجداً وجعل فيه القوام والمؤذنين[٣] .

ثم ان الناصر محمد بن قلاوون جدد بناء هذه القلعة بعد ان انهدمت بعض أجزائها[٤] ، وبنى فيها الجامع الحالي سنة ٧١٠هـ (١٣١٠م) واثبت ذلك على لوحة تأسيسية عليها النقش التالي:

بسملة... انشأ هذا الجامع المبارك مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن السلطان المنصور سيف الدنيا والدين قلاون اعز الله نصره في تاريخ سنة عشرة وسبعمائة حسبنا الله ونعم الوكيل[٥] .

وبقيت القلعة تؤدي دورها في حماية المدينة المقدسة ومكاناً لإقامة الوالي حتى العصر المملوكي، فاصبح في القدس نائبان ووالي . والذي كان يقيم في القلعة سمي (نائب القلعة) أو والي القلعة[٦] ، وكان التعيين فيها يتم من قبل نائب القدس[٧] ، أما نائب السلطنة فكان يقيم في (دار النيابة). وكان لدى نائب

(١) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة، ٣/ ٢٣٢، وانظر:
van Berchem, corpus insciptionum (jerusalem), p. 134.

(٢) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ٣/ ٢٣٢. وللباحث، إمارة الكرك الأيوبية، ص٢٥٨.

(٣) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ٣/ ٢٣٣.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٤/ ١٠١.

(٥) *van Berchem, corpus inscriptionum (jerusalem), p.160.* أشرنا إلى أن الناصر داود هو الذي بنى الجامع مكان برج داود، ولكن هذه اللوحة تروي أن هذا الجامع هو من بناء الناصر محمد بن قلاوون، لذا فإننا نرى أن محمد جدد بناءه وأثبت ذلك في هذا النقش.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ٤/ ١٩٩، ١٢/ ٣٢٥، الخالدي، المقصد الرفيع المنشأ، لوحة ١٤٧ (مخطوط).

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ٤/ ١٩٩.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

القلعة الأجناد لمساعدته في حفظ الأمن والنظام والدفاع عن المدينة المقدسة، بالإضافة إلى أن القلعة كانت مخزناً للمؤن والذخائر والأسلحة. ويتبع نائب القلعة عادة البريد، فكانت هناك أبراج للحمام الزاجل ولا يأتمر البريدي إلا بأوامر نائب القلعة. ووجد في قلعة القدس الطبلخاناه التي كانت تدق ليلاً لتعلم الناس بأوقات الليل، وكانت تشترك في الاحتفالات وكذا أثناء خروج النائب من المدينة أو عند استقبال زائر أو تعيين نائب جديد. وممن تولى نيابة هذه القلعة نذكر: شرف الدين موسى الرادادي تولى هذا المنصب من قبل السلطان في القاهرة، والظاهر أن التولية فيها أصبحت فيما بعد من قبل السلطان[١]. وبقيت القلعة تؤدي دورها في العصر العثماني، فرممها السلطان سليمان الثاني في سنة ٩٣٨هـ (١٥٣١م)، وأثنت ذلك في نقش كتابي نقله إلينا برشيم في كتابه[٢].

(١) القلقشندي، صبح الأعشى ١٢/ ٣٢٥، وانظر نص التوقيع في الملاحق.

(٢) *van Berchem. P.147.*

(6)
سادساً: ولاية نابلس والرملة والخليل

اتسعت نيابة بيت المقدس فاشتملت على كل من : الرملة ونابلس والخليل، وكان طبيعيا ان تكون الخليل تابعة للقدس، إذ أن نائبها في أحيان كثيرة كان يتولى نيابة بيت المقدس ونظر الحرمين في القدس والخليل. أما الرملة فكانت موضع نزاع بين نيابة غزة ونيابة بيت المقدس، ففي أحيان تتبع غزة وفي أخرى تكون تابعة للقدس، ولكن في أواخر دولة المماليك الثانية صدر المرسوم السلطاني بضم كشف الرملة إلى نيابة بيت المقدس[١]. أما في أوائل دولة المماليك الأولى فإن اللد والرملة كان يتولاها الأمير غرس الدين بن شاور وذلك سنة ٦٨٢هـ (١٢٨٣م)[٢]. وكانت نابلس أيضا ضمن أملاك نيابة بيت المقدس، فالمرسوم السلطاني كان ينص على توليه نائب بيت المقدس (نيابة القدس ونظر الخليل وكشف الرملة ونابلس)[٣]. وجرت العادة أن يعين النائب في كل من الرملة ونابلس (كاشفاً) ينوب عنه في حكم الولاية[٤]. ويذكر الخالدي أن متولي نيابة بيت المقدس يكون من الأبواب الشريفة في القاهرة، ويضاف إليه نظر القدس والخليل وربما أضيفت إليه الرملة ونابلس[٥]. ووجد في كل من الرملة ونابلس قوات كانت تساعد الوالي في

(١) الأنس الجليل، ٢/ ٣٧٣، ٣٧٤.

(٢) المقريزي، السلوك، ١/ ٣/ ٧١٥.

(٣) المقريزي، السلوك، ٤/ ٢/ ٩٧٥، ابن الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ٣/ ٣٤٨.
وفي سنة ٨٤٠هـ ولى السلطان برسباي الأمير طوغان العثماني نظر الحرمين الشريفين ونيابة السلطنة بالقدس الشريف وبلد الخليل وكاشف الرملة ونابلس ومتولي الصلت وعجلون واستادار الأغوار. (الانس الجليل، ٢/ ١٧٥).

(٤) الأنس الجليل، ٢/ ٣٧٤. ومن الذين تولوا كشف الرملة (الجمالي يوسف).

(٥) الخالدي، المقصد الرفيع المنشأ، لوحة ١٤٧ (مخطوط).

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

نشر الأمن في ربوع الولاية، وربما كُلّفت تلك القوات في مهمات خارج الولاية كالقضاء على الفتن والخارجين على الدولة[١].

نابلس:

ونابلس من مدن فلسطين المشهورة، ذكرها الجغرافيون والمؤرخون العرب والمسلمون، وتبعد عن القدس مسافة ٧٥ كم، وحولها معاملة جميلة كثيرة الخيرات، وتكثر فيها المياه الجارية والحمامات والمساجد والمدارس، نذكر منها المدرسة الفخرية التي بناها القاضي فخر الدين أبو عبد الله ناظر الجيوش بالديار المصرية في عهد الناصر محمد بن قلاوون[٢] . ويذكر ابن بطوطة الذي زارها في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) أنها تشتهر بالأشجار وخصوصاً أشجار الزيتون، ويصدر زيت الزيتون إلى دمشق والقاهرة والى جزر البحر المتوسط، ويصنعون منه الصابون الجيد[٣]، لذا انتشرت المصابن في نابلس لصنع الصابون[٤]. ويذكر الدمشقي ان قسماً من هذا الزيت كان يرسل إلى دمشق لإضاءة الجامع الأموي وبلغ ألف قنطار شامي سنوياً[٥]. وفي نابلس كانت تصنع حلواء الخروب وتصدر إلى دمشق ومصر وغيرها[٦]، كما كثرت فيها أماكن صنع الورق (الوراقة)[٧] واستخدموا حلفاء الأغوار لهذه الغاية. ولكثرة ما يخص السلطان من زيت نابلس فقد كان يفرض بيعه على أهالي وتجار الرملة والقدس والخليل وغزة بأسعار باهضة مما يسبب تذمر واستياء الأهالي[٨].

(١) المقريزي، السلوك، ٤/ ١/ ٤٤٦.

(٢) ابو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٩/ ٢٩٦.

(٣) ابن بطوط، الرحلة، ص٥٦. *Benvenisti, The crusaders in the Holy land, p. 161.* .

(٤) *Van Berchem, corpus inscriptionum, (jerusalem), p.11.*

(٥) لي سترانج، ص٤٨٧.

(٦) ابن بطوطة، الرحلة، ص٥٦، ٥٧.

(٧) *Van Berchem, croupus, p.214.*

(٨) الأنس الجليل، ٢/ ٣٧٣، ٣٧٤.

وقد لعبت منطقة جبل نابلس دوراً له أهميته في أواخر دولة المماليك الثانية (الجراكسة) ، فللكثافة السكانية التي كانت تتمتع بها أصبحت مصدراً لجمع الرجال وتجنيدهم لحرب ابن عثمان بعدما أصبحت القوة المملوكية تضعف تدريجياً بسبب قلة مواردها الاقتصادية وتحول طرق التجارة العالمية عن ممتلكاتها في مصر والشام.

وكان يحكم نابلس أمير أو كاشف يعين من قبل نائب بيت المقدس يساعده بعض الأجناد في حفظ الأمن والنظام في الولاية، رتبته أمير طبلخاناه ومن أمراء الطلبخاناه الذين تولوا نابلس الأمير أبو القاسم بن عثمان أبي القاسم التميمي (ت٧٦٠هـ)[١] وفي أحيان يتولاها أمير برتبة أمير عشرين أو أمير عشرة[٢]. إلا أن التعيين في ولاية نابلس اصبح فيما بعد من السلطان في القاهرة، وقد نقل إلينا القلقشندي نسخة توقيع بولاية نابلس من إنشاء ابن نباتة، طلب السلطان من الوالي مراقبة الأمن والمحافظة على أرواح وأرزاق المواطنين وإصلاح أمور العشير في جبال نابلس[٣] .

الرملة:

الرملة مدينة قديمة وجدت في العصر البيزنطي ونالت اهتمام الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك فجدد بناءها عندما كان أميرا على فلسطين وأتخذها

(١) الأنس الجليل، ٢/ ٢٧٢.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٤/ ٢٠٠.
أمير عشرة: والجمع أمراء العشرات، وهم الطبقة الثالثة في صفوف الأمراء المماليك، ولكل أمير عشرة له عشرة فوارس. أما أمراء العشرين فهم الطبقة الثانية في صفوف الأمراء المماليك وكل أمير عشرين له عشرون فارساً. وطبقة أمراء العشرة هم أكثر طبقة في الجيش المملوكي.
(القلقشندي، صبح الأعشى، ٤/ ١٥). وللباحث، غلاة الشيعة الباطنية في بلاد الشام، جمعية المطابع التعاونية، عمان، ١٩٨١، ص٣٤ هامش رقم ٤٤.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ١٢/ ٣٢٢، وأنظر نص التوقيع في الملاحق.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

حاضرة جنده[١]، فهو أول من مصرها وجعلها من المدن الفلسطينية الهامة وتبعد الرملة عن القدس مسافة ١٨ ميلاً، وتقع في منطقة خصبة تحيط بها المزارع والحقول، وقد أطنب الجغرافيون العرب في وصف حسنها وجمالها ونظافة شوارعها وكثرة فنادقها واتساع مساجدها، وأنها ذات تجارة رائجة وأسواق مملوءة بالسلع والبضائع المختلفة[٢].

وذكر ناصر خسرو الذي زارها في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) أن معظم بيوت الرملة زينت بالرخام المنقوش الكثير الزينة والذي اشتهرت به المنطقة المحيطة، وهو أنواع منه: الملمع والأخضر والأحمر والأسود والأبيض[٣]. أما ابن بطوطة فقد زارها في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) فذكر أنها مدينة كبيرة كثيرة الخيرات حسنة الأسواق، وبها الجامع الأبيض الذي بناه الخليفة سليمان بن عبد الملك، وهو جامع كبير في غاية الحسن والجمال[٤].

وكان يحيط بمدينة الرملة سور متين ولها قلعة حصينة هدمها السلطان صلاح الدين الأيوبي بعد أن حررها من الفرنج، وكانت عادة هدم أسوار المدن والقلاع منتشرة في العصر الأيوبي، وفعل بعض السلاطين المماليك ذلك منهم الأشرف خليل بحجة منع الفرنج من إعادة احتلالها والتحصن خلف أسوارها. فالعادل هدم قلعة الطور وكوكب الهواء، والمعظم عيسى هدم أسوار القدس، أما الأشرف خليل فهدم أسوار عكا وصيدا وبيروت وصور وحيفا وعثليت وانطرسوس[٥]. وقد

(١) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة، ٣/ ١٨١.

(٢) الإدريسي، نزهة المشتاق (القسم الخاص ببلاد الشام)، ص٤. لي سترانج، ص٢٥٣.

(٣) ناصر خسرو، سفرنامة، ص٥٤، ٥٥.

(٤) ابن بطوطة، الرحلة، ص٥٦.

(٥) *prawer, the latin kingdom, p.379.* وللباحث ، تاريخ شرقي الأردن، القسم السياسي، ص١٣٥، ١٤١.

تلاشت أسوار الرملة وقلعتها في العصر المملوكي، ولكن أسواقها بقيت عامرة كثيرة متشعبة نذكر منها: سوق القماحين، وسوق البصالين، وسوق القطانين، وسوق المشاطين الذين يمشطون الكتان، وسوق العطارين، وسوق الحبّابين، وسوق الخرازين، وسوق البقالين، وسوق الصياقلة، وسوق السراجية[١]. وقد اهتم السلاطين المماليك بمدينة الرملة وأقاموا فيها بعض المنشآت نذكر منهم: الظاهر بيبرس والناصر محمد قلاوون والظاهر جقمق وغيرهم.

وكان يتولى مدينة الرملة واللد أمير وذلك منذ عهد الظاهر بيبرس، وبقي الأمر كذلك حتى عهد السلطان قلاوون، ففي سنة ٦٨٢هـ (١٢٨٣م) ألقى السلطان قلاوون القبض على الأمير غرس الدين بن شاور متولي الرملة ولد وولى عوضه الأمير علم الدين سنجر الصالحي[٢]. وبقيت ولاية الرملة حتى عهد الناصر محمد بن قلاوون ولاية صغيرة، إلا أن السلطان برقوق رفع رتبة متوليها فأصبح (كاشفاً) طلبخاناه[٣]، وأضيفت إليه اللد، وممن اصدر السلطان لهم توقيعاً بكشف الرملة الأمير أبو بكر أمير علم[٤] وباعتقادنا أن الظاهر برقوق رفع رتبة متولي الرملة في نفس الوقت الذي جعل من القدس نيابة مستقلة. وكان كاشف الرملة في سنة ٨١١هـ (١٤٠٨م) الأمير تغري برمش[٥]، وفي سنة ٨٢١هـ (١٤١٨م) اشترك كاشف الرملة مع نائب القدس وغيره في نجده نائب الكرك ضد قبائل بني عقبة الثائرة هناك[٦].

وتحولت الرملة فيما بعد إلى استادارية تماماً كاستادارية الأغوار لأهميتها،

(١) الأنس الجليل، ٢/ ٩٨.
(٢) المقريزي، السلوك، ١/ ٣/ ٧١٥.
(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ٤/ ١٩٩.
(٤) القلقشندي، المصدر نفسه، ١٢/ ٣١٥. وأنظر نص التوقيع في الملاحق.
(٥) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ١٣/ ٧٥.
(٦) المقريزي، السلوك، ٤/ ١/ ٤٤٦، ٤٥١.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وأصبح متوليها أمير برتبة استادار، وممن تولى استدارية الرملة الامير شاهين الكيالي الذي بنى فيها منارة ومسجداً وأوقف عليه أوقافاً كثيرة وذلك سنة ٨٥٤هـ (١٤٥٠م) في عهد السلطان جقمق[١]. ومع ذلك بقيت استدارية الرملة تابعة لنيابة بيت المقدس، اذ كان المرسوم يصدر من القاهرة بان يكون لنائب القدس حق الكشف على الرملة ونابلس كما حدث سنة ٨٣٩هـ (١٤٣٥م) فقد عين السلطان الاشرف برسباي الامير طوغان نائباً لبيت المقدس ونظر الخليل وكشف الرملة ونابلس[٢].وهناك نقش حجري محفوظ في المتحف الاسلامي في القدس عليه مرسوم صادر عن السلطان قايتباي سنة ٨٨٢هـ (١٤٧٧م) لكاشف الرملة يطلب منه عدم معارضة التركماني هذا نصه:

١. المراسيم بالأمر الشريف السلطاني الملكي الأشرفي.

٢. أبو النصر قايتباي عز نصره إلى كاشف الرملة...

٣. كاشف انه لا يعارض التركمان الفرات ولا يطلب منهم.

٤. بإخارة ولا يطفهم الدرهم الفرد كل من خالف ذلك يخالف.

٥. الأمر الشريف بتاريخ صفر سنة اثنتين وثمانين ثمانمائة[٣].

ولكن الرملة كانت في أحيان أخرى تابعة لنيابة غزة مما يسبب نزاعاً وخلافاً بين النيابتين فعمد السلطان قاتيباي سنة ٩٠٠هـ (١٤٩٤م) إلى نقل كشف الرملة نهائياً إلي نيابة بيت المقدس وأصدر مرسوماً بذلك بأن جعل التكلم على كشف الرملة للأمير جان بلاط ناظر الحرمين ونائب القدس وأخرجت عن الأمير قاني بك نائب غزة.[٤].

---

(١) الأنس الجليل، ٢/ ٦٩، ٧٠.

(٢) المقريزي، السلوك، ٤/ ٢/ ٩٧٥، وأنظر: الخالدي، المقصد الرفيع، لوحة ١٤٧ (مخطوط).

(٣) *levant, vol. XI, 1979, p.135.*

(٤) الأنس الجليل، ٢/ ٣٧٣.

الخليل :

تقع الخليل إلى الجنوب من بيت المقدس في واد بين الجبال، وذكر الجغرافيون العرب والمسلمون كالأصطخري والمقدسي وناصر خسرو والإدريسي وياقوت أنها تشتهر بالأشجار الكثيرة المتنوعة كالزيتون والتين والجميز والعنب والتفاح والخروب، وفاكهتها لا مثيل لها ويصدر قسم كبير منها إلى مصر والبلاد المجاورة[١]، كما تجود فيها زراعة القمح والشعير[٢]، وسميت الخليل نسبة إلى إبراهيم الذي دفن في مغارة تحت الأرض، وله مسجد وزوار، وقد وقفت بلد الخليل مع قرى أخرى كثيرة على هذا المشهد[٣].

وأصبح بلد الخليل في العصر المملوكي إقطاعاً لنائب الكرك، ففي سنة ٦٦١هـ (١٢٦٣م) منح الملك الظاهر بيبرس الأمير عز الدين أيدمر الظاهري بلد الخليل إقطاعا له، ثم انتزعه منه ومنحه لنائب الكرك الجديد الأمير علاء الدين ايدكين الفخري[٤]. ومن المعروف أن الخليل كانت في فترة الحروب الصليبية تقع تحت سلطة لوردات بارونية شرقي الأردن (الكرك)[٥].

وكان في بلد الخليل قلعة حصينة مبنية بحجارة ضخمة مربعة ملاصقة للمسجد من جهته الغربية، الا ان السلطان الناصر حول هذه القلعة إلى مدرسة ووقف عليها أوقافاً عديدة[٦]. ويؤم الخليل العديد من الزوار وقد اعد لهؤلاء

(١) لي سترانج، ص٢٥٧.
(٢) ناصر خسرو، سفرنامة، ص ٧٣.
(٣) ناصر خسرو، سفرنامة، ص ٧١، ياقوت، معجم البلدان، ج٣ ص٤٢٦.. ابن بطوطة ، الرحلة، ص ٥١.
(٤) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ٣/ ٢٤٢، وللباحث،شرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى القسم الحضاري ، ص٧.
(٥) *Benvenisti, op. cit., p.13.*
(٦) ياقوت، معجم البلدان، ٣/ ٤٢٦، الأنس الجليل، ٢/ ٧٨، لي سترانج، ص٢٥٧.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الضيوف والزائرين والمسافرين (مضيف) يقوم على خدمتهم وتقديم الطعام إليهم. لذا أقيمت الطواحين التي تدار بواسطة البغال والثيران لطحن الدقيق، وأعدت الخادمات في هذا المضيف لخبز الأرغفة طوال اليوم. ويقدم لكل شخص يومياً رغيف مستدير وطبق من العدس المطبوخ بالزيت وشيء من الزبيب، ويذكر ناصر خسرو أن الزوار كانوا يبلغون في بعض الأيام خمسمائة زائر[١]. وقد توقفت هذه الخدمة في فترة الصراع الصليبي في الأراضي المقدسة، ولكن السلطان الظاهر بيبرس أعادها كما كانت سنة ٦٦٢هـ (١٢٦٣م) كما رتب الرواتب للمقيمين والواردين إلى مدينة الخليل[٢].

وفي القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) زار ابن بطوطة الخليل فذكر أنها مدينة صغيرة الساحة كبيرة المقدار، حسنة المنظر، في بطن واد ومسجدها أنيق الصنعة محكم العمل[٣]، ومن أسواقها نذكر: سوق الحصرية، وسوق الزياتين، وسوق الغزل[٤].

وقد عمد الناصر محمد بن قلاوون إلى جعلها ولاية وعين فيها والياً مستقلا وبقيت كذلك حتى تحول القدس الى نيابة مستقلة، فأضيفت بلد الخليل إلى نيابة بيت المقدس، وصار النائب يتولى بالإضافة إلى بيت المقدس . نظر الحرمين الشريفين في القدس والخليل[٥]. وكانت مدينة الخليل في العصر المملوكي تحتوي على حارات عديدة منها: حارة الأكراد وتقع شرقي المسجد، ثم حارة الجبارية، وحارة المشرفية، وحارة السواكنة، وحارة النصارى، وحارة اليهود، وحارة الزجاجين، أما حارة الدارية فتقع غربي

(١) ناصر خسرو، سفرنامة، ص٧٣.
(٢) المقريزي ، السلوك، ١/ ٢/ ٥٠٥.
(٣) ابن بطوطة، الرحلة، ص٥١.
(٤) الأنس الجليل، ٢/ ٧٩.
(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ٤/ ١٩٩.

المسجد وهي احسن الحارات وفيها معظم أسواق البلد[١].

وأقيم في الخليل في العصر المملوكي العديد من المدارس كمدرسة السلطان حسن، والمدرسة الفخرية نسبة الى القاضي فخر الدين أبو عبد الله محمد بن فضل الله ناظر الجيوش الإسلامية (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)[٢]، والمدرسة القيمرية وتقع قرب عين الطواش وبجانب باب المسجد الشمالي[٣]. وهناك العديد من الزوايا والأربطة والمساجد التي أقامها المماليك في الخليل منها زاوية القواسمة، والزاوية البسطامية، والزاوية السمانية، وزاوية شيخون ، والزاوية القادرية، ورباط مكي ويقع غربي المدينة، ورباط الحماعيلي بحارة النصارى، والرباط المنصوري نسبة الى السلطان قلاوون ويقع تجاه باب القلعة. ومسجد ابن عثمان الواقع بسوق الحصرية والزياتين، والمسجد الجاولي نسبة الى الأمير علم الدين سنجر الجاولي ومسجد مسعود وغيرها كثير[٤]. ومن المعالم الهامة في الخليل البيمارستان المنصوري، بناه السلطان قلاوون سنة ٦٨٠هـ (١٢٨١م) ووقف عليه الأوقاف العديدة، ورتب فيه الأطباء لخدمة سكان بلد الخليل[٥].

وفي أواخر القرن التاسع الهجري كانت الدولة المملوكية في طور الانحدار والضعف، ولم تقوَ على الصمود أمام ضغط العثمانيين، فعمد السلاطين الى تجنيد الرجال من جبل الخليل لقتال ابن عثمان ملك الروم[٦]، وهذا دلالة على أن الديموغرافية السكانية في الخليل ومعاملتها كانت كبيرة وكثيفة، لذا عمد

(١) الأنس الجليل، ٢/٧٨.
(٢) الأنس الجليل، ٢/٧٩، عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ج١، ١٩٦١م، ص٢٤٦.
(٣) الأنس الجليل، ٢/٧٨.
(٤) الأنس الجليل، ٢/ ٧٩ ، ٢٧٢.
(٥) الأنس الجليل، ٢/ ٧٩ .
(٦) الأنس الجليل، ٢/ ٣٤٨ .

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

السلاطين المماليك الى تجنيد الرجال وتسخيرهم للقتال في صفوف قواتهم. ولم تذكر المصادر عن وجود والي مستقل لمدينة الخليل، كما كان في كل من الرملة ونابلس فكان في كُلٍّ كاشف يعين من نائب القدس، أما الخليل فكانت تتبع نائب القدس مباشرة، وناظر الحرمين فيهما ناظر واحد.

هاشم ياسين الزواهرة

الفصل الثالث: الحياة الاقتصادية في نيابة بيت المقدس

١- الزراعة وإقطاع الأراضي.

٢- التجارة الداخلية والخارجية.

٣- المكاييل والأوزان.

٤- السكة.

٥- الموارد المالية في النيابة.

٦- الأوقاف.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(1)
الزراعة وإقطاع الأراضي

كانت أراضي نيابة بيت المقدس إقطاعات عسكرية شأنها في ذلك شان بقية الأراضي الشامية والمصرية معاً، ويرى أستاذنا الدكتور عبد العزيز الدوري أن تحولاً هاماً دخل الى العراق بعد التغلب البويهي في القرن الرابع الهجري وذلك بمنح الجند (إقطاعات) بدل العطاء، وشمل هذا الإقطاع أنواع الأراضي كلها، وهذا ما يسمى (الإقطاع العسكري)[١]، وتطور هذا الإقطاع في العصر السلجوقي فأتموا ما بدأه البويهيون، فمنح السلاجقة الإقطاع لجنودهم بدل العطاء، وكانت سعة الإقطاع تتناسب وعدد المقاتلين الذين يقدمهم المقطع، وهو على هذا يتمتع بنفوذ محلي في إقطاعه[٢]. وعن السلاجقة نقل الزنكيون والأيوبيون والمماليك نظام الإقطاع العسكري، ونشروه في مصر وبلاد الشام.

ودخل النظام الإقطاعي العسكري للأراضي الفلسطينية منذ دخول السلاجقة الى بلاد الشام في القرن الخامس الهجري، حتى إن بيت المقدس كان إقطاعاً للأراتقة ثم تمكن الأفضل شاهنشاه وزير مصر الفاطمية فيما بعد من انتزاع بيت المقدس من سكمان وايلغازي ولدي ارتق بن اكسب وولي عليه من قبله في نفس الوقت الذي كانت فيه جموع الحملة الصليبية الأولى في طريقها الى بيت المقدس[٣]، حيث استولوا عليه في سنة ٤٩٢هـ (١٠٩٩م) وأقاموا فيه مملكة

(١) عبد العزيز الدوري، نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية، فصلة من مجلة العراقي، بغداد، ١٩٧٠، ص٤، ١٥.

(٢) عبد العزيز الدوري، المرجع السابق، ص٢١، وانظر: السبكي، طبقات الشافعية، ٣/ ١٣٩.

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢ ص١٠٤، للباحث، بيت المقدس في الحملة الصليبية الأولى، بحث ألقي في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٠، ص١٢، ١٣.

بيت المقدس اللاتينية. وقد نقل الفرنج الى بلاد الشام بعض النظم الإقطاعية الأوروبية وكان معظم السكان في الأراضي الفلسطينية مرتبطين بالزراعة، لأنها كانت تشكل القواعد الاقتصادية للنظام الفرنجي[١]. وقبل مجيء الفرنج الى بلاد الشام، إنعدمت الزراعة في بعض المناطق الفلسطينية نتيجة للصراع الذي نشب بين السلاجقة والفاطميين، وبعد الهجمة الصليبية الأولى هجر الآلاف من السكان قراهم في فلسطين، فادى ذلك الى خراب العديد من الحقول الزراعية[٢]. وعند تحرير بيت المقدس من الفرنج سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) اضطر صلاح الدين الأيوبي الى تزويد بيت المقدس والمدن الفلسطينية الأخرى بالغلال من البلقاء والصلت في منطقة شرقي الأردن[٣].

أما في العصر الأيوبي، فقد أقطعت مدن وقرى عديدة من فلسطين الى بعض الأمراء والملوك الايوبين، فالكامل محمد اقطع الناصر داود الكرك وعجلون والبلقاء ونابلس والخليل وبيت جبريل وأعمال القدس، لان القدس منحه لفريدريك الثاني إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٩م). أما الصالح نجم الدين أيوب فقد اقطع في سنة ٦٤٢هـ (١٢٤٤م) بيت المقدس للخوارزمية وبقيت بأيديهم لفترة قصيرة[٤]. واقطع الناصر يوسف صاحب دمشق الأمير ركن الدين بيبرس البند قداري خبز مائة فارس منها: نابلس وجنين وزرعين، كما اقطع بعض الأمراء البحرية أجزاء من الساحل الفلسطيني[٥]. وهناك

(١) *Benvenisti, the crusaders in the Holy land. P. 213.*

(٢) *ibid., p. 213.*

(٣) العماد الكاتب، الفتح القسي في الفتح القدسي، ٢/ ٦١١، أبو شامة، الروضتين، ٢/ ١٩٧.

(٤) ابن واصل، مفرج الكروب، القاهرة، ١٩٧٧، ٥/ ٣٣٧.

Robert, Iqta, and the end of the crusader states, from the eastern mediterranean lands. Edited by: Holt, England, 1977. p.64.

(٥) النجوم الزاهرة، ٧/ ٩٧، ٩٩، *Robert, Iiqta, p.64.* وللباحث، إمارة الكرك الأيوبية، ص٢٩٥.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

قرى عديدة أقطعت لبعض الأمراء بعد عزلهم، فكانوا يذهبون للإقامة قرب إقطاعاتهم، ففي سنة ٦٦٦هـ(١٢٦٧م) اقطع كل من الأميرين طيبرس الوزيري وسنجر الحموي قرية في منطقة يافا واللد، كما أعطي الأمير علاء الدين الحجي الركني قريتين في فلسطين عندما عزل من منصبه[١].

وفي العصر المملوكي كانت مدينة الخليل إقطاعاً لنائب الكرك[٢]، وفي سنة ٨٠٠هـ (١٣٩٧م) اقطع الأمير شيخ الصفوي نصف بيت لحم وبيت جاله، إلى جانب إقطاعه[٣]. وكان اذ ذاك مقيما في بيت المقدس. ومن أوائل من أدخل (الإقطاع العسكري) إلى فلسطين في العصر المملوكي، الملك الظاهر بيبرس البندقداري. فبعد تحرير أرسوف من الفرنج سنة ٦٦٣هـ (١٢٦٤م) كشف بلاد قيسارية ووزع الاقطاعات على أمرائه وكتب قاضي دمشق شمس الدين بن خلكان مرسوم التملك لهذه الاقطاعات على الشكل التالي:

١- القرى المقطعة بكمالها لأمير من الأمراء وهي:

الأمير المقطع	القرية	مقدار الاقطاع
فارس الدين اقطاي	عتيل	بكمالها
ركن الدين خاص ترك الكبير الصالحي	أفراسين	بكمالها
علاء الدين ايدكين البندقدار الصالحي	باقة الشرقية[٤]	بكمالها
جمال الدين آقوش النجمي (نائب السلطنة بالشام)	أم الفحم[٥]	بكمالها
علم الدين سنجر الحلبي	تبان (من قيسارية)	بكمالها

(١) *Robert Iqta, p. 68.*

(٢) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ٣/ ٢٤٢ *Robert, Iqta, p.65*

(٣) المقريزي، السلوك، ٣/ ٢/ ٨٨٩.

(٤) تقع بين نابلس وقلقيلية.

(٥) تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة حيفا.

ناصر الدين محمد بن بركتخان	دير الغصون[١]	بكمالها
سيف الدين قشتمر العجمي	علار	بكمالها
علم الدين طرطج الأسدي[٢]	أقتابة	بكمالها
حسام الدين ايتمش ابن أطلس	خان سيدا[٣]	بكمالها
علاء الدين كندغدي الظاهري	الصفرا	بكمالها
عز الدين أيبك الفخري[٤]	القصير	بكمالها
علم الدين سنجر الصيرفي الظاهري	أخصاص	بكمالها
سيف الدين بيدغان الركني	فرديسيا (من قيسارية)	بكمالها

٢- القرى المقطعة لأكثر من أمير وهي:

الأمير المقطع	القرية	مقدار الإقطاع
جمال الدين ايدغدي العزيزي	زيتا	نصفها
شمس الدين الدكز الركني[٥]	زيتا	ربعها
سيف الدين قليج البغدادي	زيتا	ربعها
بدر الدين بيسري الشمسي الصالحي	طولكرم	نصفها
بدر الدين بيليك الخزندار	طولكرم	نصفها
عز الدين أيدمر الحلبي الصالحي	قلنسوة	نصفها
شمس الدين سنقر الرومي الصالحي	قلنسوة	نصفها
سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي	طيبة الاسم	نصفها
عز الدين ايغان سم الموت الركني	طيبة الاسم	نصفها
جمال الدين آقوش المحمدي الصالحي	بورين	نصفها

(١) في المقريزي (دير الغصون) والاسم هو (بدر الدين محمدي ولد الأمير حسام الدين بركة خان). السلوك، ١/ ٢/ ٥٣٣.

(٢) ورد اسمه في كتاب حسن المناقب السرية، (علم الدين طروج الآمدي والقرية (اسناتا) ص٩٦).

(٣) أرى أنها (خان زيتا) حيث يوجد قرية اسمها زيتا شمال طولكرم.

(٤) ورد الاسم في المقريزي (عز الدين الأتابك الفخري)، السلوك، ١/ ٢/ ٥٣٣ .

(٥) ورد الاسم في المقريزي (شمس الدين الذكر الكركي)، السلوك ١/ ٢/ ٥٣٢ .

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

فخر الدين الطنبا الحمصي	بورين	نصفها
بدر الدين بيليك الأيدمري الصالحي	بيزين	نصفها
جمال الدين ايدغدي الخاصي الناصري	بيزين[١]	نصفها
فخر الدين عثمان ابن الملك المغيث	حكمة	ثلثها
شمس الدين سلار البغدادي	حكمة	ثلثها
صارم الدين صراغان	حكمة[٢]	ثلثها
ناصر الدين القيمري	البرج الأحمر	نصفها
سيف الدين بلبان الزيني الصالحي	البرج الأحمر	نصفها
سيف الدين إيتامش السعدي	يمّا	نصفها
شمس الدين آق سنقر السلحدار الظاهري	يمّا	نصفها
الملك المجاهد ابن صاحب الموصل[٣]	دنابّه	نصفها
الملك المظفر صاحب سنجار	دنابّه	نصفها
عز الدين أيبك الأفرم الصالحي	الشويكة (قرب طولكرم)	نصفها
سيف الدين كرمون إغا التتري	الشويكة	نصفها
بدر الدين الوزيري	طبرس	نصفها
ركن الدين منكورس المهمندار[٤]	طبرس	نصفها
علاء الدين كور قبشاق[٥]	عرعرا	نصفها
سيف الدين قفجق البغدادي	عرعرا	نصفها
سيف الدن دكجل البغدادي	فرعون	نصفها
علم الدين سنجر الأزكشي	فرعون	نصفها

(١) أرى أنها بير زيت القريبة من القدس.

(٢) شافع بن علي، حسن المناقب السرية، ص٩٥. وحكمة بلدة في شمال الأردن الحالية قرب مدينة اربد.

(٣) ورد الاسم في المقريزي (الملك المجاهد سيف الدين اسحاق صاحب الجزيرة)، السلوك، ١/ ٢/ ٥٣٣.

(٤) في المقريزي (ركن الدين منكورس الدويداري)، السلوك، ١/ ٢/ ٥٣٣.

(٥) في المقريزي (الأمير علاء الدين أخو الدويدار)، السلوك، ١/ ٢/ ٥٣٣.

وهكذا فإن البويهيين هم الذين بدأوا خط الإقطاع العسكري، والسلاجقة هم الذين نشروه وأعطوه أبعَاداً جديدة، فأتخذ الإقطاعيون لأنفسهم حقوق السيادة على الفلاحين والزراع، وفرضوا عليهم رسوماً وقيوداً شلت حركتهم وحدت من حريتهم، ونتيجة لتطور الأحداث اضطرت الدولة الاعتراف بتلك التطورات فأصبح الإقطاع إقطاع الأرض ثم صار وراثياً يصاحبه سلطة شاملة على الزراع، كل هذا مقابل تقديم الجند للدولة[١].

أما الإقطاع العسكري في الدولة المملوكية فلم يكن وراثياً، فهو ينتهي بموت صاحبه، وربما انتزع منه ومنح لأمير آخر، ولكننا نجد حالات خاصة لبعض (إقطاعات التمليك) التي تنتقل للورثة الأبناء أو الإخوان[٢][٣]. وهنا نتساءل هل الإقطاعات السالفة الذكر التي منحها الظاهر بيبرس لأمرائه إقطاعات تمليك أم إقطاعات عسكرية؟ فمفصل بن أبي الفضائل ذكر أن الظاهر بيبرس (أمر أن تملك الأمراء المجاهدين البلاد التي فتحها الله عز وجل على أيديهم وكتب التواقيع بذلك)[٤]، أما شافع بن علي فقال: (وخرج الأمر العالي، لا يزال يشتمل الأعقاب والذراري وينير إنارة الأنجم الدراري أن يملك جماعة أمرائه وخواصه الذين يذكرون، وفي هذا المكنون الشريف يسطرون، مما يعين من البلاد والضياع)[٥]. وأورد المقريزي نص كتاب التمليك للأمراء جميعهم ومما جاء فيه (رأى ألا ينفرد عنهم بنعمة، ولا يتخصص ولا يستأثر بمنحة غدت بسيوفهم تستنقذ، وبعزائمهم تستخلص، وأن يؤثرهم على نفسه، ويقسم عليهم الأشعة من أنوار شمسه، ويبق للولد منهم وولد الولد، ما يدوم إلى آخر الدهر

(١) نظام الملك الطوسي، سياسة نامة، ترجمة الدكتور يوسف بكار، دار القدس، بيروت، ١٩٨١م.

(٢) عبد العزيز الدوري، المرجع السابق، ص٢١.

(٣) *Robert, iqta, p. 68.*

(٤) مفضل بن أبي الفضائل، المنهج السديد، ١/١٣٨.

(٥) شاف بن علي، حسن المنقب السرية، ص٩٤.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

عز الدين أيبك الحموي الظاهري	أرتاح	نصفها
شمس الدين سنقر الألفي	أرتاح	نصفها
علاء الدين طيبرس الظاهري[١]	باقة الغربية	نصفها
علاء الدين علي التنكزي	باقة الغريبة	نصفها
ركن الدين بيبرس المعزّي[٢]	قفّين	نصفها
علاء الدين كندغدي الحبيشي مقدم الأمراء	كفر راعي	نصفها
شجاع الدين طغريل الشبلي أمير مهمندار	كفر راعي	نصفها
شرف الدين بن أبي القاسم[٣]	كستا	نصفها
بهاء الدين يعقوب الشهرزوري	كستا	نصفها
جمال الدين موسى بن يغمور الاستادار	برنيكية	نصفها
علم الدين سنجر العزازي[٤]	برنيكية	نصفها
علم الدين سنجر أمير جاندار[٥]	حانوتا (من أرسوف)	نصفها
عز الدين أيدمر الظاهري نائب الكرك	حبلة (من أرسوف)	ثلثها
شمس الدين سنقرجاه الظاهري	حبلة	ثلثها
جمال الدين آقوش السلاح دار الرومي	حبلة	ثلثها
بدر الدين بكتاش الفخري	جلجولية	ثلثها
علاء الدين كشدغدي الشمسي	جلجولية	ثلثها
بدر الدين بكتوت كجكا الرومي	جلجولية	ثلثها[٦]

(١) اسم في السلوك (علم الدين طيبرس الظاهري)، ١/ ٢/ ٥٣٣.

(٢) في السلوك (ركن الدين بيبرس المغربي) ، ١/ ٢/ ٥٣٣. ولم تذكر المصادر لمن أعطي النصف الثاني.

(٣) ورد الاسم في مفضل بن أبي الفضائل (شرف الدين عيسى الهكاري)، النهج السديد، ١/ ١٤٣.

(٤) ورد الاسم في السلوك (علم الدين سنجر الحلي الغزاوي)، ١/ ٢/ ٥٣٤.

(٥) لم تذكر المصادر لمن أعطي النصف الثاني من حانوتا.

(٦) وردت قائمة هذه الإقطاعات في كل من : شافع بن علي عباس الكاتب، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦م، ص ٩٤-٩٦. مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، باريس ١٩٢٠م، ١/ ١٣٩-١٤٤. المقريزي، السلوك، ١/ ٢/ ٥٣٠-٥٣٤.

ويبقى على الأبد، ويعيش الأبناء في نعمته، كما عاش الآباء، وخير الإحسان ما شمل وأحسنه ما خلد، فخرج الأمر العالي لا زال يشمل الأعقاب والذراري، وينير إنارة الأنجم الدراري أن يملك أمراؤه وخواصه الذين يذكرون، وفي هذه المكتوب يسطرون، ما يعين من البلاد والضياع، على ما يشرح ويبين من الأوضاع)[١]. فإذا ناقشنا ما ورد في النصوص السابقة رأينا أن الظاهر بيبرس كافأ أمراءه بمنحهم هذه القرى في فلسطين وشرقي الأردن (إقطاعات تمليك)، وكان من حق هذه الإقطاعات الإنتقال إلى الورثة بعد الموت، ويختلف هذا النوع من الإقطاع عن الإقطاع العسكري أو الحربي المملوكي الذي كان أكثر انتشارا.

هذا النمط من الإقطاع الذي وزعه الظاهر بيبرس كان متأثراً بالنظم الإقطاعية السلجوقية والأيوبية والفرنجية في فلسطين وبلاد الشام عامة، إذ جعلت من الإقطاعيين حكاماً وراثيين في مقاطعاتهم. وقد كافح السلاطين المماليك فيما بعد كي يجعلوا من مالكي الإقطاعات أكثر اعتماداً على السلطة المركزية في القاهرة، ولكي يعملوا على إنهاء هذا النظام قاموا (بالروك)، وهو تقسيم البلاد بين السلطان والاقطاعيين من الأمراء[٢]، وبموجب هذا الروك أخذ الإقطاعيون إقطاعات تحتوي على أجزاء متفرقة في أماكن متعددة[٣]، ففي السابق كان الإقطاعي يعطى من قرية إلى عشر قرى، وبعد سنة ٧١٣هـ (١٣١٣م) صار يعطى حصصاً أو أجزاء من قرى مختلفة أو حصصاً صغيرة لعدة قرى متباعدة بدلاً من حصة كبيرة في قرية واحدة[٤]. وكان هدف السلطات المملوكية

(١) المقريزي، السلوك، ١/ ٢/ ٥٣٠، ٥٣١.

(٢) *cohen & lewis, op, cit., p. 23.*

(٣) *cohen & lewis, op. cit., p. 25.*

(٤) *poliak, feudalim in Egypt, syria, palestine, and the lebanon, london, 1939, p. 19.*

http://www.al-maktabeh.com

https://www.al-maktabeh.com

من ذلك الحد من نفوذ الأمراء الإقطاعيين والتقليل من قوتهم، ليصبح الأمراء غرباء في تلك الأماكن. وعبر أبو المحاسن عن وجهة النظر هذه المتمثلة في ازدياد نفوذ الأمراء بأن الناصر محمد بن قلاوون أخذ أخباز هؤلاء الأمراء وخشي الفتنة[١]، إذ كان خبز الواحد منهم يتراوح ما بين ألف مثقال إلى ٣٠٠ مثقال من الذهب سنوياً[٢]، لذا عهد إلى الأمير سنجر الجاولي في سنة ٧١٣هـ (١٣١٣م) بعمل الروك في البلاد الشامية، أما في مصر فراكها سنة ٧١٥هـ (١٣١٥م)[٣] وأعاد توزيع الأراضي بين الأمراء الإقطاعيين.

وفي القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، أصبحت الأراضي المنزرعة مملوكة تمليكاً جماعياً، وانتشر هذا النوع من التمليك في جميع أنحاء بلاد الشام، ففي وقت اقتسام الأراضي السنوي، توزع أراضي القرية بين رجال القبلية طبقاً لعدد ماشيتهم التي تقوم بالأعمال الزراعية. وهو ما كان يعبر عنه بـ(الفدان) فكل يأخذ أرضاً بمقدار ما لديه من هذه الحيوانات، أما الفلاحون الذين لا يملكون الماشية فيصبحون تلقائياً غير مالكين (الفلاحون البطالون)[٤].

وكان الفلاحون يدفعون الضريبة من المحصول، وما تبقى لديهم كانوا يقومون ببيعه بأنفسهم، فهم دوماً بحاجة إلى أصناف أخرى ليست من إنتاجهم، لذا يبيعون الفائض من إنتاجهم ليحصلوا على حاجاتهم من تلك الأصناف. وفي العادة كان الفلاح يحتفظ ١٠٪ من المحصول للبذار، ويحتفظ لطعام كل فرد ١٥٠-٢٠٠كغم من القمح سنوياً، وما زاد على ذلك يخصص للبيع. ويحدث هذا في القرى الواقعة في السهول، أما المناطق الجبلية المرتفعة في الكرك ومؤاب وجبال نابلس والقدس فإنتاجها من القمح قليل، لذا يحدث تبادل إقليمي

(١) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة ، ٩/ ٣٦.
(٢) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٩/ ٤٢.
(٣) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ٩/ ٣٦، ٤٢.
(٤) *cohen & lewis, op. cit., p.69.*

في المنتجات بين المناطق، بطريقة مباشرة أو عن طريق الأسواق الموجودة في المدن كالكرك والقدس ونابلس والرملة والخليل وعمان وغيرها[١].

وفي العصر الصليبي بلغ عدد قرى منطقة القدس ١٠٤ قرى، أما منطقة نابلس فكان عدد قراها ٩٠قرية ، وأشغلت قرى بيت المقدس مساحة ٢٠٠٠كم٢، أما قرى نابلس فأشغلت مساحة ١٥٠٠كم٢، فمعدل مساحة القرية في القدس ٢٤،٠٠٠ دونم أما في نابلس فكان ١٦،٠٠٠دونم[٢]، ولكن عدد القرى إرتفع في العصر المملوكي في كل من القدس ونابلس، فوجد في منطقة نابلس ٣٠٠قرية[٣]، وبذا أصبح معدل مساحة القرية ٥٠٠٠دونم.

أما محاصيل نيابة بيت المقدس الزراعية فهي: الزيتون والكروم والتين والفواكه والحبوب. وبلغ انتاج الزيت درجة كبيرة حتى أن بعض الأغنياء بلغ إنتاجهم من الزيت ٥٠،٠٠٠ مَن[٤]، أي ما يعادل ٤٠٩٥٠كغم، ولكثرته كانوا يحتفظون به في الصهاريج والخوابي[٥]، أما في نابلس فبلغ متحصل السلطان في بعض السنوات ١٤٠٠قنطار، كان السلطان يفرضه على التجار في بيت المقدس والخليل والرملة بخمسة عشر ديناراً ذهباً للقنطار الواحد، أي أكثر من ثمنه بستة دنانير، وكان ذلك يسبب خسارة كبيرة للتجار. وفي بعض الأعوام يأتي أمير كبير من القاهرة خصيصاً ليفرض الزيت على الأهالي المسلمين والنصارى واليهود بطريقة تعسفية تؤذيهم وتظلمهم[٦].

---

(١) *Hutteroth, historical geography of palestine, 1977. Pp. 108-110.*

(٢) *Benvenisti, op. cit., p.214.*

(٣) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، باريس ١٨٩٤م ، ص٤٦.

(٤) المَن: في الشام هو المن الشرعي وزنه ٢٦٠ درهماً ويعادل ٨١٩غم، (فالترهنتش، ص٥٨). و ٥٠٫٠٠٠ مَن تعادل ٢٧٣٠ تنكة في وقتنا الحالي.

(٥) ناصر خسرو، سفرنامة، ص٥٦، لي سترانج، ص٩٩.

(٦) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/٣٥٦، ٣٥٨.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وكان زيت الزيتون والصابون المستخرج منه في كل من القدس ونابلس يصدر إلى البلدان المجاورة: الشام ومصر والحجاز، وإلى أطراف العالم[١]. أما متحصل السلطان من الغلال المنتج في نيابة بيت المقدس، فكان ينعم قسماً منه على أوقاف المسجد الأقصى والصخرة، ففي سنة ٨٦٥هـ(١٤٦٠م) أنعم السلطان الظاهر خشقدم على الوقف بستين غرارة من القمح قيمتها ٨٤٠ ديناراً[٢].

أما سكان القرى فكانوا من الفلاحين المسلمين والنصارى[٣]، وقطنت القبائل العربية منطقة القدس ونابلس، فأقامت قبائل بني زيد وجرم والعايد في منطقة بيت المقدس والرملة وغزة[٤]. أما منطقة جبل نابلس فكان لها شيخ سمي (شيخ جبل نابلس)، كانت له الكلمة الأولى في منطقته، وأمره نافذ لدى القبائل العربية هناك، وحظي بتأييد السلطان وانعاماته، وكان يتقلد هذه المشيخة بأمر من السلطان في القاهرة[٥]. أما علاقات السلطة الحاكمة مع القبائل العربية فتختلف من فترة إلى أخرى، فكثيراً ما كان الخلاف يدب بين نائب السلطنة بالقدس والقبائل العربية، مما يؤدي إلى إفساد الطرق وأرجاف في المدينة المقدسة .ففي سنة ٨٨٥هـ (١٤٨٠م) هاجمت القبائل العربية بيت المقدس ودخلوا المسجد الأقصى، فهرب النائب بين أيديهم، فكسروا باب السجن وأخرجوا من به من المساجين، وقتل العديد من الطرفين، وحصل النهب في أسواق بيت المقدس[٦].

وكان الفلاحون يعانون من الظلم الذي أوجده النظام الإقطاعي العسكري أو الحربي المملوكي، فلم **يكن للفلاح** الحق في مغادرة الأرض التي يعمل فيها إلا

(١) ناصر خسرو، سفرنامة، ص٥٦، لي سترانج، ص٤٨٦.، ٢٨٧

(٢) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٢٨٠.

(٣) السبكي تقي الدين، التمهيد فيما يجب فيه التحديد، ص٧، ٨، *Benvenisti, op. cit., p. 215.*

(٤) المقريزي، السلوك، ٤/ ١/ ٣٤٦.

(٥) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٣٢٦، ٣٣٥.

(٦) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٣٢٤، ٣٢٧.

بعد مرور ثلاث سنوات، وأن حدث وغادرها يعاد إليها بالقوة[١]. بالإضافة إلى الالتزامات التي فرضها النظام الإقطاعي نفسه، وعانى الفلاحون الكثير من ظلم العربان، الذين كانوا يفرضون الأموال عليهم فيسببون المعاناة الشديدة إليهم[٢]. أضف إلى ذلك ما كانت تسببه السلطة الحاكمة للفلاحين والأهالي، فكثيراً ما كان يعمد نائب القدس إلى جمع الأموال من الفلاحين بالقوة، ففي سنة ٨٢٤هـ(١٤٢١م) كان النائب في القدس يجبي من فلاحي الضياع نحواً من أربعة آلاف دينار، وبسبب هذه الجباية خربت معاملة القدس، فأمر السلطان المظفر أحمد بن المؤيد شيخ بمنع ذلك (ونادى بإبطال هذه المغارم ونقشه على حجر بالمسجد الأقصى)[٣]. وفي نهاية القرن التاسع الهجري كان السلاطين يجندون الرجال من جبل نابلس القدس ويرسلونهم في التجاريد الذاهبة إلى قتال بايزيد خان ابن عثمان[٤]، كل هذه الأمور مجتمعة، وانتشار الأوبئة والطاعون أدى إلى خراب الريف، ليس في فلسطين فحسب، بل في معظم بلاد الشام. ففي العصر العثماني وصف العديد من القرى بـ(خراب وخالي)[٥]، وذكرت التقارير أن منطقة طرابلس كانت تحتوي على ثلاث آلاف قرية، لم يبق من هذه القرى مأهولاً في القرن السادس عشر الميلادي سوى ٨٠٠ قرية، وتحول الباقي إلى مزارع وخرب صغيرة غير مأهولة بالسكان[٦].

(١) السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، ص٣٤، حيث يقول: (وقد جرت عادة الشام بأن من نزح من دون ثلاث سنين يلزم ويعاد إلى القرية قهراً ويلزم بشدّ الفلاحة). وللباحث، القرية في جنوب الشام (الأردن وفلسطين) في العصر المملوكي، بحث قدم للمؤتمر الدولي الأول لتاريخ الأردن وآثاره، اكسفورد، ١٩٨٠م.

(٢) الحنبلي، الأنس الجليل، ٣/ ٣٤٧.

(٣) المقريزي، السلوك، ٤/ ٢/ ٥٨٤.

(٤) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٣٤٥، ٣٤٧.

(٥) *Hutteroth, op. cit., p.26.*

(٦) *cohen & lewis, op. cit., p.24.*

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وأتبع الفلاح الطرق الزراعية التقليدية، فالمحراث الفلسطيني في العصر الوسيط يشبه المحراث الذي يستخدمه معظم الفلاحين في الوقت الحاضر، فيتكون من هيكل خشبي ينتهي بسكينة حديدية حادة لقلب الجزء العلوي من التربة وإعدادها للبذار، ويجر عادة بواسطة الثور أو الحصان[١].

وكان الفلاح الفلسطيني يقيس أرضه بالفدان، وتعني الكمية من الأرض التي يمكن زراعتها بواسطة عجلة محراث في فصل زراعي واحد. وقد استعمل الفلاحون في منطقة القدس في العصر الصليبي فدانا يعادل نصف الفدان العربي[٢]. وكان الفدان العربي يعادل ٤٠٠قصبة مربعة وتساوي ٦٣٦٨ متراً مربعاً[٣].

وغطيت جبال القدس ونابلس والخليل بالأشجار المختلفة، كالسرو والسنديان، والخروب، والسماق، والزيتون، وأشجار الفواكه كالتفاح والخوخ واللوز والجوز والتين والكرمة[٤]. أما سهولها وأوديتها فأنتجت البرتقال والسفرجل والرمان، أما الأغوار التابعة للقدس، فاشتهرت بالسكر، والموز والنخيل. أما غلاتها فأهمها الحنطة والشعير والسمسم والذرة والخضروات[٥]. واستخرجوا من الكروم الزبيب والخمور التي صنعها السكان النصارى في قرى القدس ونابلس، أما التين فاستخرجوا منه القطين. واشتهرت نيابة بيت المقدس بالعسل والجبن[٦]، -وجبن الخليل نقل إلى مصر والعقبة لبيعه إلى الحجاج- مما يدل على وفرة المواشي في النيابة.

(١) *prawer, op. cit., p. 370.*

(٢) *ibid ., p. 271.*

(٣) فالترهنتش، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص٩٨.

(٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، القسم الخاص بالشام، ص٩.

(٥) *Benvenisti, op. cit., p. 217.* لي سترانج، ص ٩٧-٩٩/ ٢٥٧، ٤٨٦.

(٦) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٤، لي سترانج، ص ٩٧، ٩٨.

(2)
التجارة الداخلية والخارجية

١- التجارة الداخلية:

اشتهر بيت المقدس بأسواقه الكثيرة وأبنيته العالية، وصناعاته العديدة[١]، وكانت أسواقه زاخرة بصنوف السلع المختلفة، منها ثلاث قصبات (قيل أنه لم يكن بغالب البلاد نظيرها)[٢]. ومن المعروف أن أسواق المدن الإسلامية في العصور الوسطى كانت متخصصة، فكل سوق اختص بسلعة معينة، فوجد في بيت المقدس: سوق القطانين (ويجاور باب المسجد الأقصى من الجهة الغربية -لا مثيل له في كثير من البلاد- ثم هناك أسواق ثلاثة تقع قرب باب الخليل تمتد من الشمال إلى الجنوب، وتتصل معاً بواسطة بعض المنافذ، وهي مسقفة وفي أعلاها فتحات لدخول النور والشمس، فالغربي منها هو سوق العطارين، وكان صلاح الدين الأيوبي قد أوقف هذا السوق على المدرسة الصلاحية ثم سوق الخضر، أما الثالث فهو سوق القماش وقد وقفها صلاح الدين الأيوبي على مصالح المسجد الأقصى[٣]. وذكرت وثائق بيت المقدس عن وجود أسواق أخرى لم تذكرها المصادر منها: (السوق الأسفل)[٤]، (وسوق التجار)[٥]، (وسوق الليل)[٦]. ثم هناك السوق الكبير الذي يبدأ من باب السلسلة إلى باب الخليل أي أنه يبدأ من

(١) ناصر خسرو، سفر نامة، ص٤٦، ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص٢٢، لي سترانج، فلسطين في العهد الإسلامي، ص٩٧.
(٢) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص٢٣.
(٣) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٥٠،
(٤) وثيقة رقم ٥٣ سنة ٧٧٨هـ من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس.
(٥) وثيقة رقم ٢٠ سنة ٧٦٨هـ من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس.
(٦) وثيقة وقف رقم ٧٧ من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس.

http://www.al-maktabeh.com

الحرم إلى قلعة بيت المقدس، وهذه الظاهرة نجدها في بعض المدن الشامية حيث يوجد ما يسمى (السوق الكبير)، وذكر ابن جبير هذا السوق في دمشق وكان يمتد من باب الجابية إلى باب شرقي[١]. ويتفرع من السوق الكبير في بيت المقدس عدة أسواق هي : سوق الصاغة، وسوق القماش، وسوق المبيضين، وسوق خان الفحم، وسوق الطباخين، وسوق الحريرية، وسوق الزيت الواقع بجوار باب الناظر، ثم سوق الفخر (نسبة إلى فخر الدين صاحب المدرسة الفخرية) وبه المصابن التي يصنع فيها الصابون[٢]. وسويقة باب حطة[٣]، والملاحظ أن هذه التسمية موجودة في بعض المدن الإسلامية الأخرى مثل سويقة مكة.

ووجدت الأسواق المتخصصة في كل من : الرملة، ونابلس، والخليل[٤]، بالإضافة إلى القياسر أو القيساريات[٥] *caesarea*، منها قيسارية النصارى في بيت المقدس[٦] والقياسر أبنية تقوم بمهمة الأسواق بها حوانيت تؤجر للتجار متخصصة للبيع والشراء ويخزن التجار بضائعهم فيها[٧]. وكان لهذه القيساريات أبواب كبيرة من الحديد تغلق ليلاً بواسطة ضبّة عريضة من الحديد[٨]. ويراقب المحتسب هذه الأسواق ويحكم السيطرة عليها خوفاً من الاحتكار والغش والتدليس. وكان لطائفة التجار رئيس يسمى (رئيس طائفة التجار)[٩]، يرعى

(١) ابن جبير، الرحلة، ص٢٦٢.

(٢) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٥٢-٥٤.

(٣) المصدر نفسه، ٢/ ٤١.

(٤) ابن بطوطة ، الرحلة، ص٥٦، ٥٧. وانظر : الإدريسي، نزهة المشتاق، (القسم الخاص بالشام) ص٤.

(٥) وثيقة رقم ٥٠ من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس.

(٦) *Burgoyne & Abul Hajj, Twenty four Medieval Arabic inscription from Jerusalem, levant, vol. XI 1979, p.123.*

(٧) *Goitein, A Mediterranean society, Economic Foundations, U.S.A. 1967, vol. I, p.194.* وللباحث، تاريخ شرقي الأردن، القسم الحضاري، ص٦٠.

(٨) ابن جبير، الرحلة ، ص٢٦١.

(٩) *Goitein, op. cit., p,192.*

مصالح التجار في المدينة وفي أحيان يسمى(شيخ التجار)، ويكون من أثرياء تجار المدينة. وقد أطلق على طبقة التجار في العصر المملوكي (بياض العامة)[١]، وذكرت المصادر عن وجود (عريف لكل سوق من أسواق بيت المقدس[٢].

ويحيط بمدينة بيت المقدس منطقة خصبة واسعة، تقوم بتزويدها بكل حاجاتها من الفواكه والحبوب والزيوت، مثلها في ذلك دمشق التي كانت تعتمد على معظم منتجات الأراضي الشامية كالزيت من نابلس، والصابون من نابلس والقدس وسرمين[٣]، والتين من حلب والأرز من بانياس والحليب من بعلبك، والسكر من الأغوار، والفحم من عجلون، والرمان من الصلت[٤]. أما القدس فكان القمح ينقل إليها من الرملة والسهل الساحلي، والزيت من نابلس والخليل، والزيت والتين والرمان وزيت السيرج (السمسم) والبطيخ والعنب الدرّي العينوني من الرملة ونابلس وشرقي الأردن والقرى المحيطة بالقدس، أما الأرز والحصر فمن بيسان، والموز والسكر والنيل فمن أريحا والأغوار[٥]. وهكذا فقد كانت هناك حركة تجارية داخلية أو تبادل إقليمي بين بيت المقدس والمناطق المحيطة به، سواء أكان ذلك بطريقة مباشرة أو بواسطة الأسواق الموجودة في المدن.

ووجد في مدينة بيت المقدس (عرصة للغلال) وتقع قرب باب الخليل[٦]،

(١) للباحث، تاريخ شرقي الأردن، القسم الحضاري، ص١٠٤.

(٢) وثيقة رقم ٢٠ سنة ٧٦٨هـ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس.

(٣) سرمين: بلدة مشهورة تقع في منطقة حلب وتشتهر بأشجار الزيتون وصناعة الصابون الذي صدر إلى دمشق والقاهرة، وكان يصنع فيها نوع من الصابون المعطر متعدد الألوان يستعمل لغسل الوجوه والأيدي، (ابن بطوطة، الرحلة، ص٦٣).

(٤) *lepidus, muslim cities in the Late Middle ages, U.S.A.1967, p.17.* أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٢٨.

(٥) الإدريسي، نزهة المشتاق (القسم الخاص بالشام) ص٤، ابن بطوطة، الرحلة، ص٥٧.
Hutteroth, historical geography of palestine, p.83.
Prawer, the latin kingdom of Jerusalem, london, 1972, pp. 361-365.

(٦) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٥٣.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وهي ساحة أو ميدان واسع، كان الفلاحون والقرويون يجلبون إليها غلاتهم الزراعية لبيعها على التجار والأهالي. وكانت الأسواق الأسبوعية التي تقام في المدينة فرصة للقرويين ورجال القبائل للحصول على ما يحتاجون إليه من سلع، مقابل مقايضتهم لمنتوجاتهم من الحبوب والفواكه والأجبان والبسط والسجاد، والزيت والتين المجفف واللوز والجوز وغيره من السلع المختلفة[١].

وتنشط التجارة الداخلية في بيت المقدس والرملة وبيت لحم والخليل في المواسم، ففي موسم الحج من كل عام، يحتشد في بيت المقدس أعداد كبيرة من مسلمي بلاد الشام وغيرها للاحتفال بالحج وزيارة المسجد الأقصى والصخرة، وقد كانوا من الكثرة بحيث يبلغ عددهم في بعض السنين عشرين ألفاً[٢]. وكان للخليل موسم خاص لزيارة الحرم الإبراهيمي، لذا أقام المماليك للفقراء من هؤلاء الزوار والمسافرين (مضيفاً) يوزع الخبز والطعام عليهم مجاناً[٣]. ونتيجة للعدد الهائل من الزوار تنشط الحركة التجارية في أسواق القدس والخليل، ويعم الخير عليها وعلى المنطقة المجاورة فيهرع الأهالي للإتجار مع وفود الزائرين.

ولم يقتصر الأمر على هذا الموسم (السياحة الداخلية)، بل يجتمع في بيت المقدس أعداد أخرى كبيرة من النصارى واليهود لزيارة أماكنهم المقدسة، وللاحتفال بمواسمهم الدينية[٤]. فتقام لهم الأسواق الخاصة في يافا والرملة والقدس وبيت لحم تعود بالنفع على تجار تلك المدن والمتسببين من أهالي

(١) ناصر خسرو، سفرنامة، ص٩٩، ابن بطوطة، الرحلة، ص٩٧، لي سترانج، ص٨٩، ٤٨٦.

(٢) ناصر خسرو، المصدر نفسه، ص٥٥.

(٣) المقريزي، السلوك، ١/ ٢/ ٥٠٥.

(٤) ناصر خسرو، سفرنامة، ص٥٥. المقريزي، السلوك، ٤/ ٣/ ٦٣٧، ٩٢٨، ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص٢٣.

المناطق المحيطة. وكان الحجاج النصاري يأتون من أنحاء مختلفة من العالم لزيارة كنيسة القيامة فمنهم: الشاميون والأوروبيون، والمصريون، والأحباش، حتى أن الأحباش بلغوا في سنة ٨٨٦هـ (١٤٨١م) ثلاثة آلاف زائر[١]، وفي سنة ٩٢٢هـ (١٥١٦م) بلغوا ٨٠٠ زائر[٢].

ويذكر الرحالة فيلكس فابري الذي زار بيت المقدس سنة ٨٨٨هـ (١٤٨٣م) أن مراكب الحجاج الأوروبيين كانت ترسو في ميناء يافا، ويكون في استقبالهم مندوبون عن نائب القدس ونائب غزة وكاشف الرملة ورئيس دير جبل صهيون، وقد هيأوا لهم كل الترتيبات لحمايتهم وتسهيل مهمتهم في الأراضي المقدسة. ولاحتياطات الأمن كانت السلطات المملوكية تقوم بتفتيشهم جيداً، ثم يسجلون المعلومات الخاصة عن كل زائر، ويدونون ذلك في سجل خاص كاسم الحاج واسم أبيه إلى غير ذلك من أمور تهمهم. وباعتقادي أن هذا الإجراء كان ضرورياً لدواعي الأمن وخوفاً من أن يتسلل الفرنج إلى المدينة المقدسة ويعيثوا فيها فساداً، لأن ذلك الأمل ظل يراودهم طيلة الحكم المملوكي. ففي سنة ٨١٣هـ (١٤١٠م) وصل إلى يافا أربع قطع بحرية عليها ٧٠٠ من الفرنج فأسروا عدداً من المسلمين، واستولوا على مركب قادم من مصر فيه تجارة للسلطان[٣]. وفي سنة ٨٢٦هـ (١٤٢٣م) تمكن عدد من الفرنج (الكيتلان) من التسلل إلى داخل المدينة المقدسة، فطاردتهم السلطات المملوكية وأسرت منهم نحو مائة شخص. ولكي يسهل المماليك تنقل الحجاج من يافا إلى القدس، قاموا في سنة ٨١٣هـ (١٤١٠م) بتوسيع الطريق وإزالة ما به من الأوعار، وزادوا في سعته (بحيث يمر

(١) ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، القاهرة، ١٩٦٤م، ١/ ٣٩.
(٢) ابن طولون، المصدر نفسه، ٢/ ٥.
(٣) المقريزي، السلوك، ٤/ ١/ ١٤٣.
المقريزي، السلوك، ٤/ ٢/ ٦٣٧.
وانظر المصدر نفسه ٤/ ٢/ ٩٢٨.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

فيه عشرة فرسان متواكبين)[١]. أضف إلى ذلك أن المماليك سمحوا للنصارى بناء كنيسة بيت لحم فوق مهد المسيح عليه السلام، وجمعوا الأموال لبنائها من جميع أنحاء العالم المسيحي[٢].

وكانت الأسواق تقام في يافا خدمة لهؤلاء الحجاج، فيحضر التجار من القدس والرملة يحملون معهم السلع المختلفة من بلسم ومسك وصابون، وحجارة كريمة، وقماش موصلي، وأنواع الأطعمة والأشربة والفواكه المختلفة. ثم يواصل الحجاج سيرهم إلى القدس فينزلوا في الرملة ويقيموا فيها في (مضيف) أعد لاستقبالهم. وتقام لهم في الرملة سوق موسمية كبيرة فيها الأطعمة والفواكه كالتفاح والتين والبرتقال والبطيخ واللوز والعسل، ثم يواصلون سيرهم إلى القدس.

وقد خصصت الدولة لهؤلاء الحجاج تراجمة (أدلاء سياحيون) يساعدونهم على زيارة الأماكن المقدسة وحمايتهم وحراستهم واستئجار البيوت اللازمة لهم في القدس. فتعم الفائدة معظم سكان المدينة وتجارها، وكان الأدلاء من المسلمين والنصارى ويطلق عليهم (المكاريون) ومفردها (مكاري)[٣]. إلا أن قسماً من هؤلاء الحجاج كان يفضل الإقامة في دير جبل صهيون أو نزل القديس يوحنا. ووجد تراجمة خاصون بالحجاج اليهود، ويشترط في هؤلاء التراجمة معرفة اللغات الأوروبية وفي المقابل فإن رئيس التراجمة يتقاضى أجرة من الحجاج له ولمساعديه[٤]. وزيادة في سلامة هؤلاء الحجاج أمّنت الدولة لهم

(١) المقريزي، السلوك، ٤/١/١٤٤.

(٢) المصدر نفسه، ٤/١/١٤٤.

(٣) ماير، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، القاهرة، ١٩٧٢م، ص١٢٠.

(٤) نقولا زيادة، فيلكس فابري في فلسطين، بحث ألقي في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٠م. محمود زايد، دراسة للتقسيمات الإدارية في فلسطين من خلال رحلة دي لابروكييه ١٤٣٢م، بحث القي في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان ، ١٩٨٠.

العلاج في البيمارستان الصلاحي فكانوا يستوفون من كل حاج (بنيان فينيسيان) يحصل مرة واحدة (كتأمين صحي) مقابل الخدمات الصحية التي يقدمها البيمارستان. ولا شروط على المدة التي يقيمها المريض في البيمارستان فله حق الإقامة من يوم إلى سنة كاملة ولا يحصل منه أي مبلغ إضافي مهما كانت المدة[١]. ومن هنا يظهر لنا مقدار العناية التي كان يوليها المماليك للحجاج أو (السياح)، هذا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الدولة المملوكية هي أول دولة شجعت السياحة وأصدرت المنشورات الدعائية السياحية لتشجيع زيارة بلادهم، ويعتبر السلطان قلاوون أول من أصدر مثل هذه المنشورات السياحية.، وبذا سبق عصره بمئات السنين[٢]، كما أن نظام التأمين الصحي على السياح سبقوا به غيرهم من الأمم بقرون عديدة.

وأقام المماليك الخانات في المدن وعلى الطرق الرئيسية لخدمة التجارة الداخلية والسياحية وحركة التنقل في الداخل، من ذلك الخان إلى أنشأه الأمير طاجار الدوادار في جنين وبنى فيه دكاكين وحماماً وحوضاً للسباحة[٣]. والخانات أو الفنادق منشآت هامة واكبت حركة التجارة المملوكية التي كانت سبباً في أن تتمتع بلاد مصر والشام بدرجة كبيرة من الازدهار والثراء[٤]، نذكر من تلك الخانات:

خان الظاهر بيبرس:

ففي سنة ٦٦٢هـ (١٢٦٣م) أمر الظاهر بيبرس انشاء خان للسبيل في بيت المقدس وفوض بناءه إلى الأمير جمال الدين محمد بن نهار، وأقيم هذا الخان

(١) *Hume, Medical work of the knights Hospitallers of Saint john of Jerusalem, Baltimore, 1940, p. 18.*

(٢) أنظر نص المنشور السياحي في: ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص ٢٢٦-٢٣٧. والقلقشندي، صبح الأعشى ١٣/ ٣٤٠-٣٤٢.

(٣) مفضل بن أبي الفضائل، النهج السديد، ص٨٠.

(٤) *lapidus, Muslim cities in the later Middle ages, U.S.A. 1967, p. 16.*

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

خارج أسوار القدس[١]، وهناك لوحة تأسيسية من الرخام أثبت عليها الظاهر بيبرس إنشاء هذا الخان، وجدت هذه اللوحة أثناء ترميم قبة الصخرة سنة ١٩٦٠م ويحتفظ بها المتحف الإسلامي في القدس وقد فقدت أجزاء من النقش بسبب تحطيم الرخامة إلى جزئين أما النقش الباقي فهو:

١- بسم الله الرحمن الرحيم الله الرحمن الرحيم ... وصلى الله على سيدنا محمد وآله

٢- مما أمر بإنشاء هذا الخان المبارك... وأيه الجسيم (؟)

٣- مولانا السلطان الأعظم ... مالك رقاب الأمم ملك.

٤- العرب والعجم والترك ... الملك الظاهر.

٥- ركن الدنيا والدين أبي الفتح بيبرس الصالحي ... قسيم أمير المؤمنين

٦- ضاعف الله اقتداره ... وأعز نصره.

٧- وكتب في آخر ... سنة اثنتين وستين وستمائة

٨- والحمد لله وحده ... واله وسلم[٢].

وبعد تمام بنائه وقف عليه عدة قرى ببلاد الشام والقدس منها: قيراط ونصف في قرية الطرة الواقعة قرب مدينة أربد شمالي الأردن، وثلث وربع قرية المشيرفة من بلد بصرى، ونصف قرية لفتا على بعد ٣كم شمال غربي القدس. ويصرف ريع هذا الوقف في ثمن خبز ونعال لمن يرد إلى القدس من المسافرين المشاة. ثم بني طاحوناً وفرناً يرسم هذا الخان كي يقوم بطحن الدقيق وخبز

(١) المقريزي، السلوك، ١/ ٢/ ٤٩١ .

(٢) . *leavant, vol. XI, 1979, p.126* ومن الملاحظ أن العبارة (ركن الدنيا والدين قسيم أمير المؤمنين) نجدها في معظم نقوش الظاهر بيبرس كما في مقام أبي عبيدة وقلعة الكرك. أنظر: للباحث (تاريخ شرقي الأردن، القسم السياسي، ص ٨٨، ٨٩ .

الأرغفة وجعل كل ذلك سبيلاً[١].

ونقل إليه من القاهرة باب دهليز القصر الموصل إلى البيمارستان المعروف بباب العيد[٢]، واثبت هذا الوقف على قطعة رخامية يوجد جزء منها في المتحف الإسلامي بالقدس والنص الباقي من النقش كما يلي:

١. (هذا) الخان المبارك اربعة عشر قراطاً من جميع الضيعة.

٢. (من) اعمال بصرى والحصة الثانية والنصف من لفتا من ضياع القدس.

٣. ثلاثة اسهم وثلث ثمن عشر سهم من اربعة وعشرين سهماً.

٤. (لأجل) اطعام الواردين من الفقر (اء) والمساكين تقبل الله منه وضاعف حسناته[٣].

وقد اندثرت معالم هذا الخان، ولكن البعثة الفرنسية التي حفرت في الجزء الشمالي الغربي من زاوية المدينة القديمة تمكنت من العثور على أساسات هذا الخان سنة ١٩١٢م[٤].

ومن الخانات الأخرى الموجودة في بيت المقدس نذكر: خان الفحم، وخان المصرف ويقعان في الشارع الأعظم الواصل بين باب السلسلة وباب الخليل، ثم خان الجبيلي الواقع في خط مرزبان[٥]. وخان تنكز بن عبد الله

(١) المقريزي، السلوك، ١/٢/٥٢١، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة، ج٧ ص١٢١. وللباحث، إمارة الكرك الأيوبية، ص٣٢١. ويذكر ابن شداد أن الوقف كان ثلاثة قراريط بالطرة من أعمال دمشق وثلث وربع قرية المشارفة، ونصف قرية من أعمار القدس. (الأعلاق الخطيرة، ٣/ ٢٣٧).

(٢) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ٣/ ٢٣٧، المقريزي، السلوك، ١/٢/ ٢٩١.

(٣) هذا الحجر موجود في المتحف الإسلامي بالقدس تحت رقم زم ١٤. وكان الظاهر بيبرس قد بنى مقام أبي عبيدة بغور الأردن ووقف عليه الوقوف وأثبت ذلك في نقش كتابي. (راجع للباحث: تاريخ شرقي الأردن، القسم السياسي، ص٨٨).

(٤) *levant, vol. XI,p.126.*

(٥) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٥٢، ٥٣.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

نائب دمشق ويقع بين حمام الشفا وحمام العين في سوق القطانين بناه سنة ٧٢٧هـ(١٣٣٦م). وذكرت وثائق بيت المقدس عن وجود (خان العناية) الواقع بالقرب من باب حطة، وكان وقفاً على المدرسة الصلاحية بالقدس[١].

وكانت المعاملات التجارية الداخلية تتم عن طريق المقايضة او بواسطة الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية المسكوكة في أنحاء مختلفة من دولة المماليك.

٢- التجارة الخارجية:

تمتعت بلاد الشام في العصر المملوكي بفترة متألقة من تاريخها الوسيط، وبلغت مصر والشام درجة من الازدهار والثراء لا نظير لها، بسبب النشاط التجاري الذي بلغ أوج تقدمه وازدهاره بين مصر والشام وبلاد الرافدين والجزيرة العربية. لذا قام المماليك ببناء الجسور وتعبيد الطرق وبناء الخانات أو الفنادق على الدروب والطرق خدمة للقوافل التجارية والمسافرين وكان المسافرون يأوون إلى هذه الخانات فيجدون مأوى لهم ولدوابّهم، وبخارج كل خان وجدت ساقية للسبيل أو بركة وحانوت يشتري منها المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته[٢]. وقد نشر المماليك الأمن في ربوع تلك الطرق حتى ان المرأة كانت (تسافر من القاهرة إلى الشام بمفردها راكبة أو ماشية لا تحمل زاداً ولا ماء)[٣].

أما حركة التبادل التجاري فقد نشطت بين جميع الاقطار، فمنتوجات القدس ونابلس والخليل والكرك والشوبك كالزيت والصابون والخروب والبسط واللوز والجوز والجبن والفواكه والمصنوعات اليدوية من فضية وخشبية صدرت إلى القاهرة[٤]. ومن دمشق نفسها كان ينقل الزجاج والسيراميك والمنسوجات

(١) وثيقة رقم ٤٣ سنة ٧٨٥هـ من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس.

(٢) ابن بطوطة، الرحلة، ص٥٠، وسميت هذه الخانات أو الفنادق: *caravanserais*، ويطلق عليها أحياناً مخازن التجار. أنظر: *Goitein, op. cit., p.187.*

(٣) المقريزي، الخطط، ١/ ٣٦٧.

(٤) المقريزي، السلوك، ٣/ ٥٣٠. وثيقة رقم ٧٦ من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس.

والخزف والسجاد وغيرها من الصناعات، وكانت هذه تصدر عن طريق الموانئ الشامية والفلسطينية كطرابلس وصيدا، وعكا، ويافا، وغزة. أو ترسل براً عبر فلسطين وسيناء إلى قطيا على الحدود المصرية ففيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود، فيدفع التجار المكوس على بضائعهم بين ٥-١٠٪ وكان تحصل قطياً ألف دينار من الذهب يومياً[١]. ويطلب من المسافرين إبراز تصاريح للدخول إلى مصر والخروج منها، ووجد للتجار الشاميين والعراقيين في القاهرة والإسكندرية القيسارس الخاصة والوكالات لخزن بضائعهم وأقامتهم فيها[٢].

وخَدَمَ الساحل الشامي حركة التجارة الدولية منذ عصور سحيقة في القدم، فكانت طرق التجارة العالمية عبر الخليج العربي والبحر الأحمر تنتهي في موانئه. بهذا سيطر العرب في العصر العباسي على التجارة الدولية وفرضوا الأسعار التي يريدونها على السلع المصدرة إلى أوروبا[٣]. ثم إن الساحل الشامي والفلسطيني اصبح في العصر الصليبي والمملوكي باب الشرق على الغرب، وكانت لفلسطين علاقات مباشرة مع أوروبا. وقد تزعم هذه الحركة تجار دويلات المدن الإيطالية والأوروبية، فينسينا، وبيزا، وجنوا، وفلورنسا، ومرسيليا ، وبرشلونة، وكان لهذه المدن وكالات في معظم المدن الهامة في فلسطين وسوريا ومصر[٤]. وامتد

(١) ابن بطوطة، الرحلة، ص٥٠.

(٢) ابن بطوطة، الرحلة، ص٥٠، ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص٢٣، *lapidus, Muslim cities, p. 18.*

(٣) *Thompson, An Economic and social history of the Middle ages, london , 1928,p. 338.*

(٤) النويري السكندري، الإلمام بالأعلام، ج٢ ص١٣٧، ١٥٦. ويذكر أنه وجد في الإسكندرية فندق الكيتلانيين، وفندق الجنوبيين، وفندق المورة، وفندق المرسيليين (٢/ ١٧١).

Rey, les colonies franques de syrie, aux XII et XIII siecles, paris, 1883, p. 191.

Prawer, op.cit., p..397.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

نشاطهم التجاري إلى المدن الداخلية فوجدت الوكالات أو(دار الطعم) في دمشق، وعجلون في شرقي الأردن، للعناية بالتجار الأجانب وتجارتهم[١]. ووجد في بيت المقدس وكالة خصصت للتجار الأجانب[٢] ، بالإضافة إلى الخانات والقياسر التي كانت تؤجر للتجار وتباع فيها السلع المختلفة. وخصصت فيها إحياء وقنصليات لرعايا الدويلات الإيطالية ، فالخليفة الفاطمي المستنصر بالله سمح لتجار أمالفي بين سنتي ١٠٤٨و١٠٧٠م بناء مقر لهم في القدس يحتوي على كنيسة ومكان لسكنى مواطنيهم من التجار والحجاج[٣]. وأطلق بعضهم على تلك الأبنية الخاصة (الفنادق) *fondouk* ، ووجدت في معظم المدن الشامية والمصرية مثل: عكا، وطرابلس، ويافا، وصور، وبيروت، ودمشق، وعجلون . والى جانب تلك الفنادق وجد القناصل الذين يرعون مصالح بلادهم التجارية والسياسية لدى دولة المماليك[٤]، ففي سنة ٨١٨هـ (١٤١٥م) أقيمت قنصلية للبنادقة في بيت المقدس في عهد السلطان سيف الدين، أما جنوه فقد حصلت على حق إقامة قنصلية في بيت المقدس سنة ٨٣٥هـ (١٤٣١م) بموافقة من السلطان الأشرف برسباي[٥].

وكانت لبعض الشركات الإيطالية فروع في أنحاء مختلفة من المدن والبلاد، فالشركة الفلورنسية *bardi* كان لها فروع عديدة في ايطاليا وخارجها. ففي الخارج وجدت فروعها في: برشلونه، وقبرص ، وارغون، والقسطنطينية،

(١) النويري، نهاية الأرب، ج٣١ لوحة ٩١ (مخطوط). وللباحث، تاريخ شرقي الأردن، القسم الحضاري، ص٦٧، ٢٤١.

(٢) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/ ٥٢.

(٣) *Hume, p. cit., p.4.*

(٤) *Rey, les colonies, pp. 70,73, 74.*

(٥) رشاد الإمام،مدينة القدس في العصر الوسيط، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٦م، ص٨٢.

والقدس، ولندن، ومرسيليا، ونيس، وباريس، وتونس[١]. ثم إن الوجود الأوروبي في بيت المقدس كان يتمثل في أعداد كبيرة من القسوس والرهبان في كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس والأديرة[٢]. وكان لبيت المقدس علاقاته التجارية مع المناطق المجاورة، فالصناعات من كل أنحاء المدن الشامية والعراقية والفلسطينية والأرمينية والمصرية كانت تأتي إلى القدس والموانئ الفلسطينية، بالإضافة إلى الصناعات والسلع الخاصة بالمدن الداخلية في فلسطين وشرقي الأردن وسوريا حيث يصدر قسم إلى أوروبا عبر يافا وعكا[٣].

وكانت سلع بيت المقدس ومنتوجاته تصدّر إلى الأسواق الخارجية، فبعض هذه السلع كانت تصل إلى أوروبا بواسطة الحجاج القادمين لزيارة الأماكن المقدسة، حيث يقومون بشرائها ونقلها إلى بلادهم بقصد الربح، أو عن طريق تصديرها بواسطة الموانئ الفلسطينية كعكا ويافا- فقد وصفت يافا بأنها فرضة بيت المقدس على البحر[٤]_ وتصل السلع إلى القدس عن طريق القوافل التي كانت تنقلها من ايلة (العقبة) ميناء دمشق على البحر الاحمر، ومنها إلى الكرك ثم أريحا وبيت المقدس[٥]. نذكر من تلك السلع: التوابل والأحجار الكريمة والصمغ العربي، القادمة من الهند والصين عبر البحر الأحمر والجنوب العربي[٦]، والبلسم من أريحا، والحمر من البحر الميت، والزيت والصابون من نابلس والقدس والخليل، والنيل والقطن من وادي الأردن. والمسابح

---

(١) *Sapori (Amande), The Italian Merchant in the Middle ages, new York,1970, p. 51.*

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ط الشعب، ص ٥٤٣.

(٣) *Rey, les Colonies ,pp. 222-225.*

(٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، القسم الخاص بالشام، ص٥.

(٥) *Rey, les Colonies ,pp. 202-203.*

(٦) *Ibid., p. 190.*

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

والقماش الدمقس والحرير من دمشق[١] ، والسكر من الأغوار والكرك والشوبك الذي وصف بأنه من أجود الأصناف. وكان السكر يصدر للأسواق الأوروبية على شكل عسل السكر، أو بلورات أو مسحوق أو قطع كبير *loaf sugar* والمنسوجات الصوفية من الرملة، وزيت السمسم وغيرها من السلع الأخرى[٢]. ومن المنشآت التي خدمت حركة التجارة الخارجية في بيت المقدس (الوكالة).

دار الوكالة:

أقيمت الوكالات في معظم المدن الهامة في مصر والشام لخدمة التجارة الخارجية، وأطلق عليها في دمشق (دار الطعم)[٣] وسميت (مخزن التجار). فالتاجر الذي لا يصحب تجاريه ولم يرتبط بصديق تاجر يقوم بأعماله، عليه خزن بضاعته لدى وكيل يهتم بتسويقها. فالوظيفة المزدوجة الخزن والتسويق هي من اختصاص (دار الوكالة)، وان حدث وامتلك الوكيل داراً خاصة به فيطلق عليه (صاحب دار الوكالة)[٤] وعلى ذلك فإن وكيل التجار يقوم بمهمة الخازن للسلع (أو المودع لها) ، وهو المسؤول عن التجار الأجانب الذين لا يستطيعون الأشراف على أعمالها شخصياً[٥]. ويتقاض وكيل التجار عمولة نظير خدماته التي يقدمها لزبائنه، ويرتبط عادة بعلاقات مع القناصل الأوروبيين المقيمين في بعض

---

(١) *Thompson, op. cit., p.360.*

(٢) *Rey, les Colonies ,p.190.*

prawer, op cit., pp. 394-395.

(٣) دار الطعم بدمشق، وهي بمثابة الوكالة بالديار المصرية، ويتولاها شخص يدعى (شاد دار الطعم) يقوم بجبي المكوس من التجار وولايتها من النائب). (القلشندي، صبح الأعشين ٤/ ١٨٧).

(٤) *Goitein, op. cit., p, 187.*

(٥) *Ibid., p.192.*

المدن في مصر والشام[١]. وجرت العادة ان تباع السلع القادمة من الخارج إما نقداً أو نسيئة، فإذا احضر التاجر شيئاً من السلع كالثياب مثلاً تسلمته السماسرة وباعته في النداء (الحراج)، أو باعته على التجار نسيئة لأجل وبذلك يزداد ثمنها فينال صاحب السلعة ربحاً آخر[٢]، ولكن المستهلك يدفع ثمناً اكثر لمثل هذه السلعة، وكان السلاطين يمنعون مثل هذا البيع لان فيه زيادة للأسعار[٣].

ووجد في بيت المقدس دار الوكالة التي وصفتها المصادر بأنها خان عظيم يباع فيه أصناف البضائع[٤]. الا ان بعض وثائق بيت المقدس نعتتها بـ (الوكالة المرعية) واطلقت على الطريق المؤدية اليها بـ (طريق الوكالة)[٥]. وتسمى دار الوكالة في الوقت الحاضر بـ (خان السلطان). وكانت دار الوكالة وقفاً على مصالح المسجد الاقصى، ويذكر الحنبلي ان اجرتها السنوية بلغت اربعمائة دينار[٦]. وفي العادة وجد (شاد دار الوكالة)، يعين هذا الموظف من قبل النائب في بيت المقدس، ومهمته التحدث في استخراج المكوس من دار الوكالة، وهذه الوظيفة كان يتولاها في دمشق امير عشرة او مقدم حلقة، وجندي[٧]، وهناك ايضاً (شاد دار الطعم) في مدينة عجلون[٨]. وقد جدد بناء دار الوكالة في القدس السلطان برقوق سنة ٧٨٨هـ(١٣٨٦م) واثبت ذلك على لوح رخامي ونقل برشيم نص ذلك النقش كما يلي:

---

(١) *Ibid., p.192.*

(٢) المقريزي، السلوك، ٤/٢/٦١١.

(٣) المصدر نفسه، ٤/٢/٦١١.

(٤) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/٦١١.

(٥) وثيقة وقف رقم ٦ تاريخ ٧٥٢هـ من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس.

(٦) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/٥٢.

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ٤/١٨٧.

(٨) النويري، نهاية الأرب، ج٣١ لوحة ٩١ (مخطوط) وللباحث تاريخ شرقي الأردن، القسم الحضاري، ص٦٧.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

بسملة... جدد هذه القيسارية المباركة وقف حرم القدس الشريف

مولانا السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق خلد الله ملكه بنيابة

مولانا ملك الأمراء بيدمر كافل الممالك بالشام عز الله أنصاره وإنشاء

الفقير إلى الله تعالى السيفي أصيغان بلاط ناظر الحرمين الشريفين في سنة ثمان وثمانين وسبعمائة[١].

وما زالت آثار وكالة بيت المقدس باقية للآن، ويتوصل إليها عن طريق باب السلسلة بعد أن تتجه يمينا مسافة٢٠٠ متر. ويحف بدار الوكالة من الغرب سوق الخواجات، ثم يليه سوق العطارين، ثم سوق الحدادين. أما من الشرق والشمال فيحف بها (طريق القرمي)[٢]، ومن الجنوب ممر يؤدي إلى طريق السلسلة.

ويؤدي المدخل إلى دهليز واسع يقضي إلى ساحة سماوية مكشوفة، يحيط بها الحواصل والبوائك والقاعات التي أعدت لخزن البضائع وإقامة المسؤولين عن الوكالة. وهي من طابقين علوي وسفلي، ويتوصل إلى الطابق العلوي من

(١) *Van Berchem, corpus inscriptionum (Jerusalem), p.300.* ورد اسم بيدمر نائب الشام، وهو سيف الدين بيدمر الخوارزمي، تقلد عدة نيابات منها حلب ودمشق، وفي سنة ٧٨٨هـ ألقى السلطان برقوق القبض عليه، أي في السنة التي جدد فيها دار الوكالة في القدس، وعين بدلا منه الأمير استقتمر المارديني، وكان إذ ذاك يقيم في القدس بطّالاً حيث عزله السلطان في سنة ٧٨٤هـ عن نيابة دمشق وعين بدله الأمير بيدمر الخوارزمي، إلا أن استقتمر عزل عن نيابة دمشق سنة ٧٨٩هـ بالأمير الطنبغا الجوباني، فأقام استقتمر في القدس حتى توفي سنة ٧٩١هـ (المقريزي، السلوك، ٣/ ٢/ ٤٦٦، ٥٤٩، ٥٦٠، ٦٨٧).

(٢) سميت بطريق القرمي، نسبة إلى شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان القرمي أحد الزهاد الورعين، كان يسكن القدس وعرف بورعه وتلاوته للقرآن الكريم، حتى أنه ختم القرآن الكريم في اليوم والليلة ثماني مرات، توفي في بيت المقدس سنة ٧٨٨هـ. (المقريزي، السلوك، ٣/ ٢/ ٥٥٧).

ثلاثة مسالك: الأول درج يقع في صدر الساحة في الركن الشمالي الغربي منها. والدرج الثاني يكون عن يمين الداخل، أما الثالث فهو في الركن الجنوبي الغربي في مواجهة الدرج الأول. ويوجد في الطابق العلوي الغرف والبوائك التي أعدت للإقامة وخزن السلع، وهي ذات أبواب مستطيلة بأعتاب مستقيمة، ويدور بهذا الطابق ممشى مكشوف يطوف بدائرة ويطل على ساحة الوكالة القائمة في الوسط، وتتزود دار الوكالة بالمياه من بئر تقع في صدر ساحتها.

أما البوائك السفلية فهي قاعات كبيرة ضخمة واسعة، تقوم على عدة عقود قائمة على دعامات مربعة الشكل، ويشغل إحدى هذه القاعات في الوقت الحاضر مصنع للنسيج. ويوجد مسجد صغير في الطابق العلوي يقع في الركن الشمالي الغربي، وهو بحالة جيدة فقد رمم حديثاً. وبُنيت دار الوكالة بالحجارة المدقوقة المشهرة واستخدم الملاط في بنائها، وأبواب قاعاتها وبوائكها السفلى واسعة ذات عقود مدببة ، ونمط بنائها وتوزيعا يشبه نمط الخانات المملوكية الموجودة في منطقة شرقي الأردن كالحسا وضبعة[١].

وعلى العموم فدار الوكالة في حالة حسنة، وتحتاج إلى ترميم في بعض أجزائها وقاعاتها وغرفها. وقد رممت هذه الوكالة في سنة ٧٨٨هـ (١٣٨٦م)، ومرة أخرى في العصر العثماني سنة ١١٧٧هـ (١٧٦٣م) ويطلقون عليها الآن (الخان السلطاني).

(١) للباحث، تاريخ شرقي الأردن، القسم الحضاري، ص٢٠١.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(3)
المكاييل والأوزان

وأما المكاييل التي كانت مستخدمه في نيابة بيت المقدس فهي: الغرارة والغرارة تساوي١٢ كيلا، والكيل يعادل ٦ أمداد[١] . وكانت غرارة القدس تعادل ٣ غرائر دمشقية أي حوالي ٥،٦١٣ كغم قمح أو ما يعادل ٧٩٥ لتراً[٢]. وذكرت المصادر أن بيت المقدس وعمان انفردتا (بالمدى)[٣]، وهو غير (المد) وقد وقع فالتر هنتش في لبس فلخط بين المد والمدى[٤] . وكان مدى بيت المقدس يعادل ٢/ ٣القفيز، والقفيز يعادل ٤ ويبات أو ٣٦ صاعاً، إذن فمدى القدس=٢٤صاعا=١٠٠ لتر[٥].

واستخدمت مدينة الرملة القفيز والويبة والمكوك والكيلجة، فالويبة في الرملة تعادل ١/ ٤ قفيز= ٨،٣٧ لتراً، أما المكوك فيعادل١/ ٢ القفيز ويساوى ١٩ لتراً[٦].

---

(١) ابن الأخوة ، معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق محمد شعبان، القاهرة ، ١٩٧٦ ص ٥١و٨٢. القلقشندي، صبح الأعشى، ٤/ ١٨١، ١٩٨، ١٩٩ والغرارة مد ونصف= ثلاثة أرادب مصرية (صبح الأعشى، ٤ / ١٨١) ويقول ابن قاضي شهبة أن غرارة القدس كانت تعادل غرارتين دمشقيتين (ابن قاضي شهبة ، تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش، دمشق ١٩٧٧م ، ٣/ ٥٨١).

(٢) فالتر هنتش، المكاييل والأوزان الإسلامية ، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية ، عمان ١٩٧٠م ، ص ٦٤.

(٣) المدى: مكيال استخدام في الشام وهو غير المد جمع أمداد (محيط المحيط، مادة مدى)

(٤) فالتر هنتش ، المرجع السابق ، ص ٧٥.

(٥) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨١ لي سترانج، ص ٦٥.

(٦) المقدسي ، احسن التقاسيم/ ص١٨١ فالتر هنتش، المرجع السابق، ص ٧٩ وللباحث ، عمان حضارتها وتاريخها، عمان ١٩٧٩ ، ص١٦٩ ولمزيد من التفاصيل عن الأوزان انظر: ابن سلام، كتاب الأموال، القاهرة ، ١٩٦٨م ، ص ٦٨٨-٦٩٩

وشاع استخدام الرطل في أوزان نيابة بيت المقدس، وذكرت المصادر الرطل المقدسي، والرطل النابلسي، والرطل الخليلي، وجميع هذه الأرطال كانت متساوية فالرطل في كل يعادل ٨٠٠ درهم، أما الأوقية المقدسية والنابلسية والخليلية فكانت تساوي ٢/ ٣ر٦٦ درهم= ٢٠٨,٣٣ غم، أما رطل الرملة فكان يعادل ٧٣٢ درهما=٢,٣٣١ كغم[١]. وكانت الأرطال في بلاد الشام تختلف في وزنها من نيابة إلى أخرى، فرطل دمشق كان يعادل ٦٠٠ درهم =١٢ أوقية والأوقية تعادل ٥٠ درهما=١٥٤,١٦٦غم. أما رطل غزة فهو ٧٢٠ درهما ورطل الكرك ٩٠٠ درهم، أما رطل عجلون فيعادل ١٢٠٠ درهم[٢]. وكانوا يزنون به زيت الزيتون.

أما المقاييس فاستخدم في نيابة بيت المقدس ذراع القماش[٣]، أو ذراع البز= ٦٤,٧٧سم[٤]. وكانت ذراع القماش الشامي تزيد عن ذراع القماش المصري بمقدار نصف سدس ذراع، وتعادل ٦٣سم. أما الدور فقد أشارت وثائق المتحف الإسلامي في بيت المقدس أن قياسها يتم بذراع العمل وتعادل ٧٩,٨ سم. فالوثيقة رقم ٧٧ ذكرت وقف عشرة حوانيت بسوق الليل معقودة بالحجر والجير ارتفاعها ستة أذرع بالعمل، وقفت هذه الحوانيت على السقاية بالقدس ولمنفعة المسلمين[٥]، وذراع العمل هذه طولها ثلاثة أشبار بشبر رجل معتدل[٦].

(١) فالتر هنتش، المكاييل والأوزان الإسلامية ، ص ٢٠ ، ٢٣.
(٢) ابن الأخوة ، معالم القربة ، ص ١٣٨، ١٣٩. القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٤/ ١٨١، ١٩٨.
(٣) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٤/ ١٩٩.
(٤) فالتر هنتش، المرجع السابق، ص ٨٦.
(٥) وثيقة رقم ٧٧ من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس
(٦) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٤/ ١٨١

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(4)
السكة

كانت المعاملات التجارية تتم في نيابة بيت المقدس عن طريق المقايضة أو بواسطة الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية المسكوكة في دمشق أو القاهرة أو في أنحاء أخرى من دولة المماليك[1]. وذكرت المصادر عن وجود دار السكة في بيت المقدس: إلا أننا لم نعثر على ما يشير إلى استمرارها في أداء دورها في العصر المملوكي. فدار السكة في بيت المقدس واصلت ضرب السكة في العصر الأموي، والذي وصلنا من ضرب بيت المقدس فلوس تحمل (ايليا) إحدى أسماء بيت المقدس. ويحتفظ المتحف الإسلامي بالقدس بعدد من هذه الفلوس النحاسية التي تعتبر الأنماط الأولى للسكة الإسلامية، وقد ضربت في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان عندما عرّب السكة، فالفلس رقم س٥١/ ٢٥٢ عليه صورة الخليفة عبد الملك يرتدي جبة طويلة ويغطي رأسه بكوفية تتدلى على كتفيه، ويقبض بيده اليمنى على سيفه. وعن شمال صورة الخليفة هذه كلمة (محمود) وفي الجهة اليمنى من الصورة إلى الأعلى كلمة (رسول الله)، أما الظهر فعليه حرف(=) ومن اليمين (فلسطين) وعن شمالها (بايليا) وكذا الفلس رقم س٨٥/ ٢٥٢ يحمل نفس النقش.

وبعد أن الغي هذا النمط من السكة _ الذي يحمل صورة الخليفة لان الإسلام يقف موقفاً سلبياً من الصورة واكتفى بنقش بعض العبارات فقط. ومن أنماط هذه السكة التي ضربت في بيت المقدس الفلس رقم ن ق٩/ ٢٥٠ الموجود في المتحف الإسلامي بالقدس والنقش الموجود عليه:

---

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٤/ ١٩٩

الوجه	الظهر
لا اله إلا الله	محمد رسول الله
الله وحده	الإطار
(ضمن ثلاث دوائر)	(بسم الله ضرب هذا الفلس بايليا)

وهناك فلوس مشابهة لما سبق منها الفلس رقم س٥٥/ ٢٥٢، س٢١/ ٢٥٠، ويوجد فلوس مشابهة لهذه الفلوس محفوظة في بعض المتاحف ولدى المجموعات الخاصة[١]. ولم نعثر على سكة ضربت في بيت المقدس بعد العصر الأموي، وعلى هذا النحو فإن دار السكة بالقدس بطل استخدامها بعد سقوط الدولة الأموية في بلاد الشام.

أما دار السكة التي بقيت تؤدي دورها طيلة العصور الإسلامية الأخرى فهي دار سكة مدينة الرملة، وكثيراً ما أشير إليها (بفلسطين) باعتبارها حاضرة فلسطين منذ عهد سليمان بن عبد الملك، ودار سكتها ضربت إلى جانب الفلوس النحاسية الدراهم الفضية، والدنانير الذهبية. وفي العادة فإن سنة الضرب على الفلوس الأموية لم تكن موجودة، إلا أن المتحف الإسلامي بالقدس يحتفظ بفلس نادر عليه سنة الضرب ١١٧هـ ويعود لعهد الخليفة هشام بن عبد الملك رقمه س٧٣/ ٢٥١، والنقش كما يلي:

الوجه	الظهر
لا إله إلا الله	محمد
الله وحده	رسول
لا شريك له	الله

سبع

ضرب هذا الفلس بالرملة سنة سبع عشرة ومئة.

وفي إطار الوجه يوجد غصن نخيل بشكل سلسلة مجدولة، أما اطار الظهر

(١) سمير شما ، النقود الإسلامية التي ضربت في فلسطين ، ١٩٨٠م ، ص ٨٠

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

فعليه مكان وسنة الضرب[١].

وقد استمرت دار السكة في مدينة الرملة تؤدي وظيفتها في ضرب السكة الذهبية والفضية في العصور الإسلامية المختلفة. وهناك مجموعات من سكة الرملة ذهبية وفضية محفوظة في المتاحف العالمية المختلفة. وفي المجموعات الشخصية. وقد أورد الأستاذ سمير شما إحصائية لمعظمها وأكثرها ذكر فيه مكان الضرب (فلسطين)، وفلسطين كانت تعني إذ ذاك الرملة[٢]. والظاهر أن دار السكة في الرملة توقفت بعد استيلاء الفرنج عليها في الحملة الصليبية الأولى سنة ٤٩٢هـ (١٠٩٩م)، وبقيت بيد الفرنج حتى حررها صلاح الدين مع بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م)[٣]. أما العصر المملوكي فلا يوجد لدينا ما يثبت ضرب السكة في الرملة، فمعظم السكة كانت تضرب في دمشق والقاهرة والإسكندرية، وقد أشار القلقشندي إلى أن المعاملة في نيابة بيت المقدس تتم بالذهب والفضة والفلوس على نحو ما يتم في نيابة دمشق[٤].

وقد تعامل الناس في العصر المملوكي بثلاثة أصناف من الذهب، فالأول هو الذهب الهرجه، وهذا الصنف هو الذهب الإسلامي الخالص، وهو مستدير الشكل نقش على الوجه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وعلى الظهر: اسم السلطان وتاريخ الضرب ومدينة الضرب[٥]. أما الصنف الثاني فهو

(١) هناك ثلاثة فلوس أخرى ضرب الرملة عليها تاريخ: ١٠١هـ، ١١٦هـ، ١٠١هـ، في المتحف البريطاني والمكتبة الأهلية في باريس (انظر: سميرشما، النقود الإسلامية، ص٨١)

(٢) انظر سمير شما النقود الإسلامية التي ضربت في فلسطين، ص ٩١-١٥٩

(٣) ولدي تحفظ على ما أورده الأستاذ سميرشما في كتابه (النقود الإسلامية ص ١٥٩) فن فلس نحاسي ضرب في الرملة في العصر الأيوبي سنة ٥٨٠هـ، وهذا الفلس من مجموعة أحمد توحيد ويحتفظ به متحف الآثار باستنبول فالرملة في هذا التاريخ كانت تحت السيطرة الصليبية، فلم تتحرر الرملة إلا سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) بعد معركة حطين، لذا فإن أعادة التدقيق والتأكد من تاريخ الفلس أمر ضروري.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ٤/١٩٩

(٥) المقريزي، السلوك، ٤/١/٣٠٤

الذهب الإفرنتي والأفلوري والبندقي والدوكات، وهذه الدنانير كانت تجلب من بلد الإفرنج، فالأفرنتي نسبة إلى فرنسا، والأفلوري نسبة إلى فلورنسا، أما البندقي والدوكات فترجع في نسبتها إلى البندقية، فحاكم البندقية يدعى دوقاً ومن هنا جاءت النسبة للدوكات، ويسير المقريزي أن هذا الصنف من الدنانير صار نقداً رائجاً في الدولة المملوكية منذ سنة ٧٩٠هـ (١٣٨٨م) ويذكر أن على وجه هذه الدنانير يوجد صورة إنسان في دائرة مكتوبة بخطهم، أما الظهر فعليه صورتان في دائرة مكتوبة[١]. ويفسر القلقشندي هذه الصور فيذكر أن الصورة الأولى هي صورة الملك الذي ضُربت السكة في عهده، أما الصورتان اللتان على الظهر فهما لبطرس وبولس الحواريين[٢]. وقد أشارت المصادر إلى وجود (الدنانير المصورة) في بيت المقدس[٣]، وهذه الدنانير هي التي أشرنا إليها سابقاً، وكان التداول بها مسموحاً في العصر المملوكي. ومصدرها من الدويلات الأوروبية يحضرها الحجاج أو تصل إلى القدس عن طريق المبادلات التجارية التي كانت تتم بين بيت المقدس وأوروبا عبر ميناء يافا على ساحل البحر المتوسط[٤]. وقد أقيمت المصارف لخدمة التجار الإيطاليين، فكان لكل دولة مصرف أو بنك *Banque* لخدمة مصالحهم وتسهيل صفقاتهم التجارية مثل: جنوا وفينيسيا، وفلورنسا، وبيزا[٥]. أما الصنف الثالث من الذهب الذي تعامل به الناس في العصر المملوكي فهو ذهب أقل في عياره من الصنف الأول، وفي سنة ٨١٨هـ (١٤١٥م) سموه (الذهب الناصري) نسبة إلى السلطان الناصر فرج[٦].

(١) المقريزي، السلوك ٤/١/٣٠٥

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ٣/٤٣٧

(٣) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/٣٠٥ ابن أياس، بدائع الزهور، ط الشعب ص ٥٤٥.

(٤) المقريزي، السلوك ٤/١/١٤٣

(٥) *Rey. Les colonies franques, p. 192.*

(٦) المقريزي، السلوك، ٤/١/٣٠٦

http://www.al-maktabeh.com

وجرت العادة أيضاً أن يتعامل الناس في بلاد الشام بالفلوس والقراطيس، أما القرطيس فيعادل ستة فلوس، أما الدرهم فيعادل ٢٤ قرطيساً، وقد أبطل الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢١هـ (١٣٢١م) التعامل بتلك القراطيس في بلاد الشام، وجعل التعامل بالفلوس فقط، بحيث يساوي الدرهم ٢٤ فلساً[١].

al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

(١) ابن بهادر، فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر، لوحة ٥٢٣ (مخطوط)

(5)
الموارد المالية في النيابة

وما دمنا بصدد الحديث عن الحياة الاقتصادية في نيابة بيت المقدس فلا بد أن ننوه بموارد النيابة المالية، فالمعروف أن النيابات في بلاد الشام كانت ترسل قسماً من دخلها إلى السلطان في القاهرة، ونيابة بيت المقدس كانت ترسل قسماً من مواردها إلى السلطان، ففي دولة المماليك الثانية (الجراكسة) كان المتحصل من جبل نابلس والقدس من زيت الزيتون كميات كبيرة. وكان السلطان في القاهرة يفرض هذا الزيت على التجار والأهالي في القدس والخليل والرملة بأسعار عالية[١]، وكان بعض النواب يفرضون الأموال على أهالي القدس بالقوة، ففي سنة ٨٠٧هـ (١٤٠٤م) قرر نائبها الأمير حسن على الناس مالاً كثيراً، فأبوا دفعة، فقاتلهم في المسجد الأقصى وحصّل منهم الأموال بعد أن قتل بضعة عشر رجلا[٢]. أما أهم الموارد المالية للنيابة فتتمثل بما يلي:

المكوس:

وهي ضريبة كانت تحصلها نيابة بيت المقدس على التجارة والصناعة، وخصوصاً على السلع المجلوبة إلى دار الوكالة في بيت المقدس، وقد عين شاد دار الوكالة ليجمع هذه الضريبة من التجار والبضائع المباعة في دار الوكالة، وكان المكوس يفرض على السلع القادمة من البحر إلى ميناء يافا أو المصدرة منه، فيؤخذ من أولئك التجار العشر مع لواحق أخرى[٣]، وفي أحيان كان يؤخذ الخمس وربما زاد على ذلك[٤]. وكان هناك مكس الغلة، فيؤخذ من ثمن كل

(١) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/٣٥٦، ٣٥٨
(٢) المقريزي ، السلوك ، ٣/٣/١١٥٣
(٣) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٣/٤٦٦
(٤) المصدرنفسه ، ٣/٤٥٩

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

غرارة ثلاثة دراهم ونصف فضة، وكان المتحصل منها مبلغاً كبيراً، فسبب ضيقاً للفلاحين. عندئذ عمد الناصر محمد بن قلاوون إلى أبطال مكوس الغلة بالشام كلها[١]. ويؤخذ المكوس من البضائع والسلع الواردة إلى أسواق القدس والخليل الداخلية والخارجية. ونعتت المصادر هذه الضرائب الإضافية بالمظالم، وكثيراً ما ألغى السلاطين هذه المظالم، فالسلطان الأشرف قايتباي ألغى المظالم في جبل القدس والخليل والمكوس المفروضة على البضائع المجلوبة إليهما ونقش ذلك على رخامة يحتفظ بها المتحف الإسلامي في القدس تحت رقم م ز ٢٢ هذا نصه:

١- بسم الله الرحمن الرحيم برسم مولانا السلطان المالك الملك.

٢- الأشرف أبو النصر قايتباي عز نصره بإبطال ما أحدث.

٣- من المظالم بجبل القدس الشريف وجبل الخليل عليه السلام من الإقامة وما على.

٤- البضائع المجلوبة إلى بلد سيدنا الخليل من المكي المسمى.

٥- بالطعم وغيرها وأن لا يتعرض المحتسب ولا غيره ببلد الخليل لشيء.

٦- من ذلك في تاسع عشر المحرم سنة أحد وثمانين وثمانمائة.

٢- الخراج:

ويدعى المال الخراجي، ويحصل من الأراضي المرصدة للزراعة بأنواعها، ومن كروم العنب والزيتون والنيلة والأرز والكبريت، ومن الطواحين التي تدور أحجارها بمياه السيول. وكذلك ما يستأدى من الفلاحين، وكان يسمى في بلاد الشام في العصر المملوكي (رسم الأعياد والخمس)، ويتكون من أغنام ودجاج وكشك وبيض، ويكون على النواحي الإقطاعية غالباً[٢]. وكان المتبع في بلاد

(١) ابن بهادر، فتوح النصر، لوحة ٥٣٢ (مخطوط).

(٢) النويري، نهاية الأرب، ٨/ ٢٤٥

الشام أن يتم تحصيل الخراج بعد تمام المحصول، فإن كانت حبوباً يخرج المباشرون إلى البيادر ويحصلون ما يخص الديوان من الخراج. وكان شيوخ القرية وفلاحوها يعرفون عدد الأفدنة في قراهم، ولدى ديوان الأمير المقطع سجلات بعدد الأفدنة ومتحصلها، وعلى المقوّم تقع مهمة تقدير ما يجب تحصيله لبيت المال[١]. ويحدث الشيء نفسه لموسم الزيتون فيحضر المباشرون إلى المعاصر ويستوفون حقوق السلطان، ثم يعهد السلطان إلى نائب بيت المقدس بيع المتحصل وإرسال ثمنه إلى القاهرة، وإذا كانت مزارع الزيتون قديمة (رومي) فيحصل ١/ ٢ محصوله للدولة، وإن كانت أشجار الزيتون إسلامية فيحصل منها ضريبة الخراج على أساس عدد الأشجار وسعر الزيت، وكان يطلق عليه (محصول الزيتون الإسلامي)[٢]. ويحدث مثل ذلك إلى الخروب والسماق والجوز واللوز والأرز، والكروم والبساتين والمقاثي ويسمى (خراج العين)[٣].

وجرت العادة أن تكون هناك جهات مضمنة على أربابها بشيء معلوم يؤخذ منهم عند إدراك المغل دون توكيل أو مقاسمة[٤]. أما السكر فتؤخذ الضريبة منه بعد تمام عصر القصب وجفافه، وكان المباشرون يراقبون عملية استخراج السكر ويسجلون ذلك في سجلات خاصة، وبعد تمام جفافه ونقائه يأخذون الضريبة المستحقة عليه[٥]. وكان نائب بيت المقدس يجبي من فلاحي الضياع في نيابته أربعة آلاف دينار سنوياً، فخرج مرسوم سلطاني سنة ٨٢٤هـ (١٤٢١م) أبطل هذه المغارم، ونقش هذا الأمر على لوح رخامي أثبت في جدران المسجد الأقصى[٦].

(١) السبكي تقي الدين ، التمهيد فيما يجب فيه التحديد ، ص ٨

(٢) *Hutteroth op cit .. pp. 66. 69.*

(٣) النويري ، نهاية الأرب ، ٨/ ٢٦٠ ، ٢٦١

(٤) النويري، المصدر نفسه ، ٨/ ٢٦٠

(٥) النويري ، المصدر نفسه ، ٨/ ٢٧٢، ٢٧٣

(٦) المقريزي، السلوك ، ٤/ ٢/ ٥٨٤.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

٣ الجوالي:

هي ما يؤخذ من أهل الذمة عن الجزية المقررة على رقابهم في كل سنة، وبلغت قيمة ما يؤديه الفرد في العصر المملوكي مبلغا يتراوح بين ٢٥-١٠دراهم سنويا، تحصل في شهر رمضان، ويحمل قدر معين منها إلى بيت المال، ويقوم نائب بيت المقدس بتحصيل ذلك[١]، من النصارى واليهود في نيابته والسامرة في نابلس. وكان يعين شاد لجمع الجوالي، ويلزم مباشر الجوالي في كل سنة رئيس اليهود، ورئيس السامرة، وبطرك النصارى أو اسقفهم بكتابة رقاع فيها أسماء طائفته، ويسجل فيها أيضا ما يستجد على تلك الطائفة بالطوارئ والنوابت والموت وغيره[٢].

وكانت الجوالي المحصلة من بعض القرى في منطقة القدس والخليل تخصص أحياناً لأحد أمراء المماليك في دمشق، فالجوالي المحصلة من قرية (مجدل فضيل) بمنطقة الخليل كانت ترسل للأمير سعد الدين مسعود بن محمد السراي أحد أمراء العشرات في دمشق. انتزع هذا الحق من خدام الحرم الشريف بالقدس، ولكن الناصر محمد بن قلاوون أصدر مرسوما في سنة ٧٠٠هـ (١٣٠٠م) أبطل هذا الإجراء، وأعاد المتحصل من جوالي قرية مجدل فضيل إلى خدام الحرم الشريف بالقدس[٣].

واعتاد بعض النواب جمع ضريبة أخرى من أهل الذمة من القدس عند قدوم خلعة السلطان أو تعيين نائب جديد. ولكن السلطان جقمق أبطل هذه الضريبة

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٣/٤٥٨، ٤٥٩

(٢) النويري، نهاية الأرب، ٨/٢٤٢، ٢٤٣، وانظر : صبح الأعشى ١٢/ ٣١٠ عن مباشر الجوالي في دمشق. الطوارئ: الدين طرأوا على البلد ولم يكونوا منه. النوابت: أي النشئ الصغار عندما يصلون سن البلوغ.

(٣) وثيقة رقم ٦ من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس وانظر المرسوم في الملاحق.

وأصدر مرسوما بذلك سنة ٨٥٣هـ (١٤٤٩م) نقشه على لوحة رخامية أثبتها في الحرم الشريف. وقد وصل إلينا هذا النقش المكون من خمسة أسطر ويحتفظ به التحف الإسلامي بالقدس تحت رقم م ز١٦ نصه:

برز المرسوم الشريف السلطان المالكي الظاهري ابو سعيد حقمق.

عز نصره بأن يبطل ما على الذمة بالقدس الشريف من الخدمة والقدوم عند حضور النائب الجديد من عند (الباين) خلعة وأن لا يكلفوا الجزية الشرعية ومنع التقدمة (من السلاطين) من التعرض لهم وأن يكون

٥، ٦، ٧، ٨ ناظر الحرمين الشريفين متكلما عليهم بتاريخ شهر جمادى الآخرة سنة ثلاث وخمسين وثمانماية.

والظاهر أن نصارى بيت المقدس نالوا حظوة خاصة لدى السلطان جقمق، ففي السنة التالية ٨٥٤هـ (١٤٥٠م) أصدر مرسوما نقشه على قطعة من الرخام أبطل فيه الضمان الذي كان يؤخذ من رهبان دير الأرمن بالقدس ونص المرسوم:

برز مرسوم مولانا السلطان الملك الظاهر أبو سعيد محمد جقمق عز نصره بإبطال ما أحدثه أبو الخير ابن النحاس من ضمان مار يعقوب دير الأرمن بالقدس الشريف على ما رده (؟) سيف الدين المقر الشرفي الأنصاري وسأل في إبطال ذلك ليسطر في الصحائف الشريفة بتاريخ أربع وخمسين وثمانمائة من الهجرة ملعون ابن ملعون وعليه لعنة الله تعالى من أحدث ضمانا، أو جدد مظلمة[1].

---

(١) van Berchem, corpus inscriptionum(Jerusalem) pp. 332-333. ورد في النقش اسم أبو الخير أبن النحاس، وهو وكيل بيت المال في القاهرة، قال أبو المحاسن أنه شخص من الباعة، عينه السلطان جقمق سنة ٨٥١هـ في هذا المنصب وهو الذي احدث هذه الضريبة على رهبان دير الأرمن بالقدس، (النجوم الزاهرة، ١٥/ ٣٧٥)

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

٤ الرسوم المفروضة على الفرنج (الحجاج):

كانت حركة السياحة وزيارة الأماكن المقدسة في نيابة بيت المقدس سهلة وميسرة للفرنج، فينزل الزائرون والحجاج القادمون من أوروبا في ميناء يافا بندر بيت المقدس على البحر التوسط. ويقدم لهم النائب كل التسهيلات الممكنة، ويعين عددا من الجند لحمايتهم وايصالهم إلى بيت المقدس عن طريق الرملة. وبالمقابل كانت الدولة المملوكية تستوفي رسوما خاصة منهم، يدفعونها حال نزولهم إلى البر[١]. وكان السلطان يرتب شخصا من قبله لجمع هذه الضريبة، فقد تولاها في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) شرف الدين قاسم، وبهاء الدين أبو بكر بن غانم، وتم ذلك بتوقيع شريف سلطاني من القاهرة[٢]، ولكن المصار لم تذكر قيمة ما يحصل من كل حاج.

٥ متحصل كنيسة القيامة:

وتؤخذ هذه الضريبة من الزائرين لكنيسة القيامة ومن القاطنين فيها من رجال الدين، وعين لها موظف خاص سمي (شاد متحصل قمامة)، وكان يتولاها بتوقيع خاص من السلطان في القاهرة[٣] . وقد أورد القلقشندي صورة هذا التوقيع، يطلب السلطان من متوليها استعمال الشدة واللين والدقة في جمع هذه الضريبة، والرأفة بالضعفاء وغير القادرين من القسس والرهبان. وكانت هذه الضريبة تؤخذ على الرأس، وهي تختلف عن الرسوم المفروضة على الحجاج

(١) ذكر الرحالة الذين زاروا القدس في القرن الخامس عشر الميلادي هذه الضريبة، انظر: نقولا زيادة رحلة فيلكس فابري، بحث القي في مؤتمر بلاد الشام، عمان ١٩٨٠ ص ٨. ومحمود زايد ،دراسة للتقسيمات الإدارية في فلسطين ، بحث القي في مؤتمر بلاد الشام ، عمان ١٩٨٠م. ص٧.

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٤٦/١٣، ٤٧ راجع نص التوقيعين في الملاحق .

(٣) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٣٣٦/١٢ وانظر نص التوقيع في الملاحق

القادمين لزيارة القدس عن طريق يافا وغيرها. وكان جزء من متحصل الكنيسة يرصد للإنفاق على بناء القلاع والمهمات الأخرى، ففي سنة ٨٠٣هـ (١٤٠٠م) خصص نصف متحصل كنيسة القيامة لأعمار قلعة دمشق[١].

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

(١) المقريزي ، السلوك ، ٣/ ٣/ ١٠٦٦

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(6)
الأوقاف

الوقف لغة الحبس، ويقصد به تلك الأراضي والمنشآت التي يخصصها المسلمون لأغراض دينية أو للمجاهدين والفقراء، أو لليتامى وفك رقاب العبيد، وإما لبناء المساجد والحصون والبيمارستانات والمدارس والزوايا والأربطة والخانات أو لغيرها من المنافع العامة[١]. والأوقاف خاصة ورسمية، فالخاصة يوقفها بعض الأتقياء والأمراء والأغنياء وربما بعض العامة. والرسمي يكون من قبل الخليفة أو السلطان أو الحاكم للنفقة على بعض المنشآت الدينية والاجتماعية العامة[٢].

ووجد في نيابة بيت المقدس العديد من المؤسسات العامة، فالمسجد الأقصى وقبة الصخرة والمدارس الكثيرة، والخانقاوات والأربطة والحرم الإبراهيمي في الخليل والمؤسسات الأخرى في نابلس والرملة، كل تلك المنشآت وقف عليها المسلمون الأوقاف العديدة في مصر والشام-وكان ريع تلك الأوقاف يرصد للنفقة على تلك المؤسسات، وشكل هذا دخلا جيداً لنيابة بيت المقدس. وعين لكل وقف ناظر يشرف على شؤون وقفه، فناظر الحرمين الشريفين في القدس والخليل كان من مهامه الإشراف على أوقاف الحرمين من نفقه وترميم وتعمير وإصلاح.

---

(١) السبكي تقي الدين، التمهيد فيما يجب فيه التحديد، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق ، ١٩٥٦م ص٨ .

(٢) محمد عبيد الكبيسي، أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية ، بغداد ١٩٧٧، ٣٨/١، وللباحث، القرية (في جنوب الشام) الأردن وفلسطين في العصر المملوكي في ضوء وقفية قرية آدر، بحث قدم للمؤتمر الدولي الأول لتاريخ الأردن وآثاره، اكسفورد ١٩٨٠م، ص١٤.

ونصت الوثائق على وقف العديد من دور بيت المقدس على مصالح المسجد الأقصى أو الخانقاه الصلاحية، أو البيمارستان الصلاحي. ولدينا في المتحف الإسلامي في بيت المقدس ٧٥٠ وثيقة معظمها وقفيات وقفها أصحابها على المؤسسات الدينية والاجتماعية والثقافية في بيت المقدس والخليل. من ذلك الوثيقة رقم ٢٠ سنة ٧٦٨هـ واقفها جعفر بن محمد بن أبي بكر من القدس الشريف، وقف عمارة الدار الكائنة بالقدس بخط باب العامود بعد مماته على مصالح البيمارستان الصلاحي في بيت المقدس، ونصت الوثيقة (بأنه وقف صحيح شرعي مؤبد. وحبس دائم محلل لا يباع ولا يوهب ولا يملك ما دامت الأرض والسماوات)[١].

أما الوثيقة رقم ٥٤ تاريخ ٧٨٣هـ فواقفها جمال بن عبد الله. وقف داره الكائنة في القدس على الخانقاه الصلاحية، يصرف ريعها على الفقراء المقيمين بها الواردين إليها وقفا صحيحا مؤبدا، على ألاّ تباع أو توهب ولا ترهن[٢].

ونصت الوثيقة رقم ٤٣ على وقف (خان العناية) الكائن بباب حطة على المدرسة الصلاحية في القدس[٣]. ومن الأوقاف الهامة التي وقفت على مصالح المسجد الأقصى (دار الوكالة) التي كانت تؤجر بمبلغ ٤٠٠ دينار سنويا تورّد إلى ناظر الحرمين بالقدس[٤].

وهناك المئات من الوقوف في القدس والخليل حبست لمصالح المؤسسات الدينية والاجتماعية والثقافية السالفة الذكر. من ذلك سوق العطارين، وقفه صلاح الدين على شؤون المدرسة الصلاحية، وسوق الخضروات وسوق القماش الواقعة قرب باب الخليل، وقفها صلاح الدين الأيوبي على مصالح

(١) وثيقة رقم ٢٠ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس .

(٢) وثيقة رقم ٥٤ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس .

(٣) وثيقة رقم ٤٣ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس .

(٤) الحنبلي ، الأنس الجليل ٢/ ٥٢

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

المسجد الأقصى. ومنها الوقف الذي وقفه الأمير عبد الله بن عبد ربه بن عبد الباري سنجر الدواداري الصالحي على الخانقاه الدويدارية في القدس سنة ٦٩٥هـ (١٢٩٥م)، وشمل هذا الوقف أماكن متعددة في فلسطين والشام، منها قرية بير نبالا[١]، وقرية حجلا من أعمال أريحا، ودار ومصبنة وستة حوانيت، ووزّاقة وحمّام الملكة في مدينة نابلس، وثلاثة بساتين وثلاثة حوانيت في بيسان، وقرية طبرس من أعمال قاقون[٢]. وفي سنة ٦٧٧هـ (١٢٧٨م) وقف السلطان حسام الدين لاجين ضيعة الأقسّا من عمل يافا والرملة على مصالح جامع ابن طولون في القاهرة، وقد استثنى من هذا الوقف المسجد والطريق والمقبرة[٣]. ولم تكن الأوقاف محصورة في القدس بل نصت الوثيقة رقم ٢٢ سنة ٧٠٧هـ على وقف إحدى القرى في معاملة القدس يصرف ريعها في جامكية (راتب) الخطيب والمؤذن ومصالح السقاية في القدس الشريف[٤]. ونصت الوثيقة رقم ٥٠ على وقف احكار على الحرم الخليلي[٥]. أما الوثيقة رقم ٧٧ فنصت على وقف عشرة حوانيت في سوق الليل معقودة بالحجر والجير ارتفاعها ستة أذرع بالعمل، ومعها بئر ماء عمقها أربعون ذراعا، وقفت على السقاية بالقدس ولمنفعة المسلمين[٦]. ونصت وثيقة أخرى مؤرخة في سنة ٧٥٢هـ على وقف الحانوتين الكائنين بطريق الوكالة على مصالح الرباط الركني الصلاحي.

ولم تكن الأوقاف حكراً على المؤسسات الدينية الإسلامية، بل وجدت أوقاف للنصارى وقفوها على كنيسة القيامة أو البطركية، فالوثيقة رقم ٤٦ هو

(١) وتسمى الآن (بيرنبالا) وهي قرب القبيبة

(٢) *Van Berchem, corpus inscriptionum (Jerusalem)p. 214.*

(٣) السبكي تقي الدين التمهيد فيما يجب فيه التحديد ، ص ٣١

(٤) وثيقة رقم ٢٢ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس .

(٥) وثيقة رقم ٥٠ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس .

(٦) وثيقة رقم ٧٧ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس .

سند إيجار تاريخه ١٩ محرم ٧٤٧هـ، استأجر بموجبه الشقيقان داود بن نصر وأحمد بن نصر (حمام البطريرك) في القدس الشريف، من أوقاف البطركية المقدسية، بإيجار قدره ١٣ درهم فضة نقرة يومياً، عشرة دراهم أجرة الحمام وثلاثة لتنظيفه. واستلم المؤجر منهم سلفاً مبلغ ٣٠٠ درهم أجرة شهر كامل، ونصت وثيقة الإيجار أن على المستأجر نزح البركة من المياه[١]. وذكر مجير الدين الحنبلي ان اليهود امتلكوا كنيسا في القدس وأوقافا خاصة بهم[٢].

ومن الطريف أن هناك وثيقة رقم ٨٤ وقف صاحبها ممتلكاته على مصالح المسلمين، وهي ممتلكات بسيطة مشتمل على كمية من البرغل، وطراحه بوجه قدسي، وبساط، وعسلية بها قمح، وكوز من شحم مذاب[٣].

والوقف في الإسلام أدى خدمات دينية وإنسانية واجتماعية واقتصادية وثقافية كبيرة، وهو أسمي ما وصل إليه المجتمع الإنساني من تعاون وتآلف وتحابب. فمن جملة الأوقاف ذات النفع العام، ما ذكره ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري، فذكر أن الأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها منها: (أوقاف على العاجزين عن الحج)، تصرف لمن يحج عن هؤلاء العاجزين. ثم (أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهن)، يرصد ريعها للفتيات اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن للزواج، ومنها (أوقاف لأبناء السبيل)، وهم المنقطون عن بلادهم، فيعطون ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم. ومنها (أوقاف على تعديل الطريق ورصفها)، ترصد لرصف أزقة وشوارع مدينة دمشق حتى يسهل السير والمرور فيها[٤].

ومن الأوقاف الجديرة بالاهتمام ما سمي بدمشق (أوقاف الأواني)، فذكر

(١) وثيقة رقم ٤٦ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس.
(٢) الحنبلي، الأنس الجليل، ٢/٣٠١
(٣) يقة رقم ٨٤ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس.
(٤) ابن بطوطة، الرحلة ص ٩٩

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

ابن بطوطة انه شاهد مملوكاً سقط من يده صحفة من الفخار الصيني، فجمع شقفها وحملها لصاحب أوقاف الأواني، فدفع الناظر له ما اشترى به مثل ذلك الصحن (وهذا من احسن الأفعال فإن سيد الغلام لا بد له أن يضربه عن كسر الصحن أو ينهره، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب)[١] .

وحظيت الاوقاف في بيت المقدس باهتمام السلاطين المماليك، فعينوا من يشرف عليها ويعمرها ويحميها، فالظاهر بيبرس عند زيارته للقدس سنة (٦٦١هـ (١٢٦٢م) كشف احوال البلد وما يحتاج اليه المسجد الاقصى من العمارة. ثم نظر في الاوقاف، وكتب بحمايتها، ورتب خمسة آلاف درهم ، تصرف سنوياً برسم مصالح المسجد الأقصى[٢] ووقف عدة قرى بأعمال الشام والقدس، يصرف ريعها في ثمن خبز ونعال لمن يرد الى القدس من المشاة. ثم بنى خاناً خارج القدس وقفه لخدمة المسافرين والزائرين إلى المدينة المقدسة[٣]، وأعاد ترتيب السماط بمدينة الخليل، لإطعام زوار الحرم الخليلي[٤]. أما في سنة ٨١٢هـ(١٤٠٩) فقد زار السلطان فرج بن برقوق بيت المقدس وتصدق بخمسة آلاف دينار ذهباً، وبعشرين ألف درهم فضة على الأهالي والأوقاف[٥].

وجرت العادة أن يرسل السلطان كاشفاً لينظر في أحوال أوقاف بيت المقدس، وكان نظار تلك الأوقاف يجمعون له مبلغاً من المال، فبلغ هذا المال في سنة ٨٢٢هـ (١٤٧٧م) ١٢٠٠ دينار فجمعوا من أوقاف المسلمين ٩٠٠ دينار، و٣٠٠ دينار من أوقاف أهل الذمة[٦] .

(١) ابن بطوطة ، الرحلة ، ص ١٠٠
(٢) المقريزي، السلوك ، ١/ ٢/ ٤٩١
(٣) المقريزي، السلوك ، ١/ ٢/ ٥٢١
(٤) المقريزي، السلوك ، ١/ ٢/ ٥٠٥ ابن شاهين زبدة كشف الممالك، ص ٢٤.
(٥) المقريزي، السلوك ، ٤/ ١/ ١٠٨ أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ١٣/ ٨٩.
(٦) الحنبلي ، الأنس الجليل ، ٢/ ٣١٨ وانظر ص ٨٦٤.

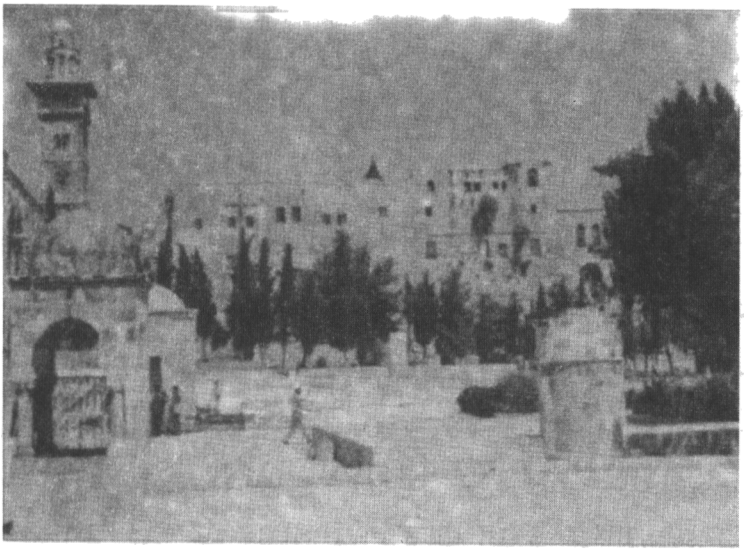

منظر لواجهة المدرسة الجاولية من الجهة الجنوبية

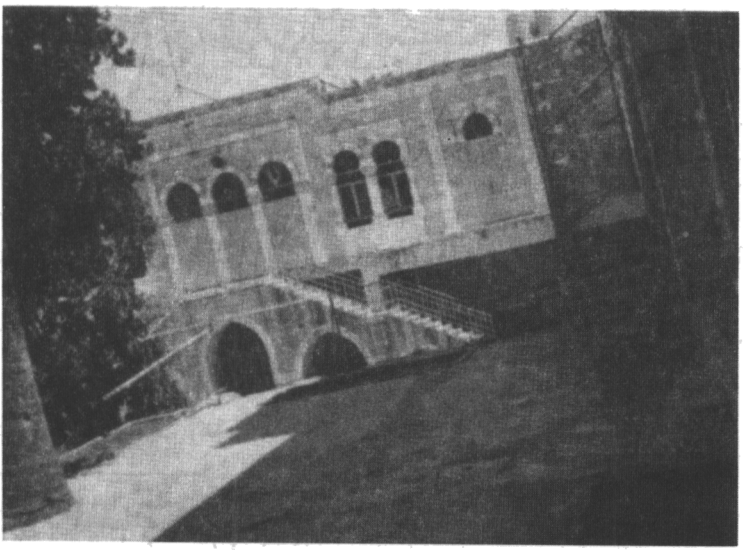

الساحة الداخلية في المدرسة الجاولية

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

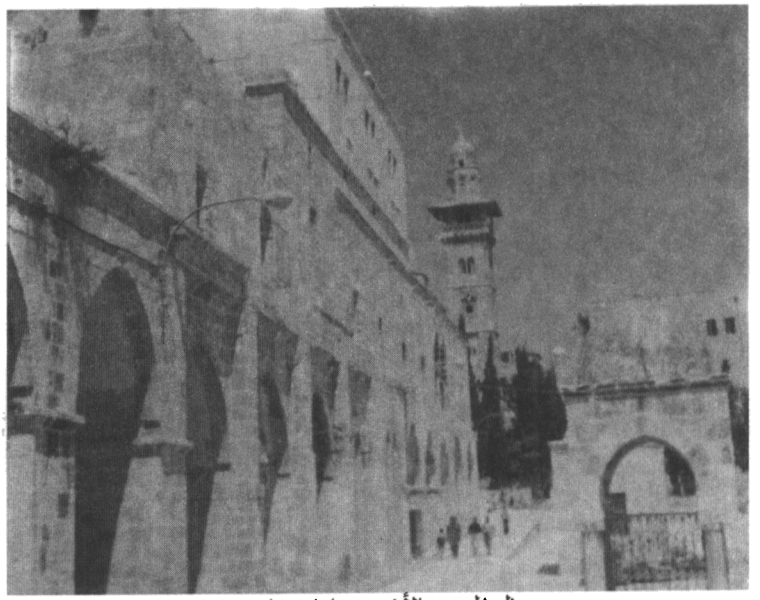

منظر المدرسة الأشرفية من الواجهة الشرقية

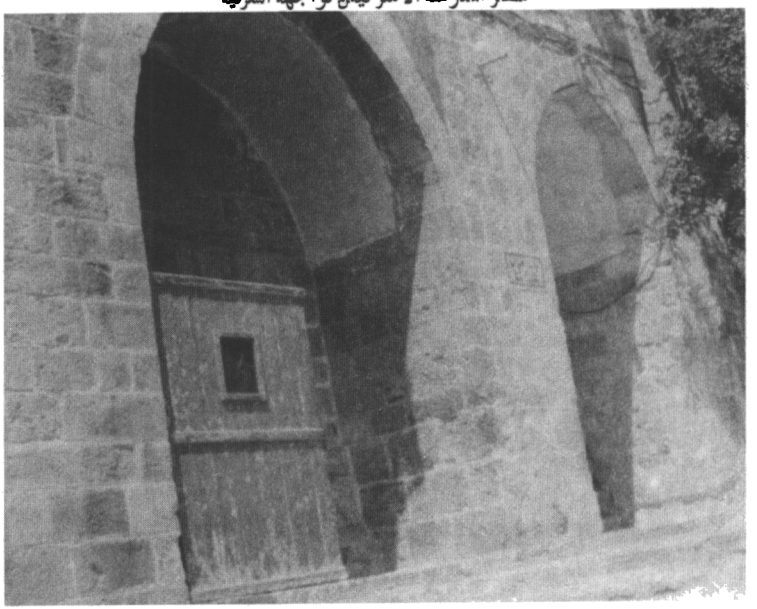

باب الغوانمة المؤدي إلى حارة الغوانمة

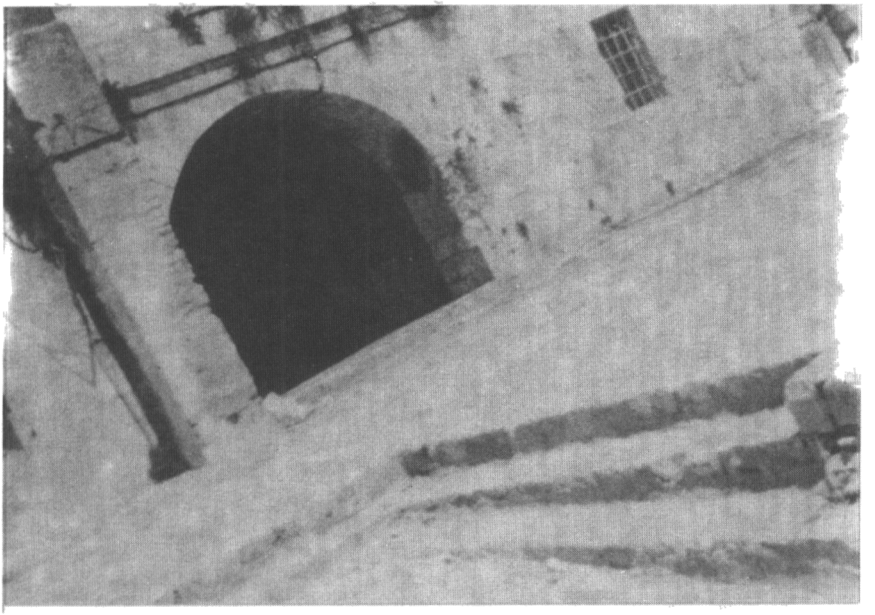

الخان السلطاني

بقايا دار الوكالة و الخان السلطاني في مدينة القدس الشريف

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

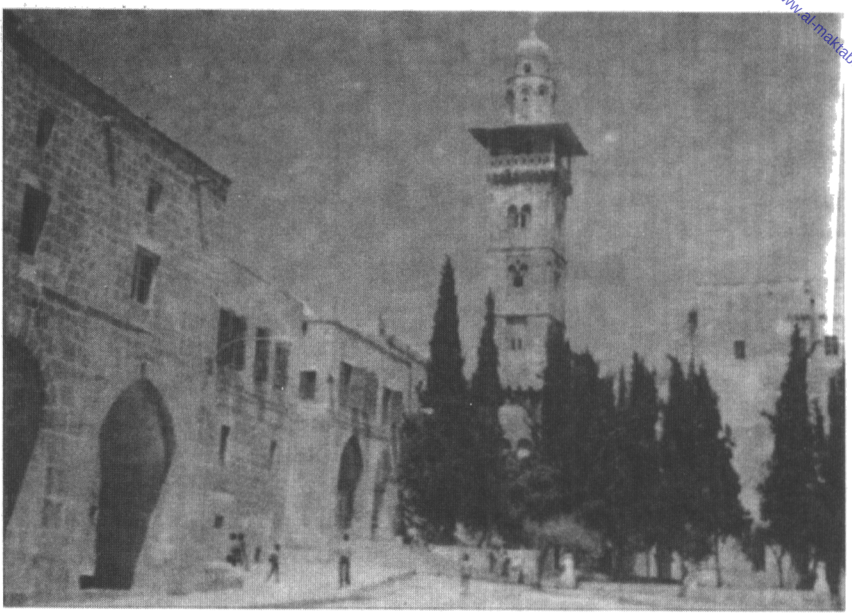

منارة الغوانمة و جزء من المدرسة الجاولية - باب الغوانمة ثم المدرسة المنجكية و المدرسة الحسنية

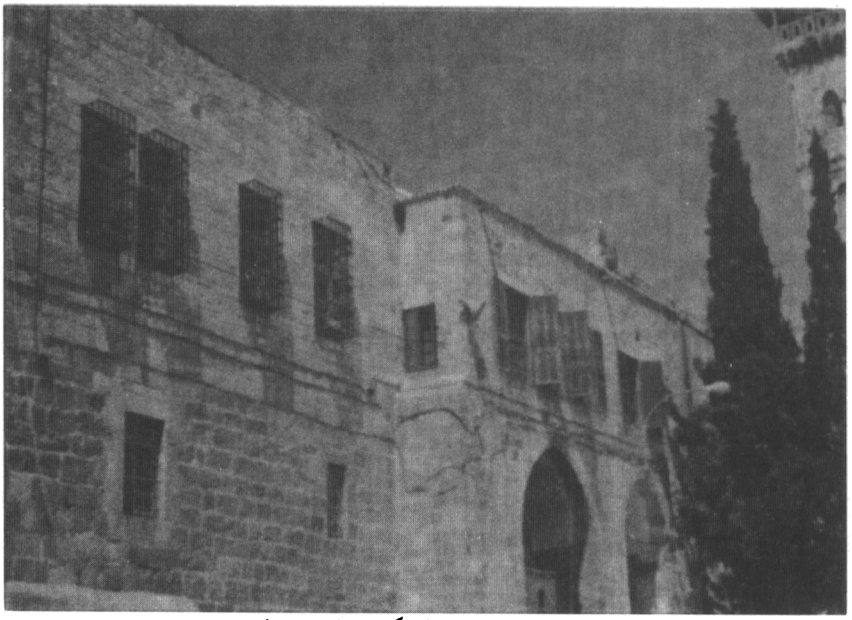

باب الغوانمة و المدرسة المنجكية و المدرسة الحسنية

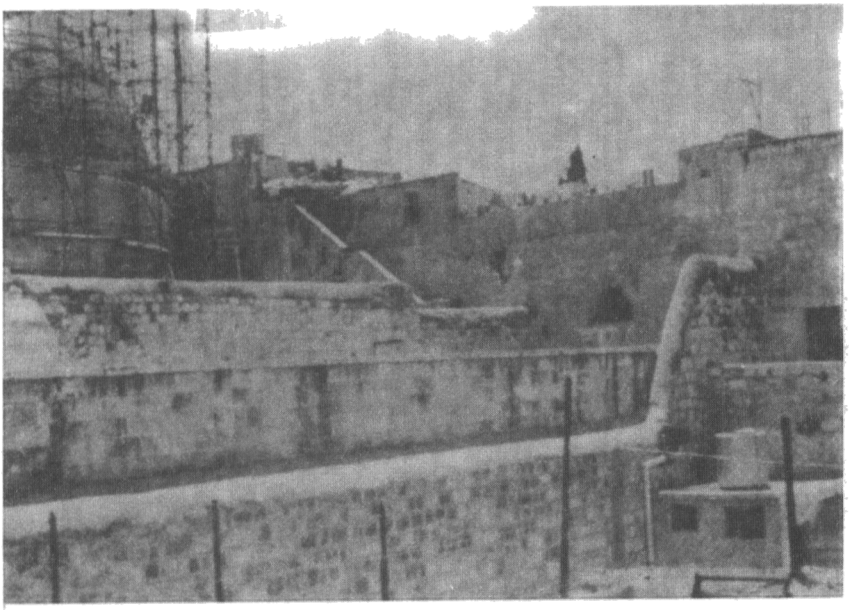

منظر يوضح الجدار الفاصل بين الخانقاة الصلاحية و كنيسة القيامة حيث تظهر قبة كنيسة القيامة

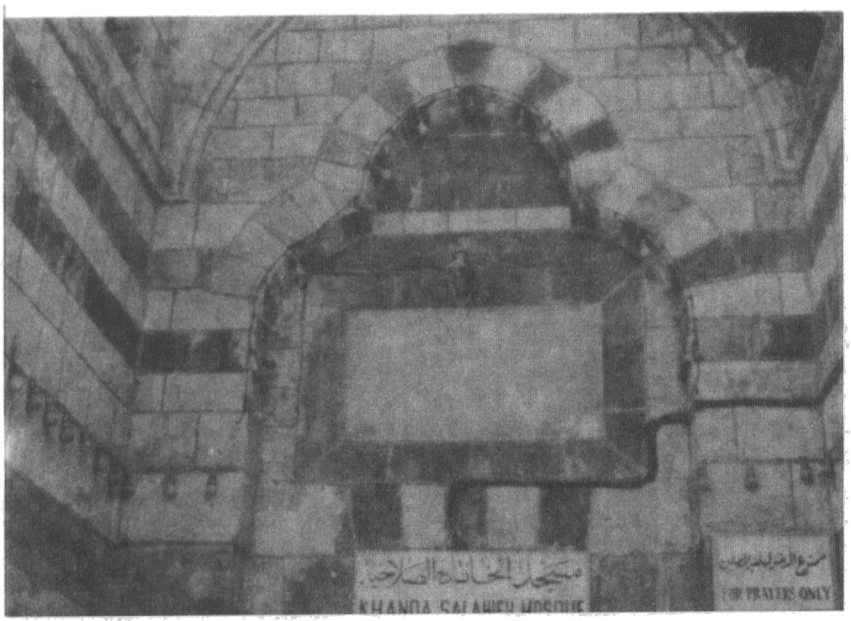

الجزء العلوي لواجهة مسجد الخانقاة الصلاحية

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

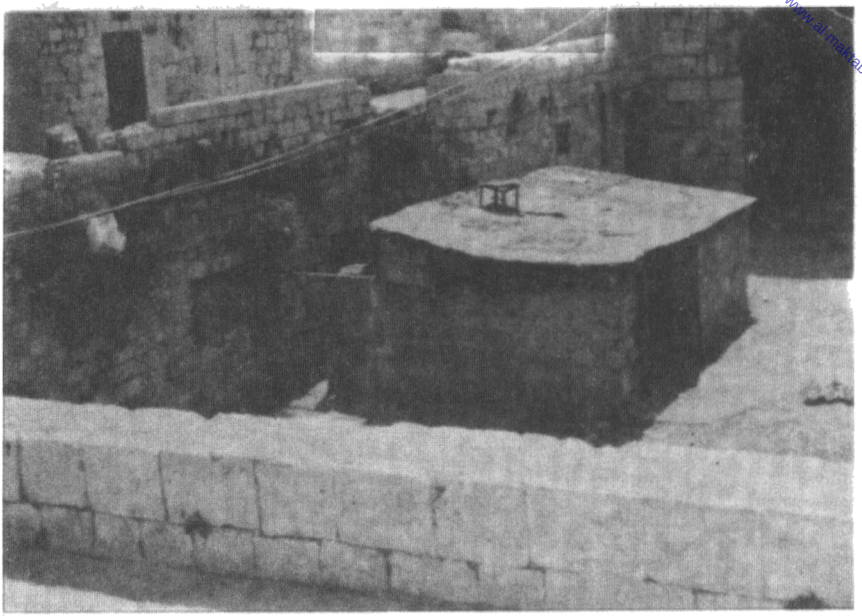

ساحة الخان السلطاني

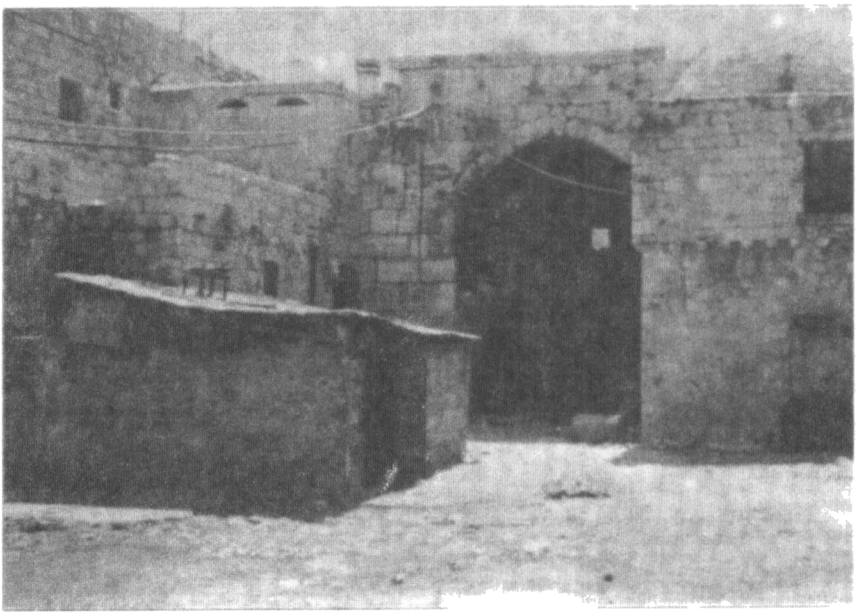

ساحة الخان السلطاني أو دار الوكالة

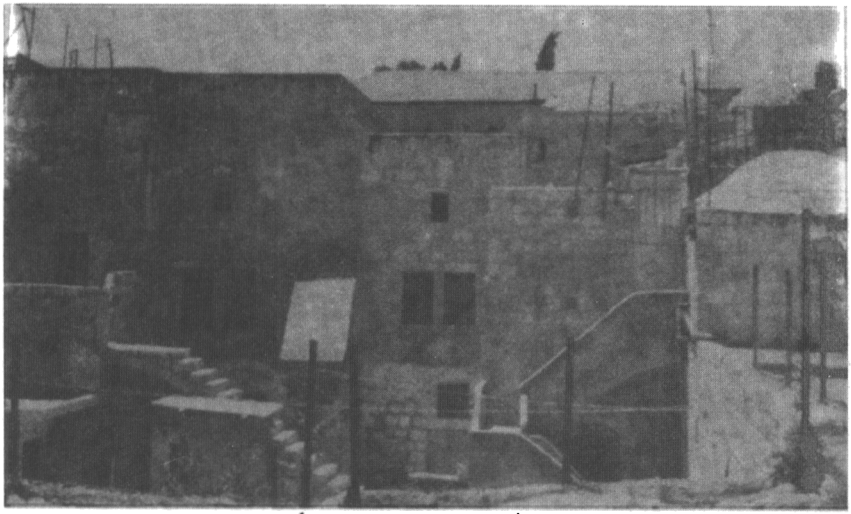

منظر الخانقاة الصلاحية مأخوذة من الجهة الشرقية (أي الواجهة الشرقية)

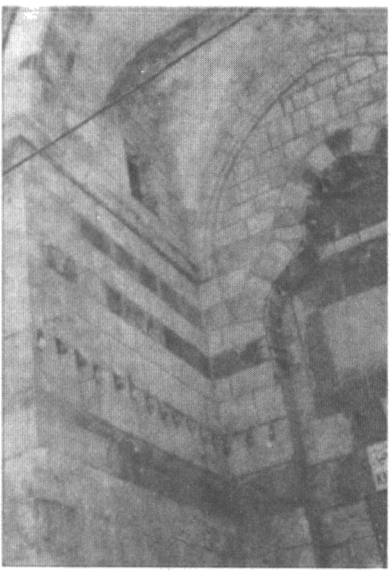

الجزء العلوي لواجهة مسجد الخانقاة الصلاحية - جهة الشرق

مئذنة جامع الخانقاة الصلاحية

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

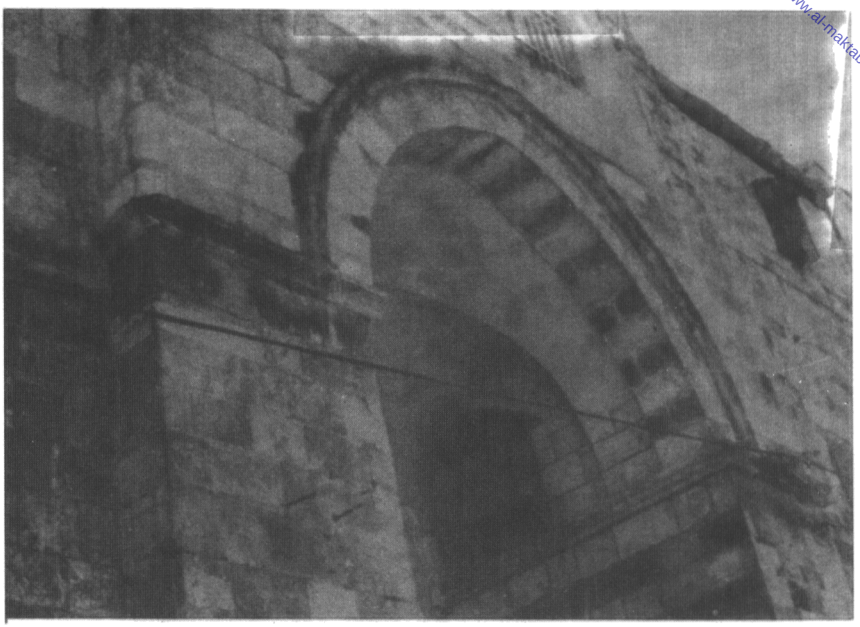

الجزء العلوي لواجهة مسجد الخانقاة الصلاحية

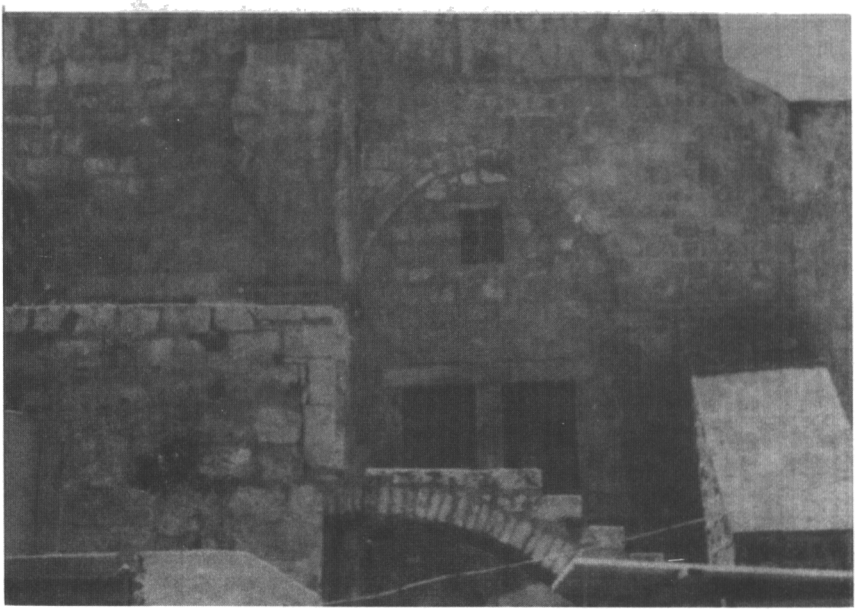

منظر آخر يوضح الخانقاة الصلاحية من جهة الشرق و يوضح العقود و الدعامات

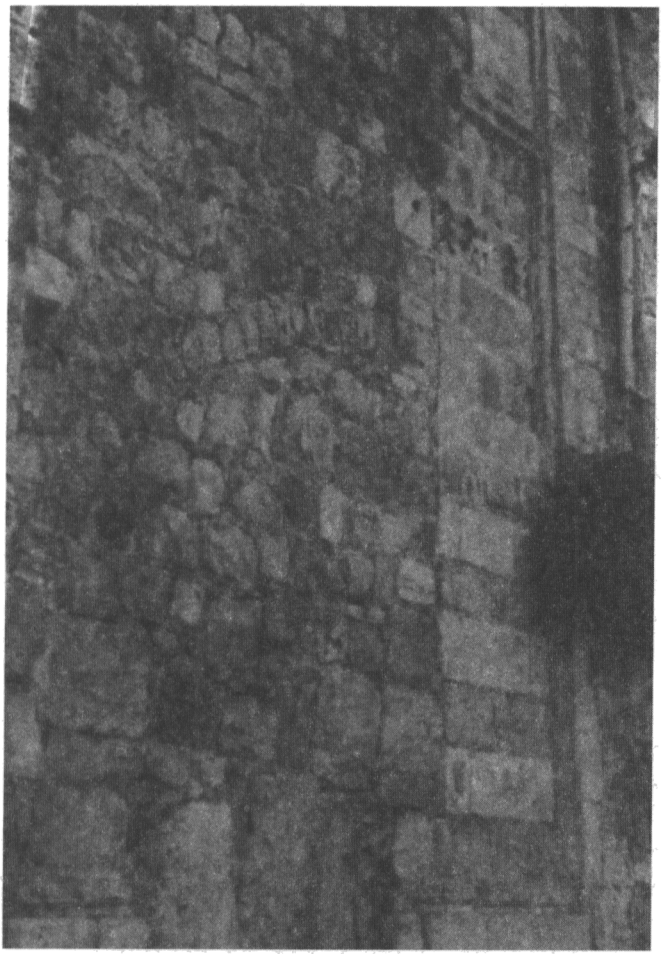

المدخل الرئيسي للمدرسة الجاولية من الجهة الشمالية يؤدي إلى طريق الآلام
(الباب المغلق)

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

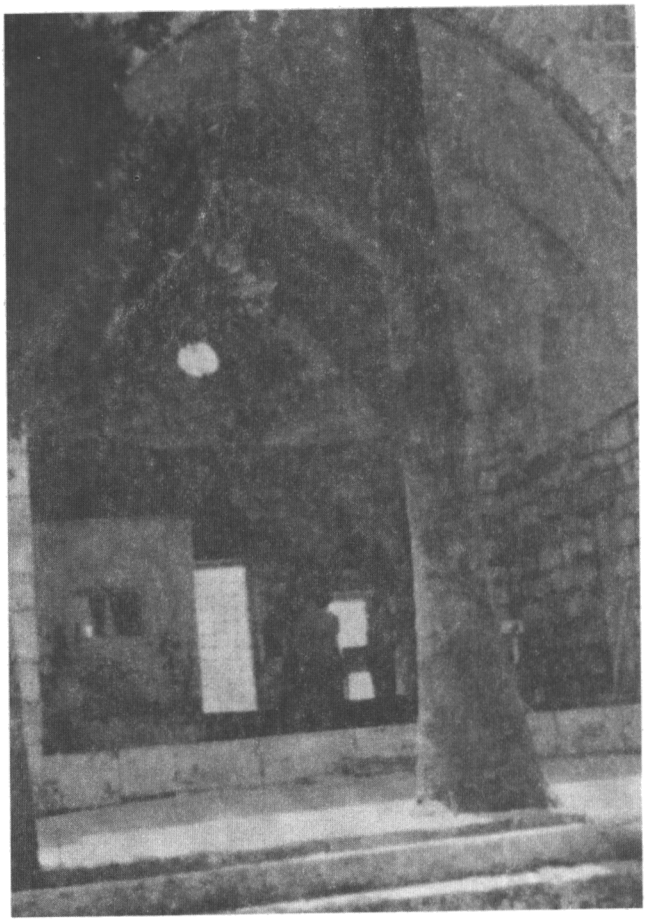

الإيوان الكبير في المدرسة الجاولية (دار الحكم)

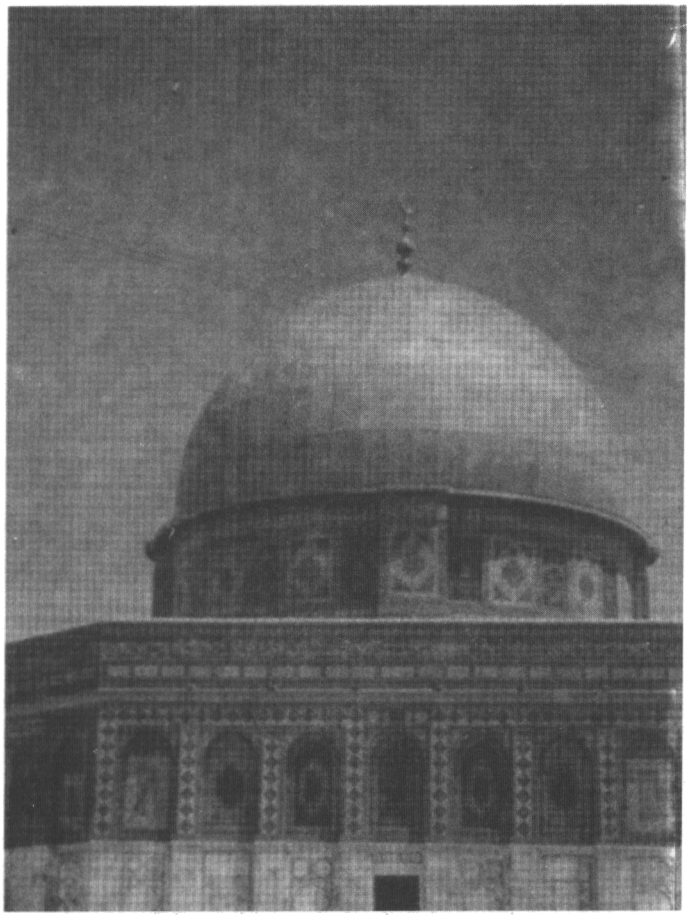

قبة الصخرة

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

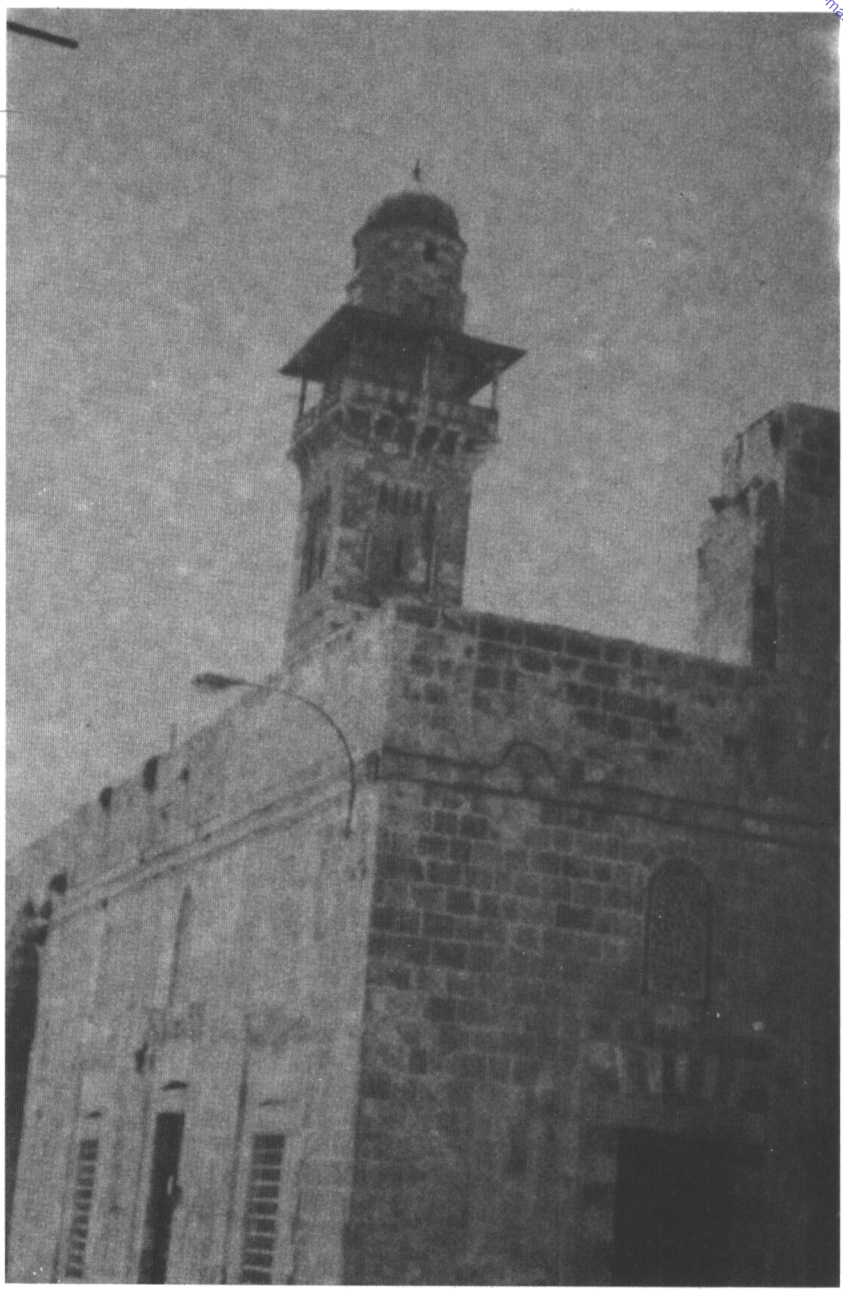

مئذنة المدرسة الأشرفية

البيمارستان الصلاحي

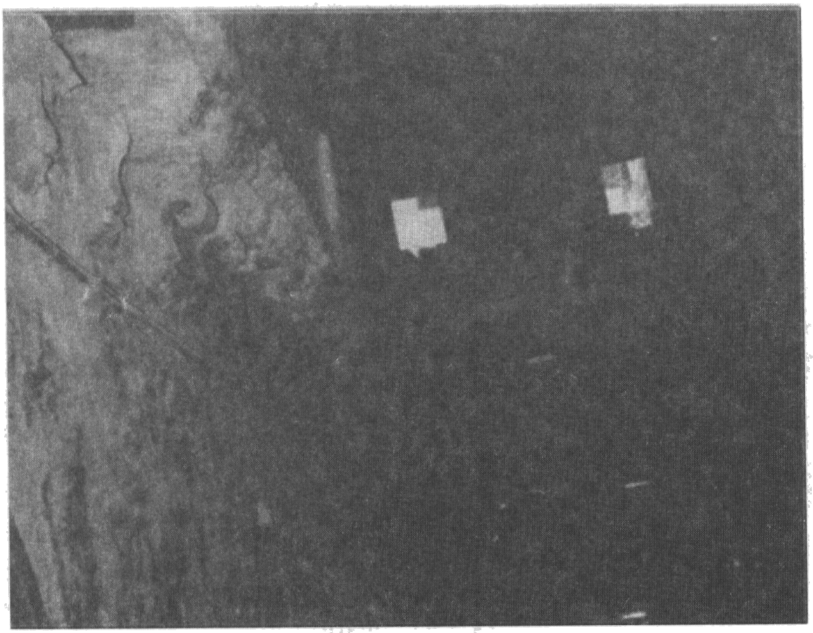

البيمارستان الصلاحي

http://www.al-maktabeh.com

http://www.ahmedkabeh.com

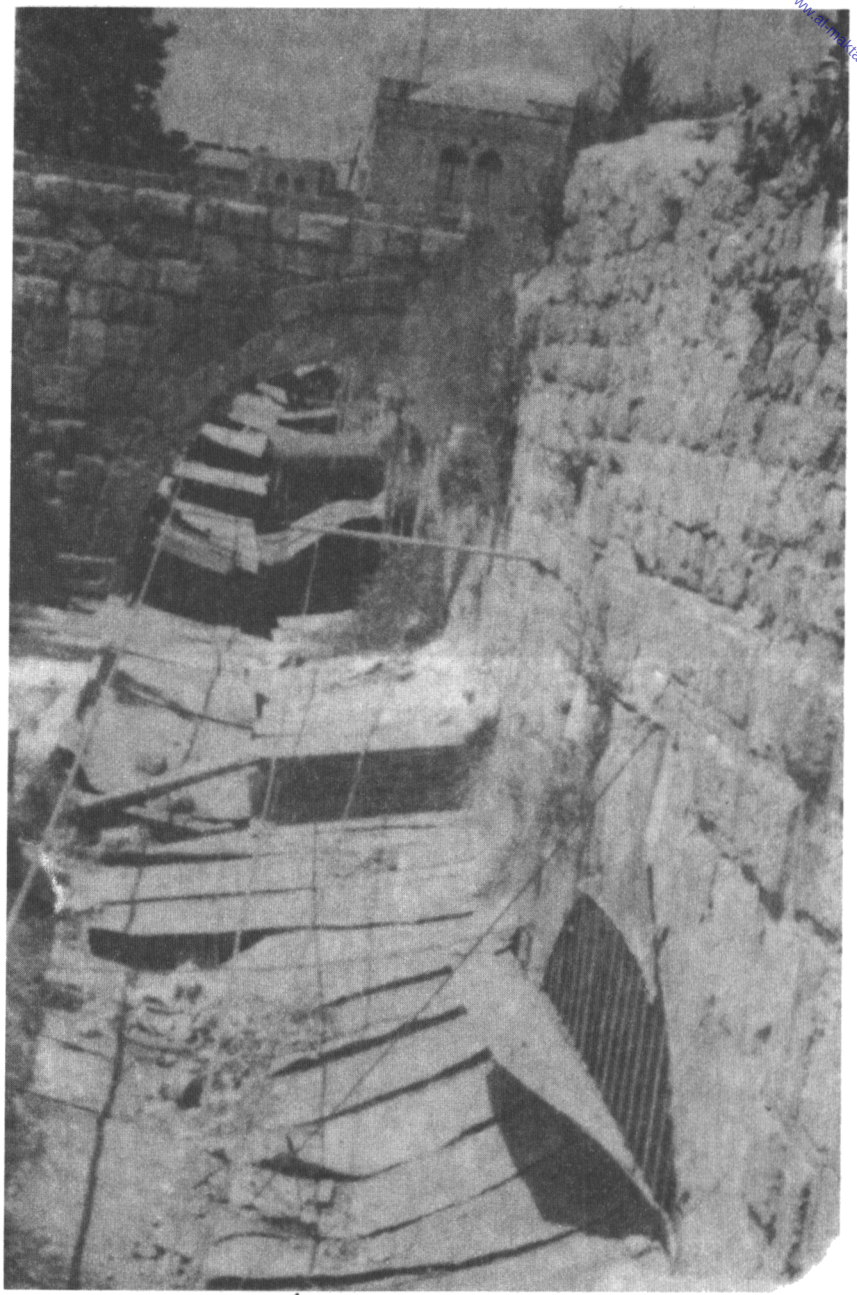

ابواب البيمارستان الصلاحي من الأعلى

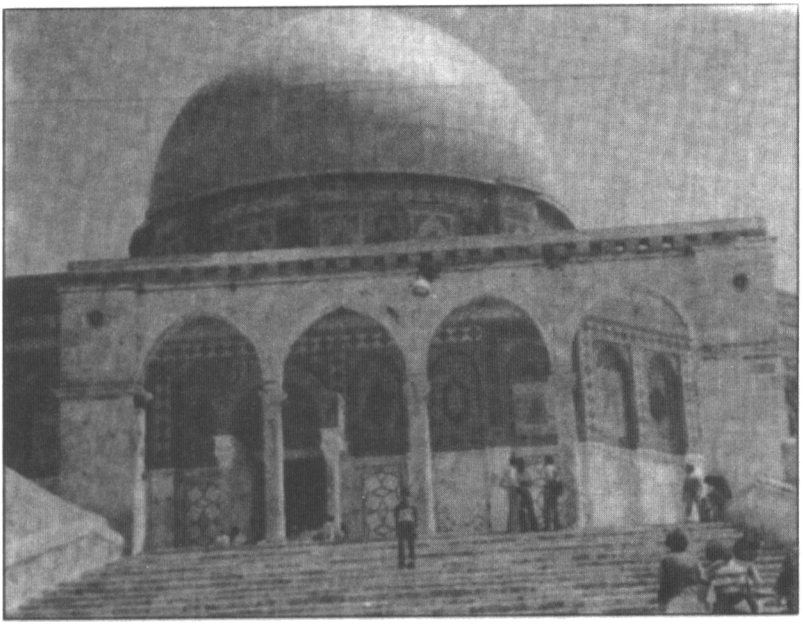

قبة الصخرة (الجهة الأمامية)

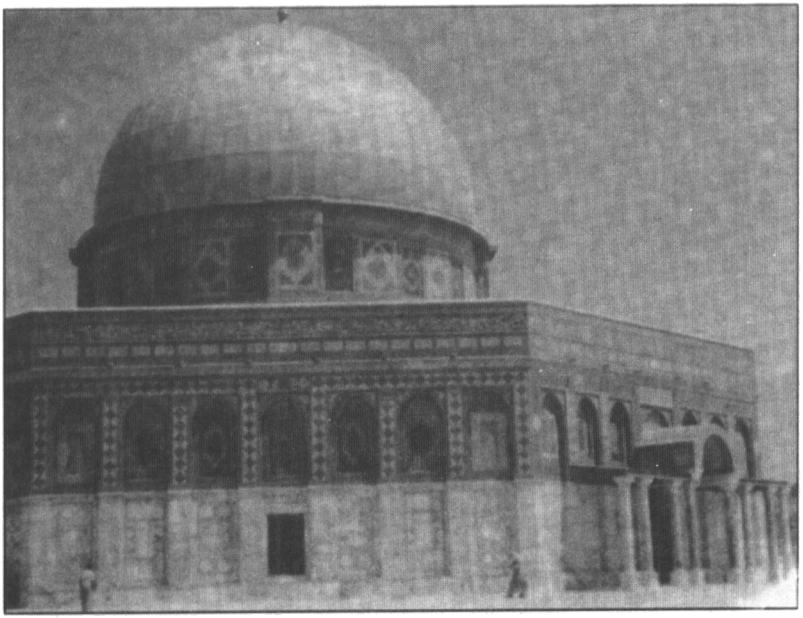

قبة الصخرة (الجهة الخلفية)

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

منظر من سطح المدرسة الجاولية يظهر فيه جزء كبير من القدس و القلعة

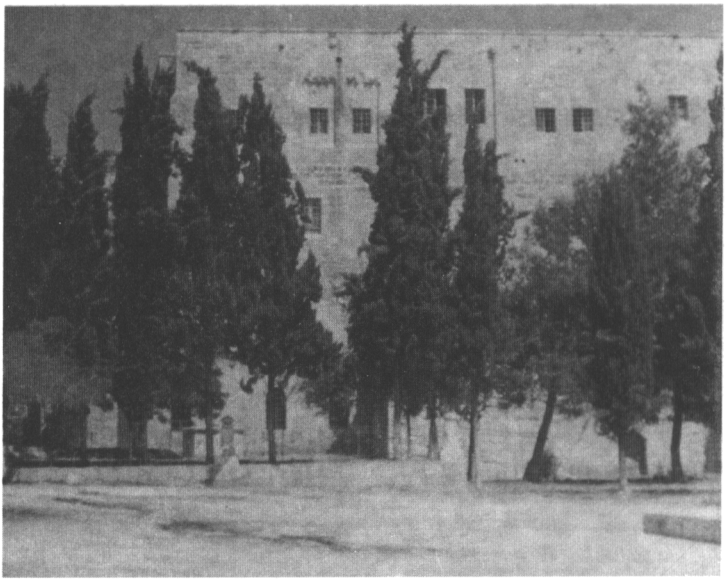

المدرسة الجاولية من جهة الجنوب داخل الحرم

الفصل الرابع: النشاط السكاني والمؤسسات الاجتماعية

١. الديمغرافية وعناصر السكان.

٢. الدور والحارات وطبغرافية المدينة.

٣. المؤسسات الاجتماعية في النيابة.

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(1) الديمغرافية وعناصر السكان

تدل الدراسات الديمغرافية ان سكان بيت المقدس بلغ في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ٢٠،٠٠٠ نسمة[١]، ثم ارتفع هذا العدد في القرن السادس الهجري (الثاني والثالث عشر الميلادي) فبلغ ٣٠،٠٠٠ نسمة[٢] . وبلغت مساحة المدينة المقدسة ٧٢٠ دونماً، فكثافتها السكانية اذن ٤٢ شخصاً للدونم الواحد[٣] . ومن الملاحظ ان الكثافة السكانية في بيت المقدس كانت في المرتبة الثانية بين المدن الفلسطينية بعد عكا التي بلغت كثافتها السكانية ٥٠ شخصاً للدونم الواحد[٤] .

وبلغ عدد السكان في المدينة المقدسة أوجه في القرن السابع والثامن الهجري (الثالث والرابع عشر الميلادي)، فبلغ سكان المدينة المقدسة آنذاك ٤٠,٠٠٠ نسمة، فكثافتها السكانية كانت ٥٦ شخصاً للدونم الواحد، وهي أعلى كثافة سكانية وصلتها المدينة المقدسة في العصور الوسطى.

ثم أخذت الكثافة السكانية في التدني، فبلغ سكانها في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ١٦,٠٠٠ نسمة، ثم تدنى إلى النصف، فبلغ في منتصف القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)[٥] ٨,٠٠٠ نسمة،

---

(١) ناصر خسرو ، سفرنامة ، ص ٥٦. لي سترانج ، ص ٩٩

(٢) *Benvenisti, The crusader in the Holy Land ,p.26.*

(٣) *Ibid., p. 26.*

(٤) *Ibid., p. 27.*

(٥) في نهاية القرن العاشر الهجري (١٦م) لم تكن الكثافة السكانية في المدن الفلسطينية عالية فدمغرافيتها كانت على الشكل التالي : صفد أكبر المدن الفلسطينية ١٢,٠٠٠ نسمة / القدس ٨٠٠٠ نسمة / غزة ٦٠٠٠ نسمة / نابلس ٤٣٠٠ نسمة / الخليل ٣٥٠٠ نسمة / كفركنا ٢٨٥٠ نسمة / مجدل ٢٨٠٠ نسمة / لد ٢٥٠٠ نسمة. أنظر : *Hutterothe & Abdulfattah, Historical Geography of palestine , 1977 , pp. 45, 52*

ثم أصبح في أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ٣,٠٠٠ نسمة، ثم أخذ في الصعود، ففي منتصف القرن ١٦م بلغ ٨,٠٠٠ نسمة، ثم أخذ في الهبوط مرة أخرى، ولكن سرعان ما عاد للارتفاع ثانية في العصر العثماني[١].

وقد تخلخل في الكثافة السكانية في فلسطين أثناء الغزوة الصليبية على بلاد الشام، فهجر السكان المدن الساحلية[٢]، أما الداخلية فهجرها بعض سكانها، ومع ذلك بقيت مأهولة بالعرب الوطنيين. وهذا التخلخل حدث في الرملة وبيسان والخليل، أما بيت المقدس ففقد الكثير من سكانه نتيجة للغزوة الصليبية، فالمصادر اللاتينية تذكر أن الفرنجة قتلوا في المدينة المقدسة عشرين ألفاً، بينما قدرت المصادر الإسلامية العدد بسبعين ألفاً[٣]. ولم يسمحوا بادئ الأمر لغير المسلمين بسكنى المدينة المقدسة، فأصبحت المدينة خالية من السكان، إذ أن الموجودين فيها لم يملأوا شارعاً واحداً من شوارعها[٤].

وازداد سكان بيت المقدس في العصر الأيوبي، ولكن الزيادة أقصاها في العصر المملوكي، فقد استقبلت المدينة المقدسة إعداداً من المهاجرين، من العراق والبلاد الشرقية الذين تركوا بلادهم أمام الضغط التتاري، فلاذوا بمدن الشام: حلب وحماه ودمشق والقدس الذي أستأثر بالعديد من هؤلاء المهاجرين[٥]. كما أن الاستقرار والهدوء الذي نعت به المدينة المقدسة كغيرها من مدن بلاد الشام جعلها تنعم بدرجة من الثروة والازدهار والأمن[٦]. ثم للأهمية الخاصة التي أولاها إياها السلاطين المماليك، زادها نمواً وعمراناً،

---

(١) *Ibid, P.45, 52.*

(٢) *William of Tyre, Vol. I. P. 246*

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٨/١٨٩. *fulcher of Chartres, A History of the expedition to Jerusalem New york, 1973, p. 121 Benvenisti, op. cit., p/ 146.*

(٤) *William of Tyre, vol. I, p. 507.*

(٥) السلوك، ٤/٢/٦١١، ١٠٢٩ ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ٣/٦١.

(٦) *Lapidus , op. cit ., p. 16.*

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

فانعكس ذلك على كثافتها السكانية فبلغ سكان القدس ٤٠,٠٠٠ نسمة ، وهو أعلى رقم وصلته في تاريخها الوسيط.

ولكن الكثافة السكانية أخذت في الهبوط منذ منتصف القرن الثامن الهجري (النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي)، فقد أصاب الشام بل العالم كله ما عرف في المصادر القديمة بالفناء العظيم (الطاعون)[١]، وأفنى هذا الطاعون أعدادً كبيرة من بلاد الشام، وبادت مدن بأكملها مثل اللد والرملة وجنين[٢]. فالنمو السكاني في النصف الثاني من القرن الرابع عشر اقترب من التوقف، ليس في بلاد الشام ومصر فحسب بل في العالم كله[٣]. وقد شاهد ابن بطوطة ما فعله الوباء في مدن بلاد الشام، كدمشق التي كانت تفقد يومياً ألفي شخص[٤]، أما غزة ففقدت معظم سكانها. وتسبب الوباء في موت أعداد كبيرة من سكان بيت المقدس، ومنذ ذلك الحين أخذت الكثافة السكانية في بيت المقدس في تدني، حتى بلغت اشدها في أوائل القرن العاشر الهجري (أوائل السادس عشر الميلادي) .

ومما ساعد على تخلخل الكثافة السكانية في فلسطين خاصة وبلاد الشام عامة الحروب والقحط والجفاف التي ضربت المنطقة في أوائل القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي). فالمقريزي يذكر أن تيمورلنك خرب الشام وقتل من أهلها ما لا يحصى عدده (بحيث أقامت القدس مدة إذا أقيمت صلاة

(١) وبسبب هذا الطاعون فقدت فرنسا ٣/ ٤ سكانها ، وإيطاليا نصف سكانها وإلمانيا فقدت مليون وربع شخص، والطاعون الذي اجتاح أوروبا في القرن الرابع عشر كل عشر سنوات منع النمو السكاني *Nohl, The Black Death , London , 1924, p. 40*

(٢) المقريزي : السلوك ، ٢/ ٧٧٤ يوسف غوانمه : تاريخ شرقي الأردن ،القسم السياسي ، ص ٢٦٩، ٢٧٠

(٣) *Lopez R. The commercial revolution, in the Middle ages , USA 1976,p.29*
Kedar, Merchants in cristi, Yele , USA 1976, pp.1, 5

(٤) ابن بطوطة : الرحلة ، ص ٩٦.

الظهر بالمسجد الأقصى لا يصلي خلف الأمام سوى رجلين[١]. ويذكر المقريزي أيضاً في سنة ٨٢٥هـ(١٤٢١م)، إن القحط والجدب أصاب حوران والكرك والقدس والرملة وغزة لعدم نزول المطر، ونتج عن ذلك نزوح كثير من سكان هذه البلاد عن أوطانهم[٢].

ومنذ عام ٨٣٣هـ (١٤٢٩م) عاد الطاعون مرة أخرى للمنطقة فأصاب غزة والقدس والرملة وصفد ودمشق، وحمص وحماة وحلب ، وهلك فيه خلائق لا تحصى عددها[٣]. ويقول المقريزي في حوادث هذه السنة، إن الوباء والنزلات فتكت بالناس إذ كانت (تنحدر من الدماغ إلى الصدر فيموت الإنسان في اقل من ساعة بغير تقدم مرض، وكان اكثر هذا في الأطفال والشباب)[٤] ولعل هذا الوباء الذي وصفه المقريزي هو نوع من أنواع الحميات القوية التي كانت تفتك بالناس بهذا الشكل الخطير[٥]. ثم عاد الوباء مرة أخرى فضرب المنطقة في سنة ٨٤١هـ (١٤٣٧م) فمات من جرائه خلق كثير، في دمشق وغزة والرملة والأغوار[٦].

وهكذا نرى أن بيت المقدس نتيجة للطاعون الذي أصاب المنطقة والعالم كله في منتصف القرن الثامن الهجري (منتصف الرابع عشر الميلادي)، فقد نصف سكانه، أي ما يقارب ٢٠،٠٠٠ نسمة، ثم أخذت الديمغرافية تتدنى في بيت المقدس وفلسطين نتيجة للغزوة التتارية المدمرة بقيادة تيمورلنك سنة٨٠٣ هـ (١٤٠٠م)[٧]وزاد في تدنيها القحط والجفاف الذي أصاب المدينة المقدسة

(١) السلوك ، ٤/ ١/ ٢٢٥

(٢) المصدر نفسه ، ٤/ ١/ ٦٠٩، ويقول *Lopez* أن من العوامل الهامة في عدم تزايد السكان العوامل الطبيعية كالطقس وكثرة الأمراض وانتشارها *(Lopez. Op.cit .,p. 29)*

(٣) السلوك ، ٤/ ٢/ ٨٢٢، ٨٣٦ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ١٤/ ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤٨

(٤) المقريزي: السلوك ، ٤/ ٢/ ٨٢٤.

(٥) وربما كان هذا الوباء هو ما نسميه اليوم بالحمى الشوكية.

(٦) السلوك ، ٤/ ٢/ ١٠٢٩ ، ١٠٣١، ١٣٠٤

(٧) السلوك ، ٤/ ١/ ٢٢٥.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

والمناطق المجاورة سنة ٨٢٥هـ(١٤٢١م) بحيث هجرها كثير من سكانها[١]. أضف إلى ذلك الطاعون والوباء (الحمى) التي داهمت القدس والعديد من المدن الشامية سنة ٨٣٣هـ (١٤٢٩)، و ٨٤١هـ (١٤٣٧م) أدى إلى هلاك خلائق لا يحصى عددها[٢]. ونتيجة لذلك فقد القدس نصف سكانه، فأصبح عدد السكان في منتصف القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ٨٠٠٠ نسمة. وفي أواخر القرن التاسع الهجري أصاب الطاعون بيت المقدس في السنوات ٨٧٣هـ (١٤٦٨م)، ٨٨١هـ (١٤٧٦م) و ٨٩٧هـ (١٤٩١م) وأفنى ثلثي سكانه أي حوالي ٥٠٠٠ نسمة[٣]، ففي أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، لم يبق في القدس سوى ٣٠٠٠ نسمة[٤]. ثم بدأت الديمغرافية في الصعود، حيث بلغت في منتصف القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ٨٠٠٠ نسمة[٥].

وكان سكان بيت المقدس أخلاطاً من مسلمين ونصارى ويهود، أما النصارى فكانوا يشكلون نسبة كبيرة في زمن المقدسي، وأضاف أنهم أصحاب السلطة في البيت المقدس[٦]. وذكر ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) عن وجود النصارى واليهود في بيت المقدس، وان أعداداً كبيرة منهم تأتي من ديار الروم لزيارة الكنيسة والكنيش[٧]وقد ازداد عدد

(١) السلوك ، ٤/٢/٦٠٩

(٢) السلوك ، ٤/٢/ ٨٢٢، ٨٢٤، ٨٣٦، ١٠٢٩، ١٠٣١، ١٠٣٤. النجوم الزاهرة ن ١٤/ ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤٨

(٣) وقد استنتجب ذلك من خلال دراسة قمت بها لعدد الوفيات في بيت المقدس في لهذه السنوات أنظر : الأنس الجليل ، ٢/٢٨٦، ٣١٨، ٣٦١.

(٤) *Hutteroth, op cit ., pp. 54, 52*

(٥) *Ibid ., p. 52.*

(٦) المقدسي ، التقاسم ، ص ١٦٧ لي سترانج ، ص ٩٧، ٩٨

(٧) ناصر خسرو ، سفرنامة ، ص٥٥

السكان النصارى بعد الغزوة الصليبية لبلاد الشام واحتلال المدينة المقدسة، فقد قتل الصليبيون الآلاف من سكان القدس المسلمين، كما هجره أعداد من سكانه العرب النصارى. فوليم الصوري يقول: أن مواطني المدينة من السوريين (السريان) كانوا في تناقص نتيجة للمحن والمصائب حتى أن عددهم لم يكن شيئاً في المدينة[١] . وشجع الصليبيون أيضاً هجرة النصارى الوطنيين إلى القدس، فتذكر المصادر ان قسما من نصارى شرقي الأردن في وادي موسى والبلقاء وعمان نزحوا إلى القدس[٢]، بعد أن طلب الفرنج منهم ذلك بالإغراء والإكراه ووعدوهم بحياة أفضل، واستقبلوهم مع زوجاتهم وأولادهم وقطعانهم[٣] . وخصص لهم هناك حي عرف (بمحلة المشارقة) ، لأنهم قدموا من منطقة البلقاء الواقعة شرقي القدس. وبعد تحرير بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) عاد السكان المسلمون للقدس فزادت نسبتهم في العصر الأيوبي ومن ثم في العصر المملوكي، حتى اصبحوا يشكلون نسبة ٧٠-٨٠٪ من السكان[٤].

ونصارى بيت المقدس كانوا في معظمهم من اصل عربي، بجانب عدد من نصارى الفرنج من دول أوروبا المختلفة والأحباش[٥]. أما أهم الطوائف المسيحية التي وجدت في القدس في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) : اللاتين، والسوريون (السريان)- والمقصود بهم طائفة اليعاقبة، والارمن واليونان (الأرثوذكس) والنساطرة- ثم الهنود والأحباش،

(١) *William of Tyre , Vol. 1,p. 507*

(٢) القفطي: أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٢٤٨. يوسف غوانمة ، تاريخ شرقي الأردن القسم الحضاري، ص ١١٥، وعمان حضارتها وتاريخها ، ص ١٨٤ وانظر الأنس الجليل ٢/ ٥٤.

(٣) *William of Tyre .Vol . l. p. 507 Rey, les colonies, p. 77.*

(٤) *Benvenisti op . cit . p. 215.*

(٥) ناصر خسرو ، ص ٧٠ . أبن طولون، مفاكهة الخلان ، ١/ ٣٩ ، ٢/ ٥ *Benjamin, Early Travels in Palestine p. 83 .*

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

والجيورجيون[١]. وقدر الرحالة فيلكس فابرى عدد النصارى في القدس سنة ٨٨٨هـ (١٤٨٣م) بألف شخص[٢].

وقد حظي النصارى العرب (الملكانية) واليعاقبة القبط في نيابة بيت المقدس بالتسامح والمعاملة الحسنة، فمارسوا طقوسهم الدينية في حرية تامة. ثم ان السلطان فرج بن برقوق سمح للنصارى في سنة ٨١٣هـ (١٤١٠م) بناء كنيسة فأحضروا الاخشاب من اوروبا لاجل ذلك، ونقلوها من يافا الى بيت لحم[٣]. وفي سنة ٩١٩هـ (١٥١٣م) اصدر السلطان قانصوه الغوري مرسوماً نقشه على بلاطة الصقها على باب كنيسة القيامة أمر فيه معاملة النصارى الملكانيين واليعاقبة والقبط معاملة حسنة، وألغى ما كان يؤخذ منهم من رسوم عند دخولهم كنيسة القيامة، أو عند دخولهم إلى فلسطين عن طريق يافا أو غزة. ونقل إلينا برشيم نص هذا المرسوم كما يلي:

بسملة... المرسوم بالأمر الشريف العالي المولولي السلطاني الملكي الأشرفي السيفي اعلاه الله تعالى وشرفه وانفذه وصرفه ان لا يكرهوا جماعة الرهبان النصارى والرهبانيات الملكيين واليعاقبة بموجب ولا بخفر ولا بظلم عند دخولهم قمامة القدس الشريف أسوة رهبان الكرج والحبوش ولا عند دخولهم الى مينا يافا ولا عند خروجهم من يافا ولا في مدينة غزة ولا في رملة لد الواردين من الرهبان والرهبانيات من المذكورين في البر والبحر، وكل ناحية لزيارة بيت المقدس مستمر حكم ذلك من تقادم السنين من غير إحداث حادث ولا تجديد مظلمة ومنع من يتعرض إليهم بسبب ذلك أو في كمنيرهم (؟) وهي

(١) *Rey, les colonies pp. 76-77.*

(٢) نقولا زيادة ، فيلكس فابري في فلسطين بحث ألقي في المؤتمر الثالث لبلاد الشام ، عمان ١٩٨٠م ص ٩

(٣) المقريزي ، السلوك ، ٤/ ١/ ١٤٣، ١٤٤.

تربتهم التي يدفنوا بها، ولا يتعرض أحد إلى موتاهم ولا لنوابهم، ومسامحة الرهبان والرهبانيات من طائفة الروم والقبط من الموجب بالأعمال المذكورة في البسط والموسم على جاري عادتهم، ومنع من يعارضهم في ذلك حملاً في ذلك على ما بيدهم من المربعات الشريفة السالفة والمربع الشريف الأشرفي الذي بيدهم عند أنهم إنهائهم رهبان وأهل ذمة ومنقطعين، وأن بيدهم عهدات وسجلات ومربعات شريفة شاهدة لهم بذلك، وسألوا كتابة هذا المرسوم الشريف بذلك جميعه وأن ينقش شرح ذلك برخامة وتلصق بباب القمامة وليصير ذلك تذكرة بعدل مولانا المقام الشريف عزّ نصره على ممر الدهور والأيام صدقة عليهم عند تمثّل القس صفرونس (؟) الراهب الملكي ورفعته لدى المواقف الشريفة، فرسم لهم بذلك بمقتضى القصة المرفوعة عن الرهبان والرهبانات المشمولة بالحظ الشريف حسب الأمر الشريف شرفه الله تعالى وعظمه بتأريخ اليوم المبارك التاسع من شهر الله المحرم الحرام سنة تسع عشرة وتسعمائة والحمد لله وحده مصلياً ومسلماً على من لا نبي بعده[١].

وسكن النصارى الأديرة والكنائس العديدة في المدينة المقدسة وبيت لحم والتي بلغت عشرين كنيسة، أكبرها كنيسة القيامة التي كانت تتسع لثمانية آلاف شخص[٢]. ووجد في بيت المقدس حارة سميت بحارة النصارى بجانب باب الخليل[٣].

أما اليهود فكانوا قلة في العصر الإسلامي، ففي القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وجد في بيت المقدس عدد من اليهود، كما وجد فيها كنيس (كنيش)، وكان اليهود يأتون لزيارة بيت المقدس من أنحاء متفرقة من

(١) *Van Berchem . corpus inscriptionum (Jerusalem).p.379*

(٢) ناصر خسرو ص ٧٥

(٣) الأنس الجليل ، ٢/٥٣

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

العالم[١]، وسكنوا في حارة خاصة أطلق عليها (حارة اليهود)[٢]. وفي فترة الاحتلال الصليبي لبيت المقدس تعرض اليهود لتعسف الفرنج فهجروا المدينة المقدسة ومعظم أنحاء فلسطين[٣]، وامتد تعسف الفرنج لمقابر اليهود، فدمروا مقابرهم الثلاثة، واستخدموا حجارتها في بناء بيوتهم[٤]. وفي منتصف القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، قدم الرحالة بنيامين اليهودي الاندلسي *Benjamin of Tudelu* الى فلسطين، وزار معظم مدنها وقدم لنا احصائية ديمغرافية لليهود. فوجد في بيت جبريل ثلاثة يهود و١٢ يهودياً في بيت لحم، وفي الرملة ٣ يهود، وفي يافا يهودي واحد، وفي عسقلان ٢٠٠ يهودي، وفي طبرية ٥٠ يهودياً. اما بيت المقدس ونابلس فلم يجد فيهما يهودياً واحداً، وكانت دمشق آنذاك تمثل اكبر تجمع يهودي في بلاد الشام، فوجد فيها ٣٠٠٠ يهودي[٥]. ثم بدأ اليهود يتسللون إلى المدينة المقدسة بعد تحريرها من الفرنج، وزاد عددهم في العصر المملوكي، وامتهنوا التجارة والصياغة والدباغة كعادتهم[٦]، ولم يكن عددهم كبيراً ففي القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) كانوا زهاء ٥٠٠ يهودي فقط[٧]. ولكنهم تمتعوا بنفوذ قوي بسبب ما

(١) ناصر خسرا ، ص٥٥

(٢) الأنس الجليل، ٢/ ٥٢، ٥٦

(٣) *Martin e. The crusades p. 127.*

(٤) *Benjamin Early Travels in Palestine pp. 81.82.84.*

(٥) وذكر عزرا حداد في ترجمته لكتاب بنيامين أن عدد اليهود في القدس آنذاك *Ibid ., p. 91* ٢٠٠ يهودي. إلا أن براور Prawer يذكر أن هذا العدد ذكر في بعض نسخ مخطوطة بنيامين، والأصح أن اليهود كانوا أربعة أشخاص فقط. ولكن الرحالة اليهودي بتاحيا الراتسبوني Patachia of Ratisbone يقول بأنه لم يجد في القدس يهود عندما زارها قبيل تحريرها من قبل صلاح الدين إلا يهودي واحد اسمه الربى إبراهيم. (انظر براور، عالم الصليبيين، ترجمة قاسم عبده ومحمد خليفة، القاهرة ١٩٨١، ص١١٤).

(٦) *Ibid., pp. 85-87.* الأنس الجليل ، ٢/ ٣٠٥

(٧) نقولا زيادة ، فيلكس فابري في فلسطين ، ص ٩

لديهم من ثروات طائلة، ففي سنة ٨٧٨هـ(١٤٧٣م) حدث نزاع بين اليهود والمسلمين حول كنيس اليهود الموجودة في حارتهم، فقد ثبت لدى القضاة أن الكنيس محدث في دار الإسلام، فأغلقوه ومنعوا اليهود من التعبد فيه[١]. ولكن اليهود في بيت المقدس بزعامة كبيرهم يعقوب، ورفعوا أمرهم للسلطان في القاهرة، فأمر السلطان بعض العلماء في القاهرة النظر في هذا الأمر وحدث خلاف في الرأي بينهم وبين قاضي الشافعية في بيت المقدس الذي منع اليهود من كنيسهم. إلا إن السلطان أرسل مرسوماً في سنة ٨٧٩هـ (١٤٧٤م) إلى ناظر الحرمين ناصر الدين بن النشاشيبي بتمكن اليهود من كنيسهم، وعدم معارضتهم، فمكنوا منه[٢]. وقد أشيع في بيت المقدس أن اليهود بذلوا مبلغاً كبيراً من الدنانير المصورة إلى الخزائن الشريفة حتى مكنهم من كنيسهم[٣]. ولما ورد ذلك لمسامع السلطان، أمر إعادة النظر في الأمور والتحقق من مسألة الكنيس. فعقد القضاة مجلساً آخر في المدرسة التنكرية وكان رأي شيخ الإسلام كمال الدين بن أبي شريف أن لا وجه لمنع اليهود من كنيسهم بغير مسوغ شرعي، وان من شهد بحدوث الكنيس في دار الإسلام عليه أن يثبت ذلك بسند شرعي[٤]. إلا أن القاضي الشافعي تمكن من إثبات وجهة نظره بالشهود، واصدر أمره بمنع اليهود من كنيسهم مرة أخرى. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل توجه بعض العلماء إلى الكنيس وأمروا بهدمه فهدموا غالبه، فتوجه اليهود للسلطان في القاهرة للشكوى[٥]. فأرسل السلطان الأشرف قايتباي مرسوماً بإلقاء القبض على القاضي الشافعي وبعض العلماء ممن ناصروه في رأيه، ووضعوا في الحديد وأرسلوا إلى القاهرة[٦] ، فأهانهم السلطان وضربهم. ثم دعا الأمير يشبك بن مهدي الدوادار الكبير لعقد مجلس حضره القضاة الأربعة في الديار المصرية وبعض العلماء، ودار البحث في أمر الكنيس، ووصف ذلك اليوم بأنه (كان يوماً مهولاً بنصرة

(١) الأنس الجليل، ٢/ ٣٠٢
(٢) الأنس الجليل ، ٢/ ٣٠٤
(٣) المصدر نفسه، ٢/ ٣٠٥
(٤) المصدر نفسه ، ص ٣٠٧
(٥) المصدر نفسه ، ص ٣٠٧
(٦) المصدر نفسه ، ص ٣٠٨

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

اليهود على المسلمين)[١] . وقد استعمل الدوادار يشبك سلطاته واستخدم القوة لإرهاب الحضور ، فعندما تكلم رجلان من طلبة العلم بما فيه نصرة المسلمين، ألقى القبض عليهما واشهرهما ووضعهما في الزنجير[٢] . ثم اخذ الأمير يشبك يهدد ويتوعد، عندئذٍ اصدر قاضي القضاة الشافعي في الديار المصرية ولي الدين الأسيوطي أمراً بعدم جواز إعادة الكنيس أما قضاة بيت المقدس فأمر السلطان بعزلهم ومنعهم من سكنى القدس[٣].

ونتيجة لهذه الفتاوى التي حصل عليها اليهود، تقدموا يطلبون من السلطان بتمكينهم من اعادة كنيسهم، وكان اكبر المساعدين لهم يشبك الدوادر الكبير بسبب ما بذلوه له من أموال طائلة[٤]. وأخيراً تمكن الأمير يشبك من إقناع السلطان بإعادة كنيسهم، فأصدر مرسوماً بذلك ، فشرعوا بإعادة بنائه في ١١ ربيع الآخر سنة ٨٨٠هـ. إن إعادة بناء الكنيس اليهودي يدل عل النفوذ الكبير الذي تمتع به اليهود في بيت المقدس ولدى السلطنة المملوكية بسبب امتلاكهم الأموال الطائلة وبذلهم الأموال للأمراء ورجال الدولة، وقد سموا اليوم الذي أعادوا فيه كنيسهم (عيد النصر)[٥] . ومن هنا نرى أن اليهود في بيت المقدس رغم عددهم القليل إلا انهم كانوا في العصر المملوكي يتمتعون بنفوذ قوي لدى الحكام، ونفوذ مادي بسبب اشتغالهم بالتجارة والصناعة.

مما تقدم نستطيع القول بأن أهل الذمة من اليهود والنصارى تمتعوا في العصر المملوكي بتسامح ديني، ومارسوا حقوقهم كاملة دون تعصب، وزاولوا مهنهم بحرية تامة، وعاشوا مع المسلمين في المدن والقرى. وان كنا نجد بعض النصارى يعيشون ويشكلون نسبة كبيرة في بعض المدن والمناطق، مثل نصارى وادي موسى والكرك في شرقي الاردن، والقدس والناصرة وبيت لحم وبيت جالا في فلسطين[٦].

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٠٩ (٢) المصدر نفسه ، ص ٣٠٩

(٣) الأنس الجليل ، ٢/ ٣١٠ (٤) المصدر نفسه ، ص ٣١٢ (٥) المصدر نفسه ، ص ٣١٣

(٦) أبو الفداء : تقويم البلدان، ص ٢٤٧ *Hutteroth , op. cit ., p. 54.*

ولم يكن النصارى بمنأى عن الأحداث السياسية في المنطقة، فنجد أن نصارى الكرك والشوبك وقفوا إلى جانب السلاطين المماليك، فأيدوا الناصر محمد بن قلاوون في ثورته بالكرك، وقدم أحد التجار النصارى الشوابكة إلى الظاهر برقوق مائة ألف دينار لينفقها في إعداد القوات والعساكر. لذا منحهم السلاطين امتيازات خاصة، فنجد أن محمد بن قلاوون اصدر مرسوماً في سنة ٧٠٠هـ (١٣٠٠م) حدد بموجبه زي النصارى واليهود، فألزم النصارى بلبس العمائم الزرقاء، واليهود الصفراء، والسامرة العمائم الحمراء، ولكنه استثنى من ذلك نصارى الكرك والشوبك لما لهم من مكانة خاصة في نفسه، فبقوا يلبسون العمائم البيضاء أسوة بالمسلمين[١]. وفي عهد برقوق نال نصارى الكرك والشوبك حظوة لديه، فأعفاهم من الضرائب والمصادرات إكراماً لموقفهم، ومساعدتهم إياه[٢].

وكان للنصارى في بلاد الشام بطركان اثنان الأول في انطاكية والثاني في القدس وكانت بطريركية بيت المقدس تحكم نصارى فلسطين وشرقي الأردن[٣]. وفي العصر المملوكي ذكرت المصادر وجود هذا البطرك في دمشق واليه مرجعهم في التحليل والتحريم والحكم والفصل بينهم بحكم مذهبهم في مواريثهم وأنكحتهم، واليه أمر الكنائس والديارات والرهبان ورعاية شؤونهم[٤]. أما اليهود فكان لهم رئيس يتكفل أمورهم وإقامة حدود التوراة بينهم مركزه دمشق أيضاً، اما السامرة فرئيسهم في نابلس[٥].

(١) المقريزي: السلوك، ١/ ٩١٢، ماير: الملابس المملوكية، ص ١٢١ يوسف غوانمة: تاريخ شرقي الأردن، القسم الحضاري، ص ١١٦

(٢) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ٩/ ٢٦٠

(٣) *Rey, les colonies , p. 89* .

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ٤/ ١٩٤، ١٢/ ٤٢٥، ٤٢٦

(٥) المصدر السابق، ٤/ ١٩٤، ١٢/ ٤٢٨

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وعاش الناس في بيت المقدس حياة الرغد والثراء، فامتهن عدد منهم التجارة والصناعة التي درت عليهم الأرباح الطائلة، ونستدل على عظم تجارته بكثرة أسواقه وتشعبها. وكان للقدس موارده من المواسم والأعياد، فالحجاج المسلمون كانوا يبلغون عشرين ألفاً، وكذا الحجاج النصارى واليهود. وكان أهالي القدس والمنطقة المجاورة يكسبون الكثير في تلك المواسم. ثم هناك الأموال التي خصصت للأوقاف وطلبة العلم وتلك التي ساعدت على تكوين طبقة ثرية في القدس. ونستدل على ذلك من امتلاك الموسرين للقصور (المصايف) خارج القدس في (البقعة) الواقعة غربي القدس، حيث يقضون فصل الصيف في تلك القصور وينفقون الأموال الطائلة عن سعة[١].

ومع ما للمدينة المقدسة من مكانة روحية ولكثرة المؤسسات الدينية والعلمية، إلا أن هذا لم يمنع من وجود بعض العادات السيئة التي اعتادها بعض الأهالي في بيت المقدس. من ذلك تعاطي نبات الحشيش، فذكر ابن صرصرى أن السلطان احمد بن أويس صاحب بغداد زار المدينة المقدسة سنة ٧٩٦هـ (١٣٩٣م) في طريقه إلى القاهرة، بعد أن امتلك تيمورلنك بغداد وهروب ابن أويس منها[٢]. وذكر شرف الدين المرجاني والي بيت المقدس أن (جماعته باعوا الحشيش في القدس وفي دمشق، ومقدار ما باعوه في القدس من الحشيش ١٢٠٠ درهم)[٣].

وأقام الأهالي في بيت المقدس الاحتفالات في المواسم والأعياد وعند تجديد ولاية النائب أو قاضي القضاة، فيلبس الأمير أو القاضي خلعة التجديد او الولاية ويدخل المدينة بعد ان يخرج الجميع لاستقباله وينتهي هذا الموكب

(١) الحنبلي ، الأنس الجليل ، ٢/ ٦٠

(٢) ابن صرصرى، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق وليم بريز، كالفورنيا، ١٩٦٣، ص ١٤٠

(٣) ابن صرصرى، المصدر السابق ، ص ١٤٦

إلى المسجد الأقصى حيث يتلى على المجتمعين مرسوم السلطان. وأقيمت الاحتفالات عند خروج الحجاج إلى الحجاز، ولم يكن لنيابة بيت المقدس ركب خاص، بل يخرج الحجاج من القدس والخليل والرملة ونابلس وبلاد الساحل إلى غزة وينضمون إلى (الركب الغزاوي)[١] .

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

(١) المقريزي ، السلوك ، ٤/ ٣/ ١٠٧٠

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(2)
الدور والحارات وطبوغرافية المدينة

كان سكان بيت المقدس يعيشون في بيوت مبنية من الحجر والجير، يتألف بعضها من طابق واحد، وأخرى من طابقين أو أكثر، ولا زالت معظم بيوت بيت المقدس الحالية مملوكية البناء، حتى يمكننا وصفها (القدس المملوكية). وتتكون المدينة من أحياء أو حارات متعددة، ويحيط بالجميع سور مرتفع قوي، وقلعة حصينة في الجهة الغربية من المدينة قرب باب الخليل. ويقع الحرم الشريف في الجهة الشرقية والجنوبية من المدينة، ويشغل مساحة كبيرة تبلغ ١٤٣٠٠٠مترا مسطحا أو ما يعادل ١٣٦ دونما، والأسوار الجنوبية والشرقية للحرم تشكل جزءا من سور المدينة الكبير. أما أطوال أضلاعه فالشرقي يبلغ ٤٧٤ مترا، والجنوبي ٢٨٣مترا، والغربي ٤٩٠ مترا، أما الشمالي فهو ٣٢١مترا. وتحتوي ساحة الحرم على المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وبعض المنشآت الأخرى، وتحف به من الجهة الغربية والشمالية الأروقة والأبنية التي أنشئت في العصر الأيوبي والمملوكي، وتشتمل هذه الأروقة على عدة مدارس. أما أبواب الحرم فهي من الشمال: باب الأسباط، وباب حطة، وباب العتم، وباب الغوانمة، وباب الناظر، وباب الحديد، وباب القطانين، وباب المطهرة، وباب السلسلة، وباب السكينة، وباب المغاربة، ولا يوجد للحرم أبواب من الجهتين الجنوبية والشرقية.

ويحيط بالحرم الشريف الأسواق والحارات والأحياء والأزقة، وأسواق القدس متخصصة سقف بعضها، فقد خصص كل سوق لسلعة معينة، أما الحوانيت فأقيمت على جانبي تلك الأسواق. والحوانيت معقودة بالحجر والجير ارتفاع بعضها ستة أذرع بذراع العمل[١]، وتساوي نحو ٤,٨ متراً. واشتملت

(١) وذراع العمل تعادل ٦٦,٥ سم ، أنظر : فالترهنتش ، المكاييل والأوزان الإسلامية ، ص ٨٩

المدينة المقدسة على أحياء أو حارات سميت إما باسم طائفة معينة كحارة النصارى القريبة من كنيسة القيامة وباب الخليل، أو حارة اليهود القريبة من الحرم، أو حارة المشارقة نسبة للنصارى الشرقيين القادمين من منطقة شرقي الأردن، وتقع شمال باب حطة، ثم حارة صهيون الواقعة غربي حارة اليهود. أو نسبة إلى عائلة مثل حارة الغوانمة نسبة لبني غانم شيوخ الخانقاه الصلاحية والمسجد الأقصى قرب منارة الغوانمة، ويتوصل إليها من باب الغوانمة. وحارة بني مرة قرب سوق الفخر، وبقربها حارة الزراعنة، وحارة المغاربة وسميت كذلك لكونها موقوفة عليهم وسكنهم فيها، وحارة بني الحارث وتقع خارج البلد قرب القلعة، وقد نصت الوثيقة رقم ١٢٤ على وجود (دار السريان) في هذه الحارة وكانت موقوفة على الحرم الإبراهيمي في الخليل[١]، وحارة الجوالقة إلى الغرب من حارة النصارى. أو نسبة إلى مكان أو شخص معين، مثل حارة حمام علاء الدين بخط مرزبان أوحارة الشيخ محمد القرمي، وحارة ابن الشنتر، وحارة باب الحديد، وحارة باب الناظر، وحارة باب العامود، وحارة باب الزاهرة، وحارة باب حطة، وحارة باب شرف الأنبياء، وحارة الغورية وتمتد من باب الأسباط وتنتهي إلى سور المدينة الشمالي،وحارة الحيادرة، وحارة العلم، وحارة الشرف غربي حارة المغاربة. أو نسبة إلى ذوي مهنة معينة مثل حارة الحصرية[٢]. وحارات بيت المقدس جميعها ضيقة متعرجة، وبعضها يتطرق إليه بواسطة درج بسبب طبوغرافية الأرض الجبلية. وبلطت شوارع القدس بالحجارة[٣] وهذا الطابع الفريد يمكن مشاهدة بقاياه في شوارع القدس القديمة وأزقتها. وكان لهذه الدروب والحارات حراس خاصون، يقومون على حراستها

(١) وثيقة رقم ١٢٤ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس

(٢) الحنبلي ، الأنس الجليل ، ٢/٥٢-٥٤ .

(٣) ناصر خسرو ،سفرنامة ، ص ٥٦، القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر بيروت، ١٩٦٩م، ص ١٦٠

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وحمايتها من اللصوص، وينبّهون سكانها ليلا إذا شب حريق لديهم وهم نيام ويقدمون لهم المساعدة اللازمة[١].

وكانت دور بيت المقدس تتألف من طابق واحد أو أكثر، في وسطها ساحة سماوية تشتمل على بئر ماء وبعض الأشجار وأحواض الزهور،وقد روعي في هذا النمط من البناء بحيث تجد المرأة في داخل الدار المتعة والراحة. أما نوافذ الدار المطلة على الشارع فوجد فيها (المشربيات)[٢]، التي من خلالها تستطيع المرأة النظر إلى الشارع دون أن يراها أحد. ولدينا وصف لأحد دور بيت المقدس، فالوثيقة رقم ٣٥ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس وصفت دار (ابن اللونين) بحارة النصارى بالقرب من طاحونة الهولي. وتشتمل هذه الدار على ثلاثة بيوت عقود، ومطبخ عقد، ومطهرة عقد. وصحن الدار يتكون من ساحة سماوية، وبهذه الساحة صهريجان للماء، وأشجار مختلفة الأجناس، وتشتمل الدار على قبو أرضي يتوصل إليه من صحن الدار[٣]، وهذا الوصف لا يختلف عن تقسيمات الدور الإسلامية في العصر الوسيط[٤]. وكانت قيمة دور بيت المقدس متفاوته، فلدينا مبايعة باسم خديجة بنت الحاج أحمد بن عبد العزيز المشرقي، اشترت الدار الكائنة بباب حطة من أخيها محمد سنة ٧٨٥هـ (١٣٨٣م) بمبلغ ٢٥٠ درهما، ونصت هذه الوثيقة على حدود تلك الدار[٥].

(١) السبكي ، معيد النعم ومبيد النقم ، ص ١٤٥.

(٢) المشربيات : هي شرفات بارزة عن سمت البناء، ترتكز على دعائم وكوابيل ، مصنوعة من الخشب بطريقة هندسية جميلة، بحيث يمكن للجالس فيها مشاهدة ما في الخارج دون أن يراه أحد ، أمعاناً في حجاب السيدات، وغالباً ما كانت تزود مشربيات النوافذ بحنيّات خارجة لوضع أباريق من الفخار لتبريد الماء ولا زالت بعض دور القدس ودمشق والقاهرة ومكة تحتوي على مثل تلك المشربيات الخشبية (ديماند ، الفنون الإسلامية ، ترجمة أحمد محمد عيسى ، القاهرة ، ط٢، ١٩٥٨م ص ١٢٣).

(٣) وثيقة رقم ٣٥ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس

(٤) عن أقسام البيت انظر، عفيف بهنسي، جمالية الفن العربي ،سلسلة عالم المعرفة ، العدد ١٤ شباط ١٩٧٩م ، ص ١٦٦.

(٥) وثيقة رقم ٤٣ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس

وما دمنا بصدد الحديث عن طبوغرافية القدس التاريخية، فلا بد من الحديث عن (كنيسة القيامة) التي بناها الإمبراطور قسطنطين حوالي سنة ٣٣٥م. وقد ورد ذكرها في كتب الجغرافيين العرب، وهي بناء كبير يتسع لثمانية آلاف شخص، بنيت على أيدي مهرة الصناع، وزينت بالرخام الملون والنقوش الجميلة النفيسة، وتعتبر كنيسة القيامة من أكبر الكنائس في القدس، وهي فوق كل وصف وجمال، بسبب غناها وهندستها الغريبة[١].

وتقع كنيسة القيامة في وسط المدينة تقريبا إلى الغرب من المسجد الأقصى، وأقرب الأبواب إليها باب الخليل. والداخل من هذا الباب يسير في شارع باتجاه الشرق ليصل إلى كنيسة القيامة، ونعتتها المصادر الإسلامية (كنيسة قمامة). ويذكر الإدريسي أنها (الكنيسة المحجوج إليها من جميع بلاد الروم التي في مشارق الأرض ومغاربها، فيدخل من باب في غربيها فيجد الداخل نفسه في وسط القبة التي يشتمل على جميع الكنيسة، وهي من عجائب الدنيا، والكنيسة أسفل ذلك الباب، ولا يمكن أحد النزول إليها من هذه الجهة، ولها باب من جهة الشمال ينزل منه إلى أسفل الكنيسة على ثلثين درجة، وعند نزول الداخل إلى الكنيسة تلقاه المقبرة المقدسة)[٢].

ويمكن الدخول إلى بيت المقدس من سبعة أبواب ضخمة كبيرة وهي على التوالي من الشرق باب الأسباط، ومن الشمال باب الساهرة، وباب العامود، وباب الحديد، ومن الغرب باب الخليل، ومن الجنوب باب النبي داود وباب المغاربة.

---

(١) لي سترانج، ص ١٨٥.

(٢) الإدريسي ، نزهة المشتاق (القسم الخاص بالشام) ص ٦.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(3)
المؤسسات الاجتماعية في النيابة

عاشت المدينة المقدسة عصرها الذهبي العصر المملوكي، فهي تحتوي على الأماكن المقدسة لدى الديانات الثلاثة، وهي مركز إشعاع روحي وحضاري وعلمي وفكري. لذا أمّها الناس من جميع أنحاء العالم للزيارة وأداء مناسك الحج أو امتهنوا التعليم في مدارسها العديدة، وقصدها طلاب العلم من كل فج. واختارها العديد من رجال الدين والنصارى من قسس ورهبان، فأقاموا في كنائسها وأديرتها فوجدوا التسامح من السلاطين والأمراء والمماليك. حتى ان السلاطين رفعوا المظالم عنهم، واثبتوا ذلك في نقوش رخامية ألصقوها في جدران الحرم القدسي وكنيسة القيامة. فالسلطان جقمق فعل ذلك سنة ٨٥٣هـ (١٤٤٩م) وابطل عدة مظالم على نصارى بيت المقدس، ولكي يضمن تحقيق ذلك جعل المتكلم في تطبيق هذا المرسوم من واجب ناظر الحرمين الشريفين في القدس والخليل[١].

ومن الجدير بالملاحظة ان السلاطين المماليك اختاروا القدس منفى مريحاً لبعض الأمراء الذين لا يشكلون خطراً مباشراً على الدولة، ولا يريدون القسوة والتشديد عليهم. فالذي ينقم عليه السلطان كان يرسله إلى سجن الإسكندرية أو الكرك أو صفد أو غيرها من الأماكن في مصر والشام. أما مرتكب الذنوب البسيطة فكان السلطان يرسله إلى بيت المقدس (بطالاً) ، ففي سنة ٧٨٨هـ (١٣٨٦م) عزل السلطان الظاهر برقوق الأمير بيدمر الخوارزمي عن نيابة دمشق وعين مكانه الأمير استقمتر المارديني الذي كان يقيم في بيت المقدس بطالاً[٢] .

(١) راجع نص النقش في الفصل الثالث (موضوع الجوالي).

(٢) المقريزي ، السلوك ، ٣/٢/٤٦٦، ٥٤٩، ٦٨٧

وهذا يعني أن الأمير المنفي إلى القدس يمكنه العودة إلى السلطة مرة أخرى وتقلد المناصب الهامة في الدولة وإعادة الاعتبار إليه، فالقدس على هذا النحو (منفي مريح). وقد أشار أستاذي الدكتور سعيد عاشور أن سبب اختيار بيت المقدس منفى للأمراء يعود لأسباب منها أن النفي للقدس لا يعني السجن بل هو تحديد للإقامة، فهو يعيش داخل المدينة حراً طليقاً يمارس أموره بحرية، ولكن لا يمكنه مغادرتها إلا بإذن سلطاني[١] . ولان الحياة في القدس أخف وطأة من الأماكن التي اعتاد السلاطين نفي الأمراء إليها، ولاعتدال جوها وقربها من القاهرة. ولأنها مدينة دينية، فيقيم الأمير هناك صحبة العلماء والفقهاء، فلا يشعر بقسوة النفي لوجوده في ذلك الرحاب الديني الطاهر. ثم إن الأمير المنفي لن يجد في القدس قوة تقف إلى جانبه فيما لو حاول الثورة أو التمرد، لان طبيعة المدينة لا تساعد على ذلك. فهي بمركزها الديني والعلمي تختلف عن كل من الكرك ودمشق وحلب وصفد وغزة التي يمكن أن ترفد أية ثورة أو تمرد على السلطة في القاهرة، فلكل تلك الاعتبارات والامتيازات التي تمتع بها البيت المقدس ، تسابق السلاطين والأمراء والأثرياء إلى بناء المؤسسات الاجتماعية ووقفوا عليها الأوقاف العديدة في مصر وبلاد الشام كي تواصل مهمتها في تقديم الخدمات اللازمة لقاصديها (كالبيمارستانات). كما أقيمت المؤسسات الأخرى التي تقدم خدماتها للمواطنين بأجور معينة، فتدخل السرور والراحة إلى قلوبهم، وتبعث فيهم النشاط (كالحمامات) التي هي في الحقيقة منتديات اجتماعية يلتقي فيها الرجال والنساء، يتداولون ويتجاذبون أطراف الحديث، وهي أشبه بالصالونات الاجتماعية للتعارف ونقل أخبار المجتمع.

(١) سعيد عاشور، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك ، بحث القي في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام ، عمان ١٩٨٠، ص ٣٨، ٣٩.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

أ. البيمارستانات:

أنشئت البيمارستانات منذ العصر الأموي وهي من مفاخر الحضارة العربية الإسلامية، وزاد الاهتمام بها في العصر العباسي، ولكن الايوبيين والمماليك استكثروا من هذه البيمارستانات وقاية لأهل البلاد من الأوبئة والطواعين التي ما فتئت تضرب المنطقة الفينة بعد الأخرى. ولم تكن مهمة هذه البيمارستانات قاصرة على العلاج، بل أدت دوراً تعليمياً فهي أشبه بكليات للطب، فالطلبة يقسمون إلى فرق، كل فرقة تتخصص بفن معين، فمنهم طبائعية (باطنية) وطائفة مجبرين (عظام)، وجرائحية وفريق كحالين (العيون)[١]. ووجد في البيمارستان قسم للصيدلة، يتعلم الطلاب فيه كيفية تحضير العقاقير وطبخها وعمل المعاجين وغيرها.

ووجد في البيمارستان أزمة (سجلات) يدون فيها أسماء المرضى، والنفقات التي يحتاجونها من أدوية وأغذية. وكان الأطباء يبكرون إلى البيمارستان ويتفقدون المرضى، ويأمرون إعداد ما يحتاجونه من علاج. وهذه المعلومات كانت تسجل في لوح خاص يثبت على سرير كل مريض. ووجد لكل بيمارستان وقف خاص ينفق ريعه على شؤون هذا البيمارستان التي بلغت في إحداها خمسة عشر ديناراً يومياً[٢].

وقسم البيمارستان إلى أقسام فهناك قسم خاص للنساء، وآخر للجراحة، وثالث للحميات، ورابع للرمد، وخصص قسم في بعضها للأمراض العقلية[٣]، ولكل بيمارستان ناظر يشرف على إدارته، ويراقب المرضى والأطباء. ووجد في بيت المقدس بيمارستان منذ العصر الفاطمي، فقد زار ناصر خسرو القدس سنة

(١) ابن شاهين ، زبدة كشف المماليك ، ص ٤٥.

(٢) أبن جبير ، الرحلة ، ص ٢٥٥.

(٣) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٥٦، وللباحث ، تاريخ شرقي الأردن في العصر المملوكي، القسم الحضاري ص ١٣٨، ١٣٩.

٤٣٨هـ (١٠٤٧م)، ووصفه بأنه (مستشفى عظيم)، يصرف لمرضاه العلاج والدواء، وله وقف يأخذ الأطباء مرتباتهم منه[١]. وبقي هذا البيمارستان يقدم خدماته في فترة الاحتلال الفرنجي لبيت المقدس، ففي سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠م) زار الرحالة الألماني: *John of wurzburg* بيت المقدس وذكر ان البيمارستان يقع في الجهة الجنوبية المقابلة لكنيسة القيامة، وانه يقوم بعلاج ألفي شخص، وله رؤساء يشرفون عليه[٢] . وقد تمكن هذا البيمارستان من استقبال ٧٥٠ جريحاً بعد معركة تل الصافية التي دارت بين الفرنج وصلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٣هـ (١١٧٧م)[٣] .

وفي سنة ٥٥٩هـ (١١٦٣م) زار الرحالة الأندلسي بنجامين التطلي بيت المقدس وأشار إلى وجود بيمارستانين، الأول يستوعب ٤٠٠ سرير، أما الثاني فهو بيمارستان الملك سليمان ويستطيع علاج نفس العدد، وهؤلاء المرضى كانوا يأتون إلى القدس من جميع أنحاء مملكة اللاتين في الشام[٤] .

ووصف أسقف وزبيرج الذي زار القدس ٥٨٣هـ (١١٨٧م) هذا البيمارستان فقال: تقوم الكنيسة والبيمارستان في الجهة الجنوبية من كنيسة القيامة، ولا يستطيع إنسان وصف جمال هذين المكانين.والبيمارستان مزود بالغرف والأسرة المهيأة لخدمة المرضى، ولم نتمكن من معرفة عدد المرضى الذين يرقدون فيه، ولكن لاحظنا أن عدد الأسرة كان يفوق الألف سرير[٥].

---

(١) ناصر خسرو، سفرنامة، ص ٥٧.

(٢) *Hume,(Edgar) Medical work of the knights hospitallers of the Saint john of jerusalem 1940,pp.13,14.*

(٣) *Ibid., p. 8.* ولزيد من التفاصيل عن معركة تل الصافية أنظر كتابي (إمارة الكرك الأيوبية) صفحة ١١٩ وما بعدها .

(٤) *Benjamin of Tudela , op. cit ., p. 83. Hume , op. cit ., p. 15.*

(٥) *Theodorich's Description of the Holy land , London, 1896, p. 22. Hume , op. cit., p. 16*

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وفي نفس هذه السنة ذكرت المصادر العربية ان صلاح الدين حرر بيت المقدس بعد معركة حطين سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م)، فرتب أموره، وجدد بناء أسواره، وعمق خندقه. وبعد صلح الرملة سنة ٥٨٨هـ (١١٩٢م)، فوض صلاح الدين ولاية القدس إلى الأمير عز الدين جرديك، وزاد في أوقافه[١]. وكان قد جعل كنيسة صند حنا عند باب الأسباط مدرسة للشافعية فزاد في أوقافها أيضاً. أما الكنيسة المجاورة لدار الاسبتار، جنوب كنيسة القيامة والناحية المجاورة لها، فقد اتخذها بيمارستاناً للمرضى فأشغلت مساحة ١٧٠×١٥٠ ياردة، وهيأ فيه العقاقير والادوية، ووقف عليه الأوقاف العديدة، وجعل النظر في هذه الأوقاف للقاضي بهاء الدين يوسف بن رافع المعروف بابن شداد، وسماه البيمارستان الصلاحي[٢]. أما دار الاسبتار فان الأمير شهاب الدين غازي حولها في سنة ٦١٣هـ (١٢١٦م) إلى زاوية سماها (زاوية سماها (زاوية الدركاه)، وكان نواب القدس ينزلون في هذه الزاوية قبل أن يتخذوا المدرسة الجاولية مركزاً لهم[٣] . وبقي هذا البيمارستان يؤدي دوره في العصر الأيوبي والمملوكي، فالوثيقة رقم ٢٠ تاريخ ٧٦٨هـ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس نصت على ان جعفر بن محمد أبى بكر السعاد من القدس، وقف الدار الكائنة بخط باب العامود على مصالح البيمارستان الصلاحي (يسلك بذلك مسلك أوقاف البيمارستان المذكور وقفاً صحيحاً شرعياً مؤبداً، وحبساً دايماً محللاً، لا يباع ولا يوهب ولا يملك بوجه من وجوه الملكان)[٤] ، وهذا يؤكد استمرار البيمارستان الصلاحي يؤدي خدماته للمواطنين في العصر المملوكي علاجاً وتدريساً.

ويؤكد وجهة النظر التي ذهبنا إليها الرحالة الأجانب الذين زاروا القدس

(١) العماد الكاتب ، الفتح القسي في الفتح القدسي ص ٦١٢.
(٢) العماد الكاتب، المصدر نفسه ، ص ٦١٢.
(٣) الحنبلي ، الأنس الجليل ، ٢/ ٤٧، . *Hume , op. cit., p. 6*
(٤) وثيقة رقم ٢٠ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس

وقدموا لنا وصفاً لبيمارستانها، ففي سنة ٧٢٢هـ (١٢٣٣م) زار الرحالة *sir john Maundvile* بيت المقدس، فذكر قائلاً: على بعد ٢٠٠ خطوة إلى الجنوب من كنيسة القيامة يوجد بيمارستان عظيم، وهو البيمارستان الذي وضع أسسه الفرسان الاسبتارية، وبداخل هذا البناء يوجد ١٢٤ عاموداً حجرياً. والى الشرق من البيمارستان تنهض كنيسة جميلة تسمى كنيسة *Our Lady the Great* وفي الغرب توجد كنيسة أخرى تدعى *Our Lady the Latin*.

أما الرحالة الألماني *ludolph von suchem* الذي عاش في فلسطين مدة خمس سنوات ٧٣٧هـ-٧٤٢هـ (١٣٣٦-١٣٤١م) فذكر ان البيمارستان الصلاحي ظل يؤدي دوره. وأشار إلى انه يقع قرب كنيسة القيامة، وأنه بيمارستان عظيم يتسع لألف مريض. وجرت العادة في العصر المملوكي أن يدفع كل حاج قادم إلى المدينة المقدسة بنيان فينيسيان *Two venetian pennies* بدل معالجتهم في المستشفى. ويدفع هذا المبلغ مرة واحدة، بغض النظر عن المدة التي يبقاها الحاج في المستشفى سواء أكانت يوماً واحداً أو سنة كاملة[٢].

وظل هذا البيمارستان مستخدماً لفترة ما في العصر العثماني، ففي سنة ١٨٦٩م زار الأمير فريدرك أمير بروسيا بيت المقدس، فمنحه السلطان العثماني عبد العزيز بن محمود الثاني النصف الشرقي من البيمارستان الصلاحي. ثم وضع الجزء الجنوبي من النصف الشرقي تحت تصرف الجماعة الدينية الإنجليزية *British order Saint John*[٣] ثم قام الألمان فيما بعد ببناء شارع يمر خارج البيمارستان ويقطعه من الشمال إلى الجنوب وأطلقوا عليه اسم شارع الأمير فريدرك *Prince frederick william* وفصلوا ممتلكاتهم عن ممتلكات اليونانيين[٤].

(١) *Hume , op. cit ., p. 16.*
(٢) *Ibid ., pp. 17-18.*
(٣) *Ibid ., p. 6.*
(٤) *Hume , op. cit ., p. 6.*

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وانشأوا بوابة عند مدخل شارع داود تحمل النسر الألماني شعارهم، ولم يكتفوا بذلك، بل قاموا سنة ١٨٩٨م ببناء الكنيسة اللوثرية الحالية *Lutheran Church* ، وجعلوا بناءها على نمط بناء الكنائس القديمة، وذلك برعاية وتشجيع وضغط الإمبراطور الألماني نفسه[١].

وهكذا فإن البيمارستان الصلاحي اندثرت معظم معالمه وأقيمت مكانه الكنيسة اللوثرية وغيرها من المنشآت الأخرى منذ القرن التاسع عشر، ولم يبق منه سوى أجزاء بسيطة تتمثل في أربع قاعات كبيرة تقع بجانب دار الوكالة وجنوب الكنيسة اللوثرية. وهذه القاعات كبيرة الاتساع كانت تستخدم لإقامة المرضى، فالقاعة الأولى والثانية والرابعة تستخدم حالياً لبيع الخضار، أما الثالثة فهي بيزار لبيع التحف الخشبية والصدفية. وتحتوي هذه القاعات على عقود مدببة، وتقوم على دعامات قوية مربعة ضخمة، وبعد الانتهاء من القاعة الرابعة، تأتي إلى دهليز واسع من نفس نمط بناء العقود الأخرى، هو الشارع الذي أقامه اللوثريون ليقسم البيمارستان إلى قسمين ويقود إلى الكنيسة اللوثرية.

ويمكن الوصول إلى البيمارستان الصلاحي عن طريق باب السلسلة، وفي مواجهة البيمارستان يقوم حالياً ما يسمى سوق الحصريين.

وذكرت المصادر عن وجود البيمارستان المنصوري في مدينة الخليل أنشأه السلطان المنصور قلاوون في سنة ٦٨٠هـ (١٢١٨م) ووقف عليه الأوقاف العديدة[٢]. والبيمارستان الفخري في مدينة الرملة بناه القاضي فخر الدين محمد ابن فضل الله ناظر الجيوش المصرية في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون قبل سنة ٧٣٢هـ (١٣٣١م)[٣] .

---

(١) *Ibid ., p. 6.*

(٢) الحنبلي ، الأنس الجليل ، ٢/٧٩، ٨٩.

(٣) النجوم الزاهرة ، ٩/٢٩٦

٢- الحمامات:

تعتبر الحمامات من أهم المؤسسات الاجتماعية في الإسلام، وكانت ظاهرة تعدد الحمامات في العصور الإسلامية واضحة، فللحمام في العمارة الإسلامية مكانة خاصة، فعادة الاستحمام من العادات الهامة في المجتمع الإسلامي لأنها مظهر من مظاهر الطهارة والنظافة التي يحضّ عليها الإسلام وروعي في تخطيط تلك الحمامات أن تحتوي على ثلاثة بيوت أو قاعات، فالبيت الأول مبرد مرطب يخلع فيه المرء ملابسه، والثاني مسخن مرخّ، والبيت الثالث مسخّن مجفف[١]. والمقصود من هذا التقسيم التدرج في درجة الحرارة حتى لا يتعرض المستحم للمرض من انتقاله فجأة من الجو البارد إلى الحار وبالعكس.

ووجد في كل حمام قدر كبيرة من النحاس يسخن فيها الماء، وينقل منها في أنابيب فخارية إلى الأحواض، وتبلط أرضيته ببلاط خاص، وزينت جدران قاعاته بالنقوش الجميلة. ويتزود الحمام بالمياه الباردة من برك خاصة أو بواسطة (السقا) الذي يجلب الماء بالروايا والقرب. وكان في كل حمام قومة وموظفون يقومون على خدمة المستحمين وتنظيف الحمام كل يوم، ويشرف المحتسب على هذه الحمامات، فيراقب ما يجري فيها حماية للفضيلة والأخلاق ومحافظة على نظافته وطهارته[٢]. ويستعملون فيها البخور في اليوم مرتين كي تبقى رائحتها ذكية، كما يراعى عدم دخول المرضى هذه الحمامات كالمجذوم والأبرص، وعلى كل مستحم أن يغطي عورته بمئزر خاص.

وخصصت حمامات للرجال وأخرى للنساء، ولكن بعضها كانت تحدد أوقاتاً معينة للرجال وأخرى خاصة بالنساء. وانتشرت هذه الحمامات في المدن الشامية وقراها، فوجدت الحمامات في دمشق وحلب وحمص وحماة وطرابلس

(١) ابن الأخوة ، معالم القربة في أحكام الحسبة ، ص ٢٤٠.
(٢) أبن الأخوة ، الصدر نفسه ، ص ٢٤١

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وصفد والكرك وعمان، وحسبان وعجلون[١]، والرملة، والخليل ونابلس وغيرها من المدن، وذكر ابن جبير في القرن السادس الهجري أن عدد حمامات دمشق مئة حمام[٢]. أما بيت المقدس فوجد به عدد من الحمامات نذكر منها: حمام السوق الكائن في سوق العطارين، وحمام علاء الدين البصير في خط مرزبان جوار المدرسة اللؤلؤية، وحمام العين، وحمام الشفا ويعودان للقرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)[٣]. وحمام البترك أو البطرك في حارة النصارى، وهو وقف على الخانقاه الصلاحية[٤]، وقد أشارت الوثيقة رقم ٤٦ تاريخ ٧٤٧هـ عن سند إيجار هذا الحمام إلى داود بن نصر وشقيقه احمد بمبلغ ثلاثة عشر درهم فضة نقرة يومياً، عشرة دراهم أجرة للحمام وثلاثة ترصد لتنظيفه. وقد دفع المستأجران القسط الأول وقدره ثلاثمائة درهم أجرة شهر كامل، أما الباقي فيقسط ويدفع عند غروب شمس كل يوم[٥]. وذكرت المصادر عن وجود (حمام الملكة) في نابلس، وقفه الأمير سنجر الدواداري الصالحي على مصالح الخانقاه الدويدارية التي أنشأها في القدس سنة ٦٩٥هـ (١٢٩٥م)[٦].

وزودت هذه الحمامات ببرك خاصة لتزويدها بالمياه، أو لجمع المياه القذرة فيها، فحمام علاء الدين كانت له كهذه، وكذا حمام البترك، وقد نصت الوثيقة رقم ٤٦ من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس أن على المستأجرين نزح مياه هذه البركة.

---

(١) للمؤلف ،تاريخ شرقي الأردن في العصر المملوكي ، القسم الحضاري ، ص ١٨٧.
(٢) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٦١
(٣) الأرشيف التاريخي لقسم الآثار الإسلامية بالحرم القدسي الشريف .
(٤) الحنبلي ، الأنس الجليل ، ٢/ ٥٠، ٥٣، ٥٩
(٥) وثيقة رقم ٤٦ من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس
(٦) *Van Berchem , Jerusalem ville, p. 214.*

الفصل الخامس
الحياة العلمية في النيابة

١- ازدهار الحركة العلمية في القدس في العصر المملوكي

٢- المدارس:

أولاً: نشوء المدرسة في الإسلام وانتشارها.

ثانياً: المدارس الموجودة في أروقة الحرم أو المطلة عليه.

ثالثاً: المدارس الموجودة خارج أروقة الحرم:

أ- المدارس الواقعة في الجهة الشمالية من الحرم.

ب- المدارس الواقعة في الجهة الغربية من الحرم.

رابعاً: الخوانق في بيت المقدس.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(1)
ازدهار الحركة العلمية في القدس في العصر المملوكي

خرجت أول بعثة علمية حجازية إلى بلاد الشام بعد الفتوحات العربية الإسلامية مباشرة لتعلم أهلها وتثقفهم أمور دينهم، وهم : معاذ بن جبل الذي خرج إلى فلسطين ومات في طاعون عمواس ودفن في غور الأردن، وعبادة بن الصامت الذي أقام في حمص أولا ثم توجه إلى فلسطين واليا على بيت المقدس للخليفة عمر بن الخطاب فأقام فيه إلى أن توفي، وأبو الدرداء الخزرجي الذي أقام في دمشق فلم يزل فيها إلى أن مات[١].

وإن استقرار الأمور في بلاد الشام ساعد على قيام حركة علمية ارتبطت بالإسلام فكريا، وتناولت موضوعاتها الدراسات الإسلامية الممثلة بعلوم القراءات والحديث والتفسير والفقه والدراسات العربية كعلوم النحو والبلاغة والشعر، ثم الاهتمام بالدراسات الإنسانية كالسيرة والمغازي والتاريخ. وكان للدراسات العقلية دورها، فقد ظهرت بوادرها الأولى في العصر الأموي، ولكنها تطورت وازدهرت في العصر العباسي متاثرة بعلوم الأمم القديمة وحضاراتها.

ولما كانت فلسطين إحدى كور الشام، فقد امتدت إليها النهضة العلمية ونبغ من رجالها العديد في شتى العلوم والفنون، فأول من حدث رواية القرآن بدمشق هشام بن إسماعيل وبفلسطين الوليد بت عبد الرحمن. ومن علماء فلسطين في القرن الأول الهجري نذكر: أوس بن أوس الصحابي الشاعر الذي سكن بيت

(١) ابن الجوزي، فضائل القدس ، تحقيق جبرائيل سليمان جبور ، دار الآفاق بيروت ، ١٩٧٩م، ص ١٣٠ محمد كرد علي، خطط الشام ، ٤/ ١٥. يوسف غوانمة ، علماء وفقهاء محافظة اربد في العصر الإسلامي ، منشورات جامعة اليرموك ، ١٩٨٠م ص٣.

المقدس والرملة، وروح بن زنباغ الجذامي الفلسطيني كان له اختصاص بالخليفة عبد الملك بن مروان، ورجاء بن أبي سلمة الفلسطيني المحدث ومالك بن دينار الذي أقام في القدس. ورجاء بن حيوة الفلسطيني الكندي الأردني الفقيه العالم الذي كان يجالس الخليفة عمر بن عبد العزيز، ويحيى بن عمرو السبياني من أهل الرملة (وسبيان بطن من حمير).

وكان القرن الثالث الهجري عصر العلوم والإبداع الفكري في العراق، فوصلت بغداد أوج عظمتها العلمية، ولكن الشام لم تصل درجة بغداد والعراق، وان كنا نرى أعداداً من العلماء ممن ينسبون إلى دمشق وبيروت وصيدا وغزة وطبريا وغيرها من المدن.

ويعتبر القرن الرابع الهجري عصر الإبداع الأدبي والشعري في بلاد الشام، ففيه نبغ فحول الشعراء الشاميين كأبي فراس الحمداني، وأبي العلاء أحمد بن سليمان المعري، وأبي القاسم الحسن الواساني الدمشقي وأحمد بن محمد الطائي الدمشقي، وكشاجم الرملي (ت٣٦٠هـ) وغيرهم كثير. إلا أن هذا الإبداع لم ينسحب على فلسطين وبيت المقدس بشكل خاص، فقد وصف المقدسي مدينة بيت المقدس في كتابه احسن التقاسيم، بأنها قليلة العلماء، ومسجدها خلا من الجماعات والمجالس[١]، ثم يتعرض إلى فقهائها فيشير إلى قلة البدعة فيهم[٢]، والظاهر ان الصبغة التي رآها المقدسي غالبة على طبيعة الحياة الثقافية في القدس هي الصبغة التعبدية، أما حلقات البحث والمناظرة والدرس التي رآها في البلدان الأخرى أثناء تجواله فيها وهو الجغرافي والرحالة والعالم، فلم يجدها في بلده القدس، ففقهاؤها كانوا من ذوي الثقافة الدينية المحافظة. ولكن المقدسي يتطرق إلى ناحية أخرى من الحركة العلمية في بيت المقدس، فيشير إلى كثرة الحذاق

(١) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ط٢، بريل ١٩٦٧م ، ١٦٧.

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٨٣.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

والأطباء، وهذا يعني تأكيده جانب الثقافة المهني والطبي والتقني[١]. فبرز في هذا المجال أبو عبد الله محمد بن سعيد التميمي الطبيب، والمقدسي الجغرافي، وقد شغف هذان العالمان بوطنهما فلسطين. فالمقدسي الجغرافي عرف بلاده بقعة بقعة وتحدث عنها من جميع النواحي العمرانية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، فتحس عند قراءة كتابه (أحسن التقاسيم) صدق انتمائه وشغفه بفلسطين وحبه الكبير إليها[٢]. وكذا التميمي النباتي الذي لم يترك بقعة من أرض فلسطين إلا وتعرّف عليها وعلى نباتاتها واستغلها في صنع الأدوية وتركيبها[٣].

ويشير الدكتور إحسان عباس إلى فقر ثقافي في فلسطين في القرن الرابع الهجري، فلم يكن في فلسطين آنذاك أي تميز في النواحي الأدبية، وكل ما هناك نماذج قليلة لبعض الأدباء والشعراء، ولكنها غير كافية لإعطاء رأي قاطع ومصيب في هذه الناحية[٤].

ثم يعود الانتعاش إلى الحركة العلمية والثقافية في القرن الخامس الهجري، فالعلوم الدينية كالحديث والفقه والتفسير تتصدر على يد أبناء البلاد أنفسهم. وتصبح فلسطين عامة وبيت المقدس خاصة قبلة العلماء والفقهاء الوافدين، فتنتعش حلقات الدرس والمناظرة التي افتقدها المقدسي في بلده في القرن الرابع، ويعود للقدس مكانتها العلمية والثقافية[٥]. ومن علماء القدس في هذا

(١) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٨٣ ، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا ، دار الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥م،ص٤٥٧. إحسان عباس، الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين خلال القرنين الرابع والخامس ، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام ، عمان ، ١٩٨٠، ص ١٨.

(٢) أحسن التقاسيم ، ص ١٦٦.

(٣) القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، طبعة دار الآثار ، بيروت ، ص ٧٤، ٧٥، ابن أبي أصيبعةن عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٥٤٧.

(٤) احسان عباس ، المرجع السابق، ص ٢١، ٢٣.

(٥) ابن عربي ، العواصم من القواصم ، القاهرة ، ١٣٧١هـ ، ص ١٤، ١٥

العصر نذكر: نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي، الذي درّس في القدس ودمشق وصور وله عدة تصانيف (ت ٤٩٠هـ)[١]، وسلامة بن إسماعيل به جماعة المقدسي الضرير، كان كثير الحفظ له عدة تصانيف (ت٤٨٠هـ) والحسن بن عبد الصمد بن الشخباء العسقلاني الناثر المجيد صاحب الخطب البديعة (ت٤٨٢هـ)[٢]، وغيرهم. وحظيت المدينة المقدسة في أواخر القرن الخامس الهجري باستقطاب مجموعات كبيرة من علماء المشرق والمغرب منهم : أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي الفهري (ت ٥٢٠هـ) ، من كبار علماء المالكية الأندلسيين، من طلابه في القدس العالم الأندلسي محمد بن عبد الله بن محمد ابن عربي الإشبيلي (ت٤٥٣هـ). فابن عربي يقول: (تذاكرت بالمسجد الأقصى مع شيخنا أبي بكر الفهري الطرطوشي حيث أبي ثعلبة)[٣]. والعالم ابن الكازروني الذي أخذ عنه ابن عربي وقال عنه (تمتّعنا به ثلاث سنوات)[٤]، والغزالي الذي اعتكف في احدى مدارس القدس وبدأ في تأليف كتابه (أحياء علوم الدين). وقد ترافقت هذه الحيوية العلمية بظهور المدارس وانتشار حلقات الدرس والمناظرة في المدينة المقدسة. ثم أن المصادر ذكرت وجود بيمارستان عظيم في بيت المقدس، فناصر خسرو الذي زار القدس سنة ٤٣٨هـ (١٠٤٧م) وقال عن البيمارستان أنه (يصرف لمرضاه العديدين العلاج والدواء، وبه أطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف)[٥]، مع العلم أن للبيمارستان مهمة أخرى تعليمية ففيه يتعلم الطلاب العلوم الطبية والصيدلانية.

ثم كانت الهجمة الصليبية الشرسة التي اجتاحت بلاد الشام واحتلت المدينة

---

(١) ابن عربي ، العواصم من القواصم ، ص ١٦. محمد كرد علي ، خطط الشام ، ٤/ ٣٣

(٢) محمد كرد علي ، خطط الشام ، ٤/ ٣٢.

(٣) ابن عربي ، العواصم من القواصم ، ص ١٥

(٤) ابن عربي ، المصدر نفسه ، ص ١٥

(٥) ناصر خسرو ، سفرنامة، ص ٥٧.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

المقدسة يوم الجمعة ٢٢ شعبان ٤٩٢هـ (١٥ تموز ١٠٩٩م). فقتل الفرنجة كل سكان القدس بينهم ثلاثة آلاف ما بين عالم وعابد ومعتكف[١]. وباحتلال القدس والساحل الفلسطيني خمدت الحركة العلمية في فلسطين طيلة الاحتلال الفرنجي لها.

وبعد تحرير بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) على يد صلاح الدين الأيوبي شهدت المدينة المقدسة حياة فكرية وثقافية نشطة، فصلاح الدين لم يدخل القدس إلا صحبه عدد كبير من العلماء الأفاضل بحيث لم يتخلف معروف من الحضور[٢]. وبعد أن رتب أمور المدينة أنشأ فيها مدرسة للشافعية، والخانقاه الصلاحية، والبيمارستان الصلاحي.

وقد تعصب الأيوبيون لمذهب السنة، وحاربوا مذهب الشيعة، فأقاموا المدارس في ربوع مصر والشام لهذه الغاية، وزادهم تعصبا للدين قيام الحروب الصليبية. لذا شجعوا الدراسات الدينية واللغوية، وإن كنا نجد أن بعضهم شجع الدراسات العقلية كالمعظم عيسى وابنه الملك ناصر داود. فملوكهم أحاطوا أنفسهم بخيرة العلماء والفقهاء في شتى العلوم والفنون، ووضعت المصنفات في مختلف العلوم الدينية، وعلوم العربية، والعلوم العقلية والطبيعية، والعلوم الإنسانية، واستأثرت المدينة المقدسة بخيرة هؤلاء العلماء.

أما في العصر المملوكي فقد بلغت الحياة الفكرية في المدينة المقدسة أزهى أدوارها، فاستقطبت العلماء والفقهاء من المشرق والمغرب على حد سواء، منهم الإمام الفاضل مسعود ابن خطيب مالقة بالأندلس، نزل في القدس بمدارس المالكية وكان يقرئ العربية وعبارته جيدة (ت ٧٨٩ هـ). والشيخ الربّاني علاء الدين علي العشقي البسطامي (عشق بلدة من أعمال خراسان)، وتلميذه

---

(١) عن الصورة الوحشية لما فعله الفرنج في المدينة المقدسة انظر: *Fulcher of Charters, P.122* و*William of Tyre, vol. l,p.372* وللباحث، بيت القدس في الحملة الصليبية الأولى، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٠م، ص ١٤ وما بعدها.

(٢) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٤م، ص ٨٢.

الشيخ جلال الدين الصالح الرباني الذي اشتغل بالتدريس في القدس وصنف رسالة مفيدة، وكانت به زاوية في القدس توفي فيها سنة ٧٩٤هـ (١٣٩٢م)، والسيد الشريف موسى بن أحمد بن منصور شرف الدين العدوي المغربي المالكي، اشتغل بالعلم وله اعتراضات وسؤالات واستنباطات حسنة، أقام في القدس مدة وتوفي في الخليل سنة ٧٩٥هـ (١٣٩٣م)[١]. بل أن عددا كبيرا منهم كان يفضل الإقامة في بيت المقدس لاعتدال جوه ووقوعه داخل دائرة النشاط الحضاري للدولة المملوكية[٢]. وأن كتب التراجم لتزخر بأعداد كبيرة ممن ينتسبون للمدينة المقدسة، أو الوافدين إليها، نجدهم في الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني، والضوء اللامع للسخاوي، وشذرات الذهب لأبي الفلاح، والأنس الجليل للحنبلي وغيرها من كتب التاريخ المختلفة كالسلوك للمقريزي، والنجوم الزاهرة لأبي المحاسن وبدائع الزهور لابن اياس.

ومن الملاحظ أن المدينة المقدسة أصبحت من مراكز الإشعاع العلمي والفكري والحضاري في العصر المملوكي، خصوصا بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) وهجرة علماء العراق إلى مصر والشام وسكناهم في أمهات مدنها كحلب ودمشق وبيت المقدس والقاهرة. وقد تمثل هذا النشاط في عدد كبير من المؤلفات والرسائل ارتبطت ولادتها في المدينة المقدسة، وكان للعلوم الدينية النصيب الأوفر في تلك الدراسات والبحوث، ومع ذلك فقد نبغ العديد في علوم الأدب واللغة والنثر والتاريخ والعلوم العقلية والتجريبية، مما يدل على اتساع دائرة النشاط العلمي في بيت المقدس في العصر المملوكي واستمراره واتصال حلقاته حتى نهاية دولتهم.

(١) ابن قاضي شهبة، تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش ، دمشق ، ١٩٧٧م، ٣/ ٢٣٦، ٤٤٢، ٤٩٨.

(٢) سعيد عاشور ، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان ، ١٩٨٠، ص ١٢.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(2)
المدارس

أولاً: نشوء المدرسة في الإسلام وانتشارها:

عرفت بلاد الشام المدارس منذ العصر الهليني والروماني والبيزنطي، وكانت مدرسة بيروت إحدى أربع مدارس مشهورة في الدولة الرومانية، وقد تهدمت هذه المدرسة قبل الإسلام بسبب الزلازل التي ضربت المدينة في القرن السادس الميلادي، ثم أن حريق سنة ٥٦٠م أتى على معظم بيروت ومعاهدها العلمية. وهناك مدارس أخرى اشتهرت في بلاد الشام في ذلك العصر نذكر منها: مدرسة قيسارية وغزة وأريحا وتدمر وبصرى وصيدا وجدرا (أم قيس)، وقد تخرج من هذه المدارس العديد من العلماء والخطباء والفلاسفة[١]. وهكذا فإن بلاد الشام عرفت المدارس والمعاهد العلمية قبل مجيء الإسلام.

وقد اختلفت الآراء حول نشوء المدرسة في الإسلام، ولما كان العلم من اختصاص الجماعة الإسلامية، فقد استخدمت الجماعة المساجد معاهد للتعليم. فالتعليم لم يكن من اختصاص الخلفاء والسلاطين، بل كان من اختصاص الأفراد والجماعة، وقد تكفلت الجماعة الإسلامية بمعاش المعلمين سواء أولئك الذين يعلمون الصبيان القراءة والكتابة أو الشيوخ الأجلاء الذين يعلمون الطلاب الكبار في المسجد علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والأدب. ولم تقرر الدولة راتباً لمعلم أو شيخ إلا ابتداء من منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، فالتدريس بأجر أو راتب معلوم شاع منذ ذلك القرن[٢].

والمعروف أن الدرس والتدريس نشأ بنشأة الإسلام، فروي أن جماعة

---

(١) محمد كرد علي، خطط الشام، ٤/ ١٢، ١٣

(٢) حسين مؤنس، المساجد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨١م، ص ٣٥

من الصحابة كانوا يعلمون في مسجد قباء في عهد الرسول. ويذكر ابن خلكان أن أبا عثمان ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ (المعروف بربيعة الرأي) كانت له في مسجد الرسول بالمدينة (حلقة وافرة)، وعنه أخذ مالك ابن أنس وإشراف أهل المدينة[١]. وقد انتشرت هذه الحلقات في المساجد الجامعة في الحجاز والشام ومصر والمغرب والأندلس وغيرها من البلاد الإسلامية وعواصمها.

وسمي الدرس (حلقة) لأن الطلاب كانوا يتحلقون حول الشيخ أي ينتظمون في حلقة أو دائرة[٢]، وهذه الحلقات كانت تتسع أو تضيق تبعاً لعدد الطلاب. وكان كل شيخ يستند إلى سارية أي اسطوانة[٣]، ولكل سارية وقف معلوم يأخذه المستند إليها للمذاكرة والتدريس[٤]، وتبقى هذه الاسطوانة وقفاً عليه ما دام يقوم بمهمة التدريس في المسجد، وفي بعض الأحيان تبقى معروفة بإسمه حتى بعد وفاته[٥]. وسمي مجلس الشيخ في بعض الأحيان(طاقا)[٦]، وأطلق بعضهم على الحلقة (زاوية)، فابن جبير ذكر في وصفه للجامع الأموي أن (للمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي)[٧]. وتبلغ الحلقات في بعض المساجد أعداداً كبيرة، وقد حظي المسجد الأقصى كغيره من المساجد الجامعة بحلقات العلم والتدريس والمناظرة، وذكر ابن عربي أنها بلغت في القرن الخامس الهجري ثمان وعشرين حلقة، وكان التركيز يدور في تلك الحلقات على ثلاثة علوم هي:

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، طبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ٥/ ٢٩٥، ٢٩٦
(٢) ابن جبير ، الرحلة ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٤م ص ٢٤٤.
(٣) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٤٥.
(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٤٥
(٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٥/ ٢٩٥ أحمد فكري ، مساجد القاهرة مدارسها، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٦٩م ، ٢/ ١٤٤
(٦) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٥/ ٢٩٤ أحمد فكري ، المرجع السابق ص ٢٧.
(٧) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٤٥

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

علم الكلام وأصول الفقه، ومسائل الخلاف[١]، وبقي التدريس قائماً في المساجد قروناً طويلة منذ العصر الإسلامي الأول.

وقد اختلف المؤرخون في نشأة المدارس في الإسلام، فأول إشارة للمدارس ذكرها المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم الذي ألفه سنة ٣٧٥هـ (٩٨٥م)[٢]. فذكر أنه اختلف إلى المدارس عند جمعه مادة كتابه فقال: (وتزهدت وتعبدت وفقهت وأدبت وخطبت على المنابر وأذنت على المنائر وأقمت في المساجد وذكرت في الجوامع واختلفت إلى المدارس ودعوت في المحافل)[٣]. واعتبر المؤرخون أن نيسابور الموطن الذي نشأت المدارس فيه أو انتشرت منه وذلك بعد (الأربعمائة) من الهجرة (أوائل القرن الحادي الميلادي)، وإن أقدمها عهداً مدرسة ابن فورك قبيل سنة ٤٠٦هـ (١٠١٥م)[٤]. ولكن المقريزي ذكر أن (المدارس مما حدث في الإسلام ولم تكن تعرف في زمن الصحابة ولا التابعين، وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سني الهجرة، وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور، فبنيت بها المدرسة البيهقية)[٥]، نسبة إلى

(١) إحسان عباس ، المرجع السابق ، ص ٢٧.

(٢) المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ٨

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٤، أحمد فكري ، مساجد القاهرة ، ٢/ ١٥١

(٤) الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ٢/ ٢ فسبادن ، ١٩٧٤م ص ٣٤٤. وأنظر : السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل ، القاهرة ، ١٩٦٨م، ٢/ ٢٥٥. محمد بن الحسن بن فورك، عالم جليل له تصانيف جمة في الكلام بلغت مصنفاته قريباً من مائة، كان رجلاً صالحاً له مناظرات ، استوطن نيسابور وبنى له بها مدرسة ، وأحيى الله به أنواعاً من العلوم ، كانت وفاته سنة ٤٠٦هـ. (الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ٢/ ٣٤٤) ، نيسابور : مدينة عظيمة في خراسان، ذات فضائل جسيمة ، وصفت بأنها معدن الفضلاء ومنبع العلماء معجم البلدان ، ط دار صادر، بيروت ١٩٥٧م، ٥/ ٣٣٢) .

(٥) المقريزي، الخطط ، ط بولاق سنة ١٢٧٠هـ ، صورة بالاوفست عن دار الكتاب اللبناني ، ٣/ ٣١٤ وأنظر : السوطي ، حسن المحاضرة ، ٢/ ٢٥٥.

أبي بكر البيهقي المتوفي سنة ٤٥٨هـ (١٠٦٦م)[١].

ثم انتشرت المدارس بعد هذا التاريخ على يد نظام الملك الوزير السلجوقي المشهور (ت ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م)، فمنذ أن تولى الوزارة في سنة ٤٥٥هـ (١٠٣٦م) إهتم ببناء المدارس (فبنى ببغداد مدرسة ورباطاً وبنى مدرسة ببلخ ومدرسة بنيسابور ومدرسة بهراة ومدرسة بأصبهان، ومدرسة بالبصرة ومدرسة بمرو، ومدرسة بأمل طبرستان، ومدرسة بالموصل، ويقال أن له في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة)[٢]. ويرى السبكي والمقريزي أن المدرسة النظامية ببغداد أشهر ما بني من المدارس قديماً، لأنها أول مدرسة قرر بها للفقهاء والطلبة معاليم معينة[٣].

وقد أشارت المصادر إلى وجود (المدارس) في بيت المقدس، في الفترة نفسها، فابن عربي ذكر عند زيارته لبيت المقدس في أواخر القرن الخامس الهجري عن دخوله إلى (مدارس) الحنفية والشافعية، وميز منها مدرستين الأولى مدرسة الشافعية بباب الأسباط. ونرى أن هذه المدرسة هي التي أطلق عليها فيما بعد (المدرسة النصرية) أو الناصرية نسبة إلى الشيخ نصر بن ابراهيم بن نصر بن ابراهيم بن داود المقدسي الشافعي (ت ٤٩٠هـ)، وبهذه المدرسة اعتكف أبو حامد الغزالي سنة ٤٨٨هـ وشرع في كتابة سفره الكبير (أحياء علوم الدين)[٤]. والثانية مدرسة أبي عقبة الحنفية جوار كنيسة القيامة[٥].

---

(١) أحمد بن الحسن بن علي بن عبد الله البيهقي النيسابوري، كان أحد الأئمة المسلمين وهداة المؤمنين والدعاة إلى حبل الله المتين ، فقيه جليل حافظ كبير ، ولد سنة ٣٨٤هـ رحل في طلب العلم وشيوخه اكثر من مائة ، اشتغل بالتصنيف وصف بأنه كان أوحد زمانه وأحذق المحدثين وأحدهم ذهناً وأسرعهم فهماً، بلغت تصانيفه ألف جزء، توفي بنيسابور سنة٤٥٨هـ (السبكي ، طبقات الشافعية ، ط٢ على الأوفست ، دار المعرفة ، بيروف ، ٣/ ٤ - ٥).

(٢) السبكي ، طبقات الشافعية ، ٣/ ١٣٧

(٣) السبكي ، المصدر نفسه ، ٣/ ١٣٧ المقريزي ، الخطط ، ٣/ ٣١٤

(٤) الأنس الجليل ، ٢/ ٣٤، عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، مطبعة المعارف القدس ، ١٩٦١م ، ١/ ٢٤٠

(٥) إحسان عباس ، المرجع السابق ، ص ٢٦، ٢٧

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

ولكننا نشير إلى أن بلاد الشام عرفت المدارس قبل ذلك بقرن من الزمان، أي من القرن الرابع الهجري، فالمقدسي أشار إلى (المدارس) سنة ٣٧٥هـ، ثم أن المدرسة الصادرية بدمشق أسست سنة ٣٩١هـ[١]، وبذا تكون بلاد الشام قد عرفت المدارس قبل نظام الملك، وكانت هذه المدارس موئل العلماء والفقهاء، يرتادونها من جميع أنحاء العالم الإسلامي. أما عن النظامية في بغداد فذكر السبكي والمقريزي أنها (أشهر ما بني من المدارس) لأنها أول مدرسة قرر فيها للفقهاء والطلاب المعاليم (الرواتب) ولم تكن أقدمها. لذا فإننا نتحفظ على ما أورده المقريزي في خططه من أن أهل نيسابور هم أول من بنوا مدرسة في الإسلام، فالأدلة التي أوردناها سابقاً تشير إلى أن المدارس وجدت في القدس ودمشق قبل سنة ٤٠٦هـ، هذا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن بلاد الشام عرفت المدارس منذ العصر الروماني. ومن هنا فلن ندعي خطأ إذا قلنا أن المدارس نشأت في بلاد الشام وفي دمشق وبيت المقدس بالذات قبل نيسابور، وأن العلماء من المغرب والمشرق أموا تلك المدارس وأقاموا فيها.

ثم انتشرت المدارس وازدادت في العصر الأيوبي، فالأيوبيون اهتموا ببناء المدارس في مصر والشام لنشر المذهب الشافعي والقضاء على المذهب الشيعي بعدما أنهوا الخلافة الفاطمية الشيعية. ويحدثنا ابن جبير الذي زار العراق والشام في أوائل سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) عن وجود ثلاثين مدرسة في بغداد أشهرها المدرسة النظامية التي بناها الوزير نظام الملك[٢]. ووجد في حلب ست مدارس وبيمارستان واحد[٣]، أما حماه فوجد فيها ثلاث مدارس وبيمارستان[٤]، وفي

(١) أحمد فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ٢/ ١٥٤

(٢) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٢٠٥

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٢٨

(٤) المصدر نفسه ، ص ٢٣٠

حمص مدرسة واحدة وبيمارستاناً واحداً[١]، أما فلسطين ومدن الساحل الشامي فكانت تحت الاحتلال الصليبي.

وبعد أن حرر صلاح الدين الأيوبي المدينة المقدسة سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) رتب أمور المدينة وأنشأ فيها الخانقاه الصلاحية جوار كنيسة القيامة، وجعلها للصوفية، وأنشأ مدرسة للفقهاء الشافعية عند باب الأسباط ووقف عليها الوقوف العديدة[٢]. وبعد صلح الرملة سنة ٥٨٨هـ (١١٩٢م) زار صلاح الدين بيت المقدس وفوض الولاية به للأمير عز الدين جرديك، وفوض الأمير علم الدين قيصر أعمال الخليل وعسقلان وغزة والداروم، وجعل الكنيسة المجاورة لدار الاسبتار بقرب كنيسة القيامة بيمارستانا للمرضى. وفوض النظر في أوقاف هذه المؤسسات العلمية والاجتماعية إلى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع المعروف بابن شداد صاحب كتاب (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية)[٣].

ثم زاد انتشار المدارس في بلاد الشام في العصر الأيوبي وأوائل العصر المملوكي، فذكر ابن شداد عز الدين محمد (ت ٦٨٤هـ) في كتابه الأعلاق الخطيرة عن وجود ست وأربعين مدرسة في مدينة حلب وظاهرها[٤]. أما مدارس دمشق فبلغت في عهد ابن شداد تسعين مدرسة للمذاهب الأربعة[٥]. وكانت المدرسة المستنصرية التي بناها الخليفة العباسي المستنصر بالله ٦٢٣-٦٤٠هـ (١٢٢٦-١٢٤٢م) في بغداد خير نموذج لمدارس هذا العصر، فقد وصفت بأنها أول جامعة في العالم الإسلامي اهتمت بتدريس علوم القرآن، والسنة والفقه

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٥٥

(٢) العماد الكاتب ، الفتح القسّي في الفتح القدسي ، تحقيق محمد صبح ، القاهرة ١٩٦٥م ، ص ١٤٥

(٣) العماد الكاتب ، المصدر السابق ، ص ٦١١، ٦١٢

(٤) ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ، ١/١، دمشق، ١٩٥٣م، ص ٩٦-١٠٧.

(٥) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، الجزء الخاص بتاريخ دمشق ، ١٩٥٦م، ص ١٩٩-٢٥٩.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وعلوم اللغة العربية والرياضيات، وعلم الطب، وقسمة الفرائض والتركات، ومنافع الحيوان، وحفظ قوام الصحة وتقويم الأبدان، وبذا جمعت معظم العلوم العقلية والدينية واللغوية[١].

وقد شهد بيت المقدس في العصر المملوكي قفزة هائلة في بناء المدارس والأربطة والخوانق والزوايا، وانسحب ذلك على مصر وبلاد الشام. فاهتم السلاطين والأمراء بإقامة المنشآت العلمية والدينية والخيرية والاجتماعية في بيت المقدس لتوفير أسباب الحياة الطيبة لرواد وسكان القدس وتنشيطه بعد تحرره من الخوف والغربة الطويلة بيد الفرنج. فجعلوا منه (نيابة مستقلة) وجعلوا فيه نائبا برتبة كبيرة، وأقاموا عشرات الأبنية ووقفوا فيه الوقوف الهائلة. فأصبح بيت المقدس في العصر المملوكي قبلة العلماء والأدباء وطلاب العلم من المغرب والمشرق، وأضحى بؤرة إشعاع فكري وحضاري في بلاد الشام، وأمه العلماء والفقهاء وأصحاب الفكر من جميع أنحاء العالم الإسلامي للإقامة والتحصيل، فازدادت مدارسه فبلغت نيفا وأربعين مدرسة. وقد قامت دراسات وأبحاث عديدة قديمة وحديثة عن مدارس بيت المقدس منها ما ذكره ابن فضل لله العمري في كتابه مسالك الأبصار، ولكن الحنبلي أسهب في ذكر مدارس القدس في كتابه الأنس الجليل، الذي يعتبر بحق خير مصدر عن تاريخ القدس في العصر الوسيط ودراسة للمنهاجي السيوطي في مخطوطه إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى ذكر فيها بعض المدارس. وهناك دراسات حديثة عن هذه المدارس في مقدمتها كتاب فإن برشيم *(Van Berchem)* الخاص بالقدس يتحدث فيه عن هذه المدارس ونقوشها ورسم مخططات لبعضها. ثم كتاب المفصل في تاريخ القدس لعارف العارف، وتعرض محمد كرد علي لهذه

(١) ناجي معروف، تاريخ علماء المستنصرية، ص ٢، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٥م، ١/ ٢٧.

المدارس في كتابه خطط الشام. ولا بد من ذكر جهود المدرسة البريطانية لعلم الآثار في القدس الذي يقوم مهندسوها وعلماؤها بمساعدة القسم الهندسي بوزارة الأوقاف في القدس برفع العديد من هذه المدارس ورسم مخططاتها. وقد نشرت هذه المدرسة عدة أبحاث عن مدارس القدس في مجلتها ليفانت *(LEVANT)* وأصدرت نشرة بعنوان (الأبنية الأثرية في القدس الإسلامية) سنة ١٩٧٧م أعدها المهندس بورغوين، وهذه النشرة أول فهرس للعمارة الإسلامية في القدس. وصدر في عمان دراسة للزميل المرحوم الدكتور كامل العسلي بعنوان (معاهد العلم في بيت المقدس) سنة ١٩٨٠م. أما دراستي في بحثي هذا عن مدارس القدس فقد توخيت فيها دراسة تلك المدارس التي ما زالت أماكنها معروفة للآن واهتديت بفهرس المهندس بورغوين في ترتيبها، فبدأت أولا بالمدارس الموجودة داخل أروقة الحرم أو المطلة عليه ثم المدارس الموجودة خارج الحرم. واعتمدت في دراسة تلك المدارس على المصادر التاريخية المتوفرة، فطبيعة بحثي تطلبت مني هذه الدراسة، كي يجيء البحث عن (نيابة بيت المقدس) متكاملا من النواحي الطبوغرافية والإدراية والاقتصادية والسكانية والثقافية.

ثانياً: المدارس الموجودة في أروقة الحرم أو المطلة عليه:

معظم أروقة الحرم القدسي من بناء المماليك والقليل منها بني في العصر الأيوبي، والأروقة عبارة عن دعامات حجرية ضخمة تعلوها العقود والقباب، وجميعها مبنية من الحجر. أما أرضيتها فمكسية ببلاطات حجرية وترتفع هذه الأروقة عن ساحة المسجد الأقصى ببضع درجات.

فالأروقة التي بين باب الأسباط وباب حطة بنيت في عهد الملك الأشرف شعبان بن حسين سنة ٧٦٩هـ (١٣٦٧م). أما الأروقة الواقعة بين باب حطة وباب العتم فهي من بناء الملك الأوحد نجم الدين يوسف بن الملك الناصر داود بن

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

المعظم عيسى نائب السلطنة في القدس، وناظر الحرمين الشريفين بالقدس والخليل في عهد السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا سنة ٦٩٤هـ (١٢٩٤م)[١]. أما الأروقة الموجودة غربي باب العتم فهي قديمة إلا أنها جددت سنة ٦١٠هـ (١٢١٣م) في عهد الملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق، وقد أثبت ذلك في لوحة تأسيسية غربي باب العتم عليها النص التالي:

"جدد هذا الرواق في أيام دولة سيدنا ومولاناً السلطان العالم الملك المعظم أبي الفتح عيسى بن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب خلد الله ملكهما في سنة عشر وستمائة والحمد لله وحده، في ولاية الأمير الأجل عز الدين عمر بن يغمور"[٢].

أما السلطان الناصر محمد بن قلاوون فقد بنى سنة ٧٠٧هـ (١٣٠٧م) الأروقة الواقعة بين باب الغوانمة وباب الناظر في الجهة الغربية من ساحة الحرم. وأثبت ذلك في لوحة تأسيسية مثبتة على حائط باب الناظر من الجهة الجنوبية منقوش عليها:

"بسم الله الرحمن الرحيم من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون، أنشئ هذا الرواق المبارك في أيام مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن قلاوون أعز الله أنصاره بنظر العبد الفقير إلى الله بلناق بن خبان الخوارزمي تقبل الله منه وذلك سنة سبع سبعمائة"[٣].

وللناصر محمد بن قلاوون أثار جميلة في المدينة المقدسة، فقد بنى أيضا الأروقة الواقعة غربّي الحرم بين باب السلسلة وباب المغاربة، ونقش ذلك على لوحة رخامية موجودة فوق النافذة الشرقية للمدرسة التنكرية جنوبي

(١) الأنس الجليل، ٢/ ٢٧١.

(٢) مباني الحرم القدسي الشريف، المكتب المعماري الهندسي لاصلاح وعمارة الصخرة المشرفة بالقدس، القاهرة، ص ١٥.

(٣) مباني الحرم القدسي الشريف، المكتب المعماري الهندسي لاصلاح وعمارة الصخرة المشرفة بالقدس، القاهرة، ص ١٦.

باب السلسلة، ونصها:

"بسم الله الرحمن الرحيم أنشئ هذا الرواق في أيام مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون أعز الله أنصاره بنظر الأمير شرف الدين موسى بن حسن الهدباني في سنة ثلاث عشرة وسبع ماية"(١).

أما المدارس الموجودة في هذه الأروقة أو المطلة على الحرم فهي:

١- المدرسة الغادرية:

تقع بين مئذنة باب الأسباط وباب حطة شمالي الحرم، بنتها (مصر خاتون) زوجة الأمير ناصر الدين محمد بن دلغادر سنة ٨٣٦هـ (١٤٣٢م) في عهد الملك الأشرف برسباي سلطان مصر المملوكية. أما لوحتها التأسيسية المثبتة في واجهتها فقد محيت ولم يبق منها سوى الكلمات التالية:

" بسم الله الرحمن الرحيم ... الملك الأشرف خلد الله ملكه وذلك بتاريخ شهر ربيع الآخر من شهور ..."(٢).

ولكن الأستاذ عارف العارف ذكر أن النقش كان نصه ما يلي:

" بسم الله الرحمن الرحيم ، أنشأت هذه المدرسة المباركة الدرّ المصونة مصر خاتون زوجة الأمير ناصر الدين محمد بن القادر في أيام مولانا السلطان الملك الأشرف خلد الله ملكه، وذلك بتاريخ شهر ربيع الآخر من شهور سنة ست وثلاثين وثمانماية"(٣).

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠ وانظر : المنهاجي السيوطي ، اتحاف الأخصا ، لوحة ٤٦ أ (مخطوط) .

(٢) مباني الحرم القدسي الشريف ، ص ١٤

(٣) الأنس الجليل ، ٢/ ٤٠، عارف العارف ، المفصل في تاريخ القدس ، ١/ ، القدس ١٩٦١م ، ص ٢٥٣. التسجيل بقسم الآثار بدائرة الأوقاف الإسلامية بالمسجد الأقصى

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

٢- المدرسة الكريمية:

بنى هذه المدرسة كريم الدين عبد الكريم ابن المعلم بن هبة الله بن السديد، ناظر الخاص السلطانية سنة ٧١٨هـ (١٣١٨م) في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون. وتقع المدرسة شمالي الحرم ملاصقة لباب خطة من جهة الشرق، وذكر ابن فضل الله العمري أن طول هذه المدرسة من جهة الشرق، وذكر ابن فضل الله العمري أن طول هذه المدرسة من الشرق إلى الغرب خمسة وعشرون ذراعا. وفي سنة ٧٢٥هـ (١٣٢٥م) زارها الرحالة ابن بطوطة وعدّها خانقاة، وقال ان من فضلاء القدس (شيخ الخانقاه الكربمية أبو عبد الله محمد بن مثبت الغرناطي نزيل القدس)[١].

٣- المدرسة الباسطية:

تقع بالقرب من باب العتم شمالي الحرم ، وتطل على المدرسة الدويدارية وأول من اختطها وقصد عمارتها شيخ الإسلام شمس الدين محمد الهروي شيخ المدرسة الصلاحية وناظر الحرمين ، إلا أنه توفي قبل إتمامها ، فأكمل عمارتها القاضي زين الدين عبد الباسط بن خليل الدمشقي ناظر الجيوش وذلك سنة ٨٣٤هـ (١٤٣٠م) في عهد السلطان الأشرف برسباي ، وقد استغلت هي

(١) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي ، القاهرة ، ١٩٢٤م ، ١/ ١٥٧، ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، دار التراث بيروت ١٩٦٨م، ص ٥٥ الأنس الجليل ، ٢/ ٣٩، عارف العارف ، المفصل ١/ ٢٤٤، كريم الدين عبد الكريم ابن المعلم بن هبة الله بن السديد ، ناظر الخاص ووكيل السلطان وعظيم دولته وهو أول من باشر هذه الوظيفة بتجمل ولم تكن تعرف أولاً، أصله من كتبة النصارى ثم اسلم كهلاً في أيام السلطان بيبرس الجاشنكير وكان كاتبه، ثم أصبح في خدمة الناصر محمد بن قلاوون فعينه ناظراً للخاص وهو من جملة من ناله السعادة والوجاهة عنده وصار أعز الناس عليه. إلا أن السلطان غضب منه فأخرجه إلى الشوبك ثم نقله إلى القدس ثم أرسله إلى سجن أسوان. وقيل أن كريم الدين شنق بعمامته، وقيل أن الناصر محمد أمر بقتله سنة ٧٢٢هـ (١٣٢٢م) ، (النجوم الزاهرة ، ٩/ ٧٥، ٧٦ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ط مطابع الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٠م، ص ١٣٨)

والدويدارية للتدريس في الوقت الحاضر[١] .

٤- المدرسة الأمينيّة:

تقع في الجهة الشمالية من الحرم الى الغرب من باب العتم (شرف الأنبياء)، نعتها ابن فضل الله العمري (بزاوية الصاحب أمين الدين المعروف بأمين الملك)، وذكر بأنه يمكن الصعود إليها من الرواق الواقع غربي باب العتم. بنى هذه المدرسة الصاحب أمين الدين عبد الله سنة ٧٣٠هـ (١٣٢٩م) في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون. وفي الطابق الأرضي منها ودفن عدد من آل الإمام وعلمائهم منهم: الشيخ اسعد الامام، والشيخ يوسف، والشيخ محمد صالح، والشيخ إبراهيم، ودفن معهم أيضاً الشيخ يحيى شرف الدين بن قاضي الصلت. تحولت المدرسة في الوقت الحاضر إلى دار للسكن[٢].

٥- المدرسة الفارسية:

تقع داخل الحرم في جهته الشمالية، متوسطة بين الأمينيّة شرقاً والملكية غرباً. واقفها الأمير فارس البكي ين الأمير قطلو ملك ابن عبد الله نائب السلطنة بالأعمال الساحلية والجبلية ونائب غزة ٧٥٠هـ (١٣٤٩م في عهد السلطان محمد بن قلاوون وفيما بعد تحولت هذه المدرسة إلى دار للسكن[٣].

٦- المدرسة الملكية:

في الجهة الشمالية من الحرم بين الفارسية من الشرق والمدرسة الاسعرديّة من الغرب على يمين الداخل من باب العتم. بناها الأمير سيف الدين الحاج آل

(١) الأنس الجليل ، ٢/٣٩، عارف العارف ، المفصل ، ص ٢٥٣ التسجيل بقسم الآثار بالمسجد الأقصى

(٢) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، ١/١٥٨. الأنس الجليل ، ٢/٣٩، عارف العارف ، المفصل ، ص ٢٤٥

(٣) الأنس الجليل ، ٢/٣٣ عارف العارف ، المفصل ، ص ٢٤٧ التسجيل بقسم الآثار بالمسجد الأقصى

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

ملك الجواكندار سنة ٧٤١هـ (١٣٤٠م) في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون. ذكرها ابن فضل الله العمري ونعتها (بمدرسة آل ملك)، وذكر أنها فوق الرواق المخصص لصلاة النساء قرب باب شرف الأنبياء (العتم)، ويمكن الصعود إليها من سلم داخل هذا الرواق. وهناك لوحة تأسيسية على حجر رخامي مثبتة على حائطها القبلي المطل على ساحة الحرم نقش عليه النص التالي:

"بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بعمارة هذا المكان المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى الحاج الأمير الجوكندار الملكي الناصري، غفر الله له حياً وميتاً ولمن دعا له بالرحمة والمغفرة. وكان الفراغ منه في شهر الله الحرام غره عام أحد وأربعين وسبعماية من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة والسلام"[(١)] .

وتحولت هذه المدرسة فيما بعد إلى دار للسكن[(٢)].

٧- المدرسة الاسعردية:

تقع شمالي الحرم إلى يمين الداخل من باب العتم بجوار المدرسة الملكية وفوق رواق النساء، ذكرها ابن فضل الله العمري ونعتها (بخانقاة الأسعردي) وقال : إنها تقع والمدرسة الملكية فوق الرواق السالف الذكر، ويصعد إليها من درج داخل ذلك الرواق.

وذكر العمري ان بانيها هو مجد الدين الأسعردي التاجر[(٣)]، ولكن الحنبلي قال ان واقفها الخواجا مجد الدين عبد الغني بن سيف الدين أبي بكر بن يوسف الأسعردي سنة ٧٧٠هـ (١٣٦٨م)[(٤)] ، وذكر العارف أنها بنيت حوالي سنة

(١) راجع النص في مباني الحرم القدسي الشريف ، ص ١٥.

(٢) وعن المدرسة أنظر: ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، ١/ ١٥٩، الأنس الجليل ٢/ ٣٨، عارف العارف ، المفصل ، ص ٢٤٦

(٣) ابن فضل الله العمري ، المصدر السابق ، ص ١٥٩

(٤) الأنس الجليل ، ٢/ ٣٨.

٧٦٠هـ (١٣٥٨م)[١] . إلا أننا نرى غير ذلك، فالمدرسة ذكرها العمري الذي توفي سنة ٧٤٩هـ، فهي إذن موجودة قبل هذا التاريخ، ونرى أن التاريخ الذي أورده الحنبلي هو تاريخ حجة الوقف وليس البناء. وقد رممت المدرسة حديثاً واستخدم قسم منها داراً للكتب وقسم للسكن.

٨- المدرسة الصبيبة أو النصيبية:

تقع في الجهة الشمالية من الحرم بجوار المدرسة الجاولية، بناها الأمير علاء الدين علي بن ناصر الدين الكركي عندما تولى نيابة بيت المقدس. وكان علاء الدين قد تولى نيابة قلعة الصبيبة وقلعة نصيبين قبل توليه القدس، وتوفي في دمشق سنة ٨٠٩هـ (١٤٠٦م) في عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق فنقل جثمانه إلى القدس ودفن في مدرسته[٢]. وقد أضيفت هذه المدرسة حديثاً إلى المدرسة الجاولية لتشغلها المدرسة العمرية الحالية مع مجموعة من الأبنية الأخرى.

٩- المدرسة الجاولية:

تقع في الركن الشمالي الغربي من المسجد الأقصى قرب منارة الغوانمة مطلة على الحرم، ذكرها ابن فضل الله العمري فقال: (وبأقصى ارتفاع هذا السور خمسة شبابيك لمدرسة علم الدين سنجر الجاولي رحمه الله وليس لها استطراق إلى الحرم)[٣] . والملاحظ أن جدران المدرسة المطلة على الحرم بنيت فوق منطقة صخرية تستطيع ملاحظتها عندما تقف اسفل هذا الجدار من داخل الحرم. وبأني هذه المدرسة الأمير علم الدين سنجر الجاولي بحدود سنة

(١) عارف العارف ، المفصل ، ص ٢٤٨.

(٢) الأنس الجليل ، ٣٨/٢، محمد كرد علي ، خطط الشام ، ١١٩/٦، عارف العارف ، المفصل ، ص ٢٥٢

(٣) ابن فضل الله العمري ، المصدر السابق ، ص ١٥٩

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

٧١٣هـ (١٣١٢م) في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون، ففي هذه السنة كان سنجر الجاولي نائباً في غزة وبالإضافة إلى نيابة غزة عهد إليه السلطان ولاية القدس وبلد الخليل ونابلس وقاتون ولد والرملة. ثم انتدبه السلطان في نفس السنة لإيصال الماء من عين الخليل إلى القدس (ولم يزل مجداً في العمارة مصراً على اعتماد الإشارة إلى أن فار الماء بالبيت المقدس بعد فراره)[١]

وقد ناقشت في الفصل الأول من هذه الدراسة تاريخ تحول هذه المدرسة إلى (دار للنيابة)، وفي رأينا أن التحول تم بعد سن ٧٩٦هـ، ثم اتخذها النواب في أواخر القرن التاسع الهجري مكاناً لسكناهم، وذلك في حياة مجير الدين الحنبلي فيقول (وهي التي صارت في عصرنا سكناً للنواب بالقدس الشريف)[٢]. وتشغل المدرسة العمرية الحالية في القدس مجموعة من الأبنية من ضمنها المدرسة الجاولية[٣].

١٠- المدرسة المحدثية :

تقع عند قبو باب الغوانمة في الركن الشمالي الغربي من ساحة المسجد الأقصى واقفها رجل من أهل العلم والفضل هو المحدث عز الدين أبو محمد عبد العزيز العجمي الأردبيلي سنة ٧٦٢هـ (١٣٦٠م) في عهد السلطان صلاح الدين محمد. وحديثاً أضيف قسم من هذه المدرسة إلى المدرسة العمرية الحالية والباقي ظل داراً للسكنى[٤].

---

(١) ابن حبيب ، درة الاسلاك في دولة الاتراك ج١، لوحة ٩٨(المخطوط)

(٢) الأنس الجليل ، ٢/ ٢٧٢.

(٣) لمزيد من التفاصيل عن هذه المدرسة ، راجع الفصل الأول موضوع (دار النيابة) وعن المدرسة الجاولية انظر : *van Berchem, Jerusalem ville, le caire , 1922, pp.226, 223,240* .

(٤) الأنس الجليل ، ٢/ ٤٣، محمد كرد علي ن خطط الشام ، ٦/ ١٢١، عارف العارف ، المفصل ، ص ٢٤٩، التسجيل بقسم الآثار بالمسجد الأقصى

١١- المدرسة المنجكية:

وتقع في طرف الحرم من الناحية الغربية إلى الشمال من الناظر، فوق مبتدأ الأروقة الغربية للحرم. بناها الأمير سيف الدين منجك بأمر السلطان الناصر حسن، وعندما قتل السلطان سنة ٧٦٢هـ (١٣٦١م) بناها لنفسه فنسبت إليه[١]. وقد إتخذها المجلس الإسلامي الأعلى في القدس مقراً له، صم أصبحت مقراً لرئيس الهيئة الإسلامية ودائرة الأوقاف العامة بالقدس.

١٢- المدرسة الحسنية:

تقع في طرق الحرم من الناحية الغربية جوار باب الناظر، وتعلو أول الأروقة الغربية بالقرب من المدرسة المنجكية. بنيت سنة ٨٣٧هـ (١٤٣٣م)، في عهد السلطان الأشرف برسباي، وواقفها هو الأمير حسن الكشكيلي ناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس[٢]. وقد اتخذها المجلس الإسلامي الأعلى مقراً له هي والمدرسة المنجكية، ثم أصبحت مقراً لدائرة الأوقاف العامة بالقدس.

١٣- المدرسة الجوهرية:

تقع على أمتار قليلة إلى الغرب من باب الحديد تجاه المدرسة الأرغونية أنشأها جوهر القنقباي الخازندار زمام الآدر الشريفة سنة ٨٤٤هـ (١٤٤٠م) في عهد السلطان سيف الدين جقمق، وأثبت ذلك في لوحة تأسيسية نقلها إلينا برشيم هذا نصها :

(١) الأنس الجليل ، ٢/٣٧ ، محمد كرد علي ، خطط الشام، ص٢٤٨، ٢٤٩. عارف العارف، المفصل ، ص ٢٤٨، ٢٤٩

(٢) الأنس الجليل ، ٢/٤٣. محمد كرد علي ، المرجع نفسه ، ١٢١ عارف العارف، المفصل، ص ٢٥٣

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

"بسم الله الرحمن الرحيم - أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة والرباط من فضل الله تعالى العبد الفقير إلى الله تعالى جوهر القنقباي الخازندار وزمام الآدر الشريفة الملكي الظاهري وشيخ المشايخ خدم (؟) الحرم الشريف النبوي ابتغاء وجه الله الكريم وكان الفراغ منه في مستهل رجب الفرد سنة أربع وأربعين وثمان مائة"[(١)].

كانت المدرسة الجوهرية من المدارس المهمة في بيت المقدس، وتولى التدريس فيها نخبة من العلماء منهم كمال الدين محمد بن أبي شرف المقدسي، والشيخ محمود الديري، وقد تحولت فيما بعد إلى دار للسكنى[(٢)].

١٤- المدرسة الأرغونية :

وتقع في الجهة الغربية من الحرم بباب الحديد على يسار الخارج منه[(٣)]، تجاه المدرسة الجوهرية، ملاصقة للمدرسة الخاتونية. شرع في إنشائها الأمير أرغون الكاملي نائب الشام، ولكنه توفي سنة ٧٥٨هـ (١٣٥٧م) قبل إتمام عمارتها، فتولى إكمالها الأمير ركن الدين بيبرس السيفي سنة ٧٥٩هـ (١٣٥٧م) في عهد السلطان الناصر حسن ونقش ذلك بخط نسخي جميل على بلاطة جاء فيها :

"بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بإنشاء هذه التربة والمدرسة المباركة المقر الأشرف السيفي أرغون الكاملي نائب السلطنة الشريفة بالشام المحروس، توفي إلى رحمة الله تعالى ثامن عشر شوال سنة ثمان وخمسين وسبعمائة وتولى شدها وتكميلها ركن الدين بيبرس السيفي، وأكملت في ربيع الآخر سنة تسع وخمسين وسبع مائة".

---

(١) *Van Berchem , pp. 327-328.*

(٢) الأنس الجليل ، ٢/ ٣٧ محمد كرد علي ، المرجع السابق ، ص ١١٨ عارف العارف ، المفصل ، ص ٢٥٤.

(٣) المنهاجي السيوطي ، أتحاف الأخصا ، لوحة ٤٦ أ (مخطوط) .

وأرغون هو الذي استجد بناء (باب الحديد) الذي كان يطلق عليه سابقاً (باب أرغون)، فأرغون بالتركي تعني (حديد)[١]، ورسم برشيم مخططاً لهذه المدرسة في كتابه الخاص بنقوش وآثار بيت المقدس[٢]، ويوجد فيها قبر أرغون شاه، وتحولت فيما بعد إلى دار للسكنى[٣].

١٥- المدرسة المزهرية:

تقع في الجهة الغربية من ساحة الحرم بباب الحديد تجاه المدرسة الجوهرية، وبعضها راكب على ظهر المدرسة الأرغونية، بناها الزيني أبو بكر بن مزهر الأنصاري صاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية سنة ٨٨٥هـ (١٤٨٠م) في عهد السلطان الأشرف قايتباي، وقد تحولت فيما بعد إلى دار للسكنى[٤].

١٦- المدرسة الخاتونية :

وتقع غربي الحرم إلى الشمال من باب القطانين وجنوبي المدرسة الأرغونية، واقفتها (أغل خاتون) بنت شمس الدين محمد بن سيف الدين القازانية البغدادية سنة ٧٥٥هـ (١٣٥٤م) في عهد السلطان الناصر حسن. وقد زيد بناء هذه المدرسة من قبل الأميرة أصفهان شاه بنت الأمير قازان شاه ووقفتها سنة ٧٨٢هـ (١٣٨٠م) في عهد السلطان المنصور علاء الدين علي، وتحولت المدرسة فيما بعد إلى دار للسكنى، ويوجد فيها قبر خاتون القازانية البغدادية[٥].

---

(١) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، ١/ ١٦١.

(٢) *Van Berchem ,p. 277.*

(٣) الأنس الجليل ، ٢/ ٣٦، ٣٧، محمد كرد علي ، المرجع نفسه ، ص ١١٨، عارف العارف ، المفصل ، ص ٢٤٧.

(٤) الأنس الجليل ، ٢/ ٣٧، عارف العارف ، المفصل ، ص ٢٥٥. التسجيل بقسم الآثار بالمسجد الأقصى.

(٥) الأنس الجليل ، ٢/ ٣٧، عارف العارف ، المفصل، ص ٢٥٥، مباني الحرم القدسي الشريف ، ص ١٨.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

١٧- المدرسة العثمانية:

تقع في الجهة الغربية من الحرم جنوبي باب المطهرة (المتوضئ) تجاه سبيل قايتباي، واقفتها أميرة تركية إسمها أصفهان شاه خاتون بنت محمود العثمانية وتلقب بخانم وذلك سنة ٨٤٠هـ (١٤٣٧م) في عهد السلطان الأشرف برسباي، ووقفت عليها وقوفاً عديدة في بلاد الروم وأثبتت ذلك في لوحة تأسيسية فوق مدخلها نقشت عليه ما يلي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، أمرت بعمارة هذه المدرسة المباركة الست الجليلة المحجبة أسفهان شاه خاتون ابنة المرحوم الأمير محمود العثمانية الشهيرة بخانم لطف الله بها ووفق عليها الانتقال سنة أربعين وثمان مائة، وكان الفراغ من عمارتها في سلخ سنت المذكورة، وذلك بهمة جميع الخواجا ولد صاطي الرومي"[(١)].

ودّرس في هذه المدرسة العديد من العلماء والفقهاء الأفاضل، ثم حولت فيما بعد داراً للسكنى، أما واقفتها فدفنت في التربة المجاورة لسور المسجد الأقصى[(٢)].

١٨- المدرسة السلطانية (الأشرفية):

وتقع في الجهة الغربية من ساحة الحرم شمالي باب السلسلة، وتمتد من باب السكينة أو باب السلام جنوباً حتى المدرسة العثمانية شمالاً[(٣)].

بناها الأمير حسن الظاهري في عهد السلطان الظاهر سيف الدين خوشقدم سنة ٨٧٥هـ (١٤٧٠م) وسميت آنذاك (المدرسة السلطانية). ولكن السلطان

(١) مباني الحرم القدسي الشريف ، ص ١٩ .

(٢) الأنس الجليل ، ٣٦/٢ محمد كرد علي ، خطط الشام ، ١١٨/٦ عارف العارف ، المفصل ، ص ٢٥٤.

(٣) المنهاجي السيوطي ، أتحاف الاخصا ، لوحة ٤٦ أ (مخطوط)

خوشقدم توفي دون أن تتم، فقدمها الأمير حسن للسلطان الأشرف قايتباي فقبلها منه وسميت باسمه (المدرسة الأشرفية). إلا أن السلطان عندما زار القدس سنة ٨٨٠هـ (١٤٧٥م) لم تعجبه فأمر بهدمها وإعادة بنائها، فكملت في سنة ٨٨٧هـ (١٤٨٢م)، وتولى عمارتها القاضي فخر الدين بن نسيبة الخزرجي، وجاءت آية في الإبداع والإتقان حتى أن مجير الدين الحنبلي وصفها بأنها (الجوهرة الثالثة في منطقة الحرم بعد قبة الصخرة وقبة الأقصى). أما مدخلها فهو مدخل مئذنة باب السلسلة، وتطل بعض نوافذها على ساحة المسجد الأقصى وقبة الصخرة. وقد أثبت الأشرف قايتباي تاريخ بنائها في لوحة تأسيسية موجودة على أحد جدرانها الباقية نصها:

"أمر بإنشاء هذه المدرسة الشريفة مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي عز نصره بتاريخ مستهل شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثماني مائة، وذلك في أيام مولانا المعز الأشرف الناصري سيدي محمد الخازندار ناظر الحرمين الشريفين عظم الله شأنه"(١).

وعلى جانب آخر من نفس الجدار نقش آخر نصه:

"أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة الإمام الأعظم والملك المكرم السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي عز نصره، فكان الفراغ من ذلك في شهر رجب الفرد سنة سبع وثمانين وثمانمائة"(٢).

ورسم برشيم مخططاً لهذه المدرسة أثبته في كتابه صفحة ٣٥٢، ولم يبق من هذه المدرسة سوى بعض الجدران، وتشغلها في الوقت الحاضر مدرسة دار الأيتام(٣).

---

(١) *Van Berchem , p. 358.*

(٢) *Ibid ,. P. 359.*

(٣) الأنس الجليل ، ٢/ ٣٥، ٣٩ ، محمد كرد علي ، خطط الشام ، ٦/ ١١٧، ١١٨، عارف العارف ، المفصل ، ص ٢٥٥، ٢٥٦.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

١٩- المدرسة البلدية :

تقع في الجهة الغربية من الحرم إلى الشمال من باب السلام (السكينة) بجوار المدرسة السلطانية وباب السلسلة[١]. كانت تدعى مدرسة (منكلي بغا) نسبة إلى واقفها الأمير سيف الدين منكلي بغا الأحمدي نائب حلب الذي دفن بها سنة ٧٨٢هـ (١٣٨٠م) في عهد السلطان المنصور علاء الدين علي، وعلى باب إحدى فرفها النقش التالي :

"بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه تربة المرحوم السيفي منكلي بغا الأحمدي كافل المملكة الحلبية تغمده الله تعالى برحمته، توفي ودفن بها في جمادي الآخر سنة إثنتين وثمانين وسبع مائة"[٢].

والمدرسة في الوقت الحاضر تابعة لأوقاف القدس[٣].

٢٠- المدرسة التنكزية:

تقع بخط باب السلسلة في الجهة الغربية من الحرم، بناها الأمير تنكز بن عبد الله نائب دمشق سنة ٧٢٩هـ (١٣٢٨م) في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون. وصفت بأنها "مدرسة عظيمة ليس في المدارس أتقن من بنائها"[٤]، وللمدرسة بابان شرقي مطل على ساحة الحرم، وآخر شمالي خارج الحرم عن يمين الخارج من باب السلسلة. وللمدرسة التنكزية شباكان في الرواق الكائن بين باب السلسلة وباب المغاربة وصفها ابن فضل الله العمري فقال: (وهذا الرواق فيه شباكان للمدرسة التنكزية، أبوابهما من

(١) المنهاجي السيوطي ، أتحاف الاخصا ، لوحة ٤٦أ (مخطوط)

(٢) مباني الحرم القدسي الشريف ، ص ١٩

(٣) الأنس الجليل ، ٢/ ٣٥، محمد كرد علي ، خطط الشام ، ٦/ ١١٧، عارف العارف ، المفصل ، ص ٢٥١، . *Van Berchem*

(٤) الأنس الجليل ، ٢/ ٣٥

الأبنوس والعاج)[١]. وفي أخر هذا الرواق يوجد باب يصعد منه إلى أعلى المدرسة وسكن الصوفية. وذكر العمري أيضاً أن ظهر هذا الرواق (حامل للخانقاه التنكزية)[٢]، وباعتقادنا أن المدرسة قامت بوظيفة المدرسة والخانقاه في آن واحد، واشتملت على سكن لعدد من الصوفية الذين رتبوا فيها. رسم برشيم مخططاً لهذه المدرسة في كتابه الخاص بآثار ونقوش القدس صفحة ٢٥٣[٣].

وهناك نقش تأسيسي كتب فوق بابها الشمالي نصه:

"بسم الله الرحمن الرحيم ، أنشأ هذا المكان المبارك راجياً ثواب الله وعفوه المقر الكريم السيفي تنكز الملكي الناصري عفا الله عنه وأثابه، وذلك في شهور سنة تسع وعشرين وسبعماية"[٤].

وكان في داخل هذه المدرسة (الخانقاه) مسجد لخدمة طلابها ومدرسيها ويوجد على حائط بهوها القبلي نقش نصه ما يلي:

"البيت الحرام أول مسجد وضع على وجه الأرض وإختار لعبادته مواطن لإقامة السنن والفرض وجعل هذا المسجد جار المسجد الأقصى ونعم الجار الطاهر، وأجرى لبانيه جزيل الثناء والثواب الوافر لقوله تعالى (إنما يعمر مساجد الله من أمن بالله واليوم الآخر)، اختار لعمارة بيوته من رضي فعله وقوله وأطال بالسعد والبذل طوله..."[٥].

وقد استخدم السلاطين هذه المدرسة مكان إقامة لهم عند زيارتهم المدينة

(١) ابن فضل الله العمري ، المصدر السابق ، ص ١٦٣.
(٢) ابن فضل الله العمري ، المصدر نفسه ، ص ١٦٣.
(٣) *Van Berchem , p. 253.*
(٤) مباني الحرم القدسي الشريف ، ص ٢٠
(٥) مباني الحرم القدسي الشريف ، ص ٢٠

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

المقدسة، وفي أحيان كانت مركزاً للقضاة والنواب[١].

ثالثاً: المدارس الموجودة خارج أروقة الحرم:

أ- المدارس الواقعة في الجهة الشمالية من الحرم:

٢١- المدرسة الصلاحية

من أقدم المدارس التي أقيمت في بيت المقدس بعد تحريره من الفرنج، فقد ذكر العماد الكاتب الأصفهاني أن صلاح الدين بعد أن رتب أمور المدينة سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) "فاوض السلطان جلساؤه من العلماء الأبرار والأتقياء الأخيار في مدرسة للفقهاء الشافعية ورباط للعلماء الصوفية، فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصندحنة عند باب الأسباط وعين دار البطرك وهي بقرب كنيسة قمامة للرباط ووقف عليهما وقوفا وأسدى بذلك إلى الطائفين معروفا"[٢]. ويذكر ابن واصل أن كنيسة صندحنة صارت في الإسلام (دار علم)، وكان يدرس بها العلم الفقيه نصر بن ابراهيم المقدسي الشافعي (ت ٤٩٠هـ) قبيل أخذ الفرنج للقدس، وبعد الاحتلال الصليبي للقدس أعادوها كنيسة كما كانت قبل الإسلام، ولما فتح صلاح الدين القدس أعادها مدرسة[٣].

والمدرسة الصلاحية تقع على بضعة أمتار من سور القدس الشرقي قرب باب الأسباط في الجهة الشمالية من الحرم. وبعد صلح الرملة في سنة ٥٨٨هـ (١١٩٢م) زار صلاح الدين المدينة المقدسة، فزاد في أوقاف المدرسة وفوض النظر في أوقافها للقاضي بهاء الدين يوسف بن رافع المعروف بابن شداد[٤].

(١) ٦) الأنس الجليل ، ٢/ ٣٥، محمد كرد علي ، المرجع السابق ، ص ١١٧، عارف العارف ، المفصل ، ص ٢٢٤، ٢٤٥.

(٢) العماد الكاتب ، الفتح القسي ، ص ١٤٥، وانظر : المنهاجي السيوطي ، اتحاف الاخصا، لوحة ٧٣ ب (مخطوط)

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٢/ ٤٠٧

(٤) العماد الكاتب ، المصدر السابق ، ص ٦١٢

وكتب هذه الوقفية على قطعة رخامية أثبتت على باب المدرسة وما زالت للآن هذا نصها:

" بسم الله الرحمن الرحيم ، وما بكم من نعمة فمن الله هذه المدرسة المباركة وقفها مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين أبي المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي محي دولة أمير المؤمنين، أعز الله أنصاره وجمع له بين خير الدنيا والآخرة على الفقهاء من أصحاب الإمام أبي عبد الله محمد بن ادريس الشافعي رضي الله عنه سنة ثمان وثمنين وخمس مئة "(١).

ومن خلال ما أورده العماد الكاتب نرى أن المدرسة أسست في سنة ٥٨٣هـ، أما كتاب الوقفية فكان بتاريخ ٥٨٨هـ حسب ما ورد في النقش السابق وما ذكره العماد في أحداث سنة ٥٨٨هـ أيضا. وكانت هذه المدرسة من أجل المدارس في بيت المقدس، ولا يتولى المشيخة فيها إلا من شهد له بالعلم والفضل. ويتم ذلك بمرسوم سلطاني من القاهرة، وكان لشيخ الصلاحية تقديره واحترامه الخاص لدى الملوك والسلاطين(٢).

وبقيت هذه المدرسة تؤدي دورها طيلة العصر المملوكي، ولكن الأتراك تنازلوا عنها في سنة ١٨٥٦م للفرنسيين مكافأة لهم على مساعدتهم إياهم في حرب القرم ضد الروس. فسلمها السلطان عبد الحميد لنابليون الثالث، فمنحها الفرنسيون للآباء البيض الذين جعلوها مدرسة اكليركية. ولكن الأتراك وضعوا أيديهم عليها سنة ١٩١٥م فجعلها جمال باشا مدرسة عصرية لتعليم العلوم الدينية باسمها القديم (الصلاحية). وتوجد لوحة كبيرة في المتحف الإسلامي بالقدس عليها جدول الدروس التي كانت تعطى في الصلاحية آنذاك وتشمل العلوم الدينية

(١) *Van Berchem , p. 92.*

(٢) لمزيد من التفاصيل عن وظيفة شيخ الصلاحية انظر من هذه الدراسة (مشيخة الصلاحية)

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

واللغوية والعلوم الرياضية، والعلوم الحقوقية، والفلسفية والطبيعية، وعلم الاقتصاد والمالية والتاريخ.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى أعادها الإنجليز في سنة ١٩١٧م إلى الآباء البيض، وذلك بعد احتلالهم للقدس وفلسطين. فأعاد الآباء البيض فتح المدرسة الأكليركية فيها وأقاموا بداخلها متحفا ومكتبة وكنيسة وما زالت باقية حتى الوقت الحاضر[١].

٢٢- المدرسة الكاملية :

تقع خارج المسجد الأقصى في الجهة الشمالية بجوار المدرسة الكريمية، يتوصل إليها عن طريق باب حطة وهي على يسار الطريق الموصلة بين باب حطة وطريق باب الأسباط. واقفها الحاج كامل من أهل طرابلس سنة ٨١٦هـ (١٤١٣م) وصارت فيما بعد دارا للسكنى[٢].

٢٣- المدرسة الدوادارية:

تقع خارج الحرم في الشمال منه قرب المدرسة السلامية على يمين الطريق الموصلة بين باب العتم وطريق باب الأسباط. أطلق عليها (الخانقاه الداودارية أو دار الصالحين)، وسماها ابن فضل الله العمري (بالرباط العلمي الدواداري)[٣]. بناها الأمير علم الدين أبو موسى سنجر بن عبد الله الدوادار الصالحي النجمي سنة ٦٩٥هـ (١٢٩٥م) في عهد السلطان الأيوبي الملك

(١) الأنس الجليل ، ٢/ ٤١، محمد كرد علي ، المرجع السابق ، ١٢٠، عارف العارف ، المفصل ، ص ٢٣٨، ٢٣٩.

(٢) الأنس الجليل ، ٢/ ٤٢ محمد كرد علي ، المرجع السابق ، ص ١٢١ عارف العارف ، المفصل ، ص ٢٥٢.

(٣) ابن فضل الله العمري ، المرجع السابق ، ص ١٥٨.

الصالح نجم الدين أيوب وتاريخ وقفها سنة ٦٩٦هـ (١٢٩٦م)[١]. ونص كتاب الوقف أن تستقبل الخانقاه ثلاثين نفرا من الصوفية والمتصوفة عربا وعجما منهم عشرون عزابا وعشرة مزوجون يقيمون في الخانقاه صيفا وشتاء، ونصت الوقفية أن الأوقاف التي وقفها على هذه الخانقاه تشمل قرية بير نبالا قرب القدس، وقرية حجلا قرب أريحا أما في نابلس فقد وقف عليها دارا ومصبنة وست حوانيت وورّاقة وحمام الملكة. ونصت الوقفية على وقف ثلاثة بساتين وثلاثة حوانيت وأربع طواحين في بيسان وفرنا وطاحونا في القدس. ثم تعرضت الوقفية إلى أسلوب التدريس والعمل في الخانقاة وعدد من يقومون بالتدريس والتلاوة. ونقش هذه الوقفية على لوح رخامي أثبته على بابها الخارجي نصها ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه الخانقاه المباركة المسماه بدار الصالحين العبد الفقير إلى الله تعالى عبد الله بن عبد ربه ابن عبد الباري سنجر الدواداري الصالحي ووقفها ابتغاء وجه الله تعالى على ثلاثين نفرا من الطائفة الصوفية والمتصوفة من العرب والعجم منهم عشرون نفرا عزابا وعشرة مزوجون مقيمون بها لا يظعنون عنها صيفا ولا شتاء ولا ربيعا ولا خريفا إلا لحاجة وعلى ضيافة من يرد إليها من الصوفية والمتصوفة مدة عشرة أيام، ووقف عليها قرية بير نبالا من القدس الشريف وقرية حجلا من أريحا وفرن وطاحون وعلوهما بالقدس ودار ومصبنة وست حوانيت ووراقة بنابلس وثلاثة بساتين وثلاث حوانيت وأربع طواحين ببيسان وقف ذلك على هذه الخانقاه وعلى تدريس مذهب الشافعي وعلى شيخ يسّمع الحديث النبوي وقارئ يقرأ عليه وعلى عشر نفر يسمعون الحديث وعشر نفر يتلون كتاب الله كل يوم ختمة وعلى مادح ينشد مدح النبي كل ذلك بالجامع الأقصى وذلك في مستهل سنة خمس وتسعين وستمائة بتولية الفقير إلى الله سنجر القيمري عفا الله عنه ومن جملة وقف هذه

(١) الأنس الجليل، ٢/ ٣٩.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الخانقاه المباركة ووظائفها المذكورة قرية طبرس من قاقون وحمام الملكة من نابلس المحروسة عمل المعلم على يد سلامة المهندس "[١].

وما زالت المدرسة باقية للآن تقوم بمهمتها التعليمية وتشغلها في الوقت الحاضر (المدرسة البكرية الابتدائية للذكور).

٢٤- المدرسة السلامية:

وتقع خارج الحرم من جهته الشمالية إلى الشمال من المدرسة الدوادارية على الطريق الخارجة من باب العتم والموصلة إلى طريق باب الأسباط. واقفها الخواجا مجد الدين أبو الفدا إسماعيل الإسلامي بعد سنة ٧٠٠هـ (١٣٠٠م) ثم صارت دارا للسكنى وما زالت باقية للآن[٢].

٢٥- المدرسة المعظمية:

تقع في الجهة الشمالية من الحرم مقابل باب العتم، وتوصل إليها عن طريق باب الأسباط. بناها الملك المعظم عيسى صاحب دمشق سنة ٦١٤هـ (١٢١٧م)، وهناك لوحة تأسيسية ما تزال موجودة في جدارها القبلي الداخلي منقوش عليها ما يلي:

"أمر بعمله مولانا السلطان الملك المعظم شرف الدنيا والدين أبو العزائم عيسى بن أبي بكر بن أيوب الواقف لهذه المدرسة على الفقهاء والمتفقهة من أصحاب الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه وأرضاه، وذلك في شهور سنة أربع عشرة وستمائة للهجرة النبوية تقبل الله منه وغفر له وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما "[٣].

---

(١) *Van Berchem , p. 214.*

(٢) الأنس الجليل ، ٢/ ٤٢، عارف العارف ، المفصل ، ص ٢٤٣ ، التسجيل بقسم الآثار بالحرم القدسي الشريف .

(٣) مباني الحرم القدسي الشريف ، ص ١٤ . *Van Berchem , p. 171.*

وقد قام الملك الظاهر ابن الملك المعظم عيسى في زيادة بناء هذه المدرسة من جملتها المنارة التي ما زالت باقية للآن في سنة ٦٧٣هـ (١٢٧٤م) في عهد السلطان الملك الظاهر بيبرس المملوكي، وأثبت ذلك في لوحة تأسيسية مثبتة على جدار المنارة القبلي هذا نصها:

"أمر بعمارة هذه المأذنة المباركة الملك القاهر الناظر بهذه المدرسة غفر الله له وتغمد برحمته والده الواقف السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى قدس الله روحه في شهور سنة ثلاث وسبعين وستمائة"(١).

وكان الملك المعظم عيسى حنفي المذهب عالما فاضلا يجلس إلى العلماء ويناظرهم ويناقشهم ويجزل لهم العطاء، وشجع العلوم العقلية والدراسات الفلسفية والأدبية والدينية وصنف عدة تصانيف حتى عدوه (مأمون بني أيوب). وقد بنى الملك المعظم عيسى مدرسة أخرى داخل حرم المسجد الأقصى، وتقع في الركن الجنوبي الغربي من صحن الصخرة، سماها ابن فضل الله العمري (المدرسة المعظمية)، وتعرف الآن (بالقبة النحوية). وهي مدرسة صغيرة تتألف من غرفتين وصالة، غرفة في الجهة الغربية تعلوها قبة، وغرفة في الجهة الشرقية سقفها أفقي، وبينهما صالة بسقف أفقي أيضا. ويصف العمري هذه المدرسة فيقول: (لها بابان يفتحان للشمال، بخدّهما ثلاثة أعمدة من الرخام، كل عمود به أربعة في جسد واحد ملفوفة مثعبنة، وتلو ذلك عمودان لطاف وارتفاع بنائها تسعة أذرع من أرض صحن الصخرة)(٢).

وقد رتب الملك المعظم لهذه المدرسة إماما مفردا يصلي الصلوات الخمس ورتب بها خمسة وعشرين نفرا من طلبة النحو وشيخا لهم، شرط أن يكونوا حنفية من جملة طلبة مدرسته التي خارج الحرم. ووقف على ذلك قرية بيت لقيا من عمل القدس، وبداخل قبة هذه المدرسة نقش هذا نصه:

(١) *Van Berchem , p. 169.* عارف العارف ، المفصل ، ص ٢٤١.

(٢) ابن فضل الله العمري ، المصدر السابق ، ص ١٤٥، ١٤٦.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

«بسم الله الرحمن الرحيم تبارك الذي أنشأ جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا، أمر بإنشاء هذه القبة المباركة وما يليها من العمارة مولانا السلطان الملك المعظم شرف الدنيا والدين أبو النصر عيسى ولد مولانا الملك العادل سيف الدين سلطان الإسلام والمسلمين أبو بكر بن أيوب أعز الله أنصارهما وجرى ذلك على يد عبده الراجي عفو ربه الأمير حسام الدين أبي سعد قباز بن عبد الله المعظم الوالي بالبيت المقدس الشريف وذلك في شهور سنة أربع وستمائة»[(١)].

والملاحظ أن تاريخ النقش السابق ٦٠٤هـ، إلا أن ابن فضل الله العمري ذكر أن المعظم اهتم بعمارتها سنة ٦٠٨هـ حيث قال : (وعلى سقفها مكتوب أنه اهتم بعمارة ذلك في سنة ثمان وستمائة)[(٢)] .

والمدرسة المعظمية الموجودة خارج الحرم تكاد تكون اليوم مندثرة إلا من بقايا بعض جدرانها، وقد رسم برشيم مخططا تقريبيا لهذه المدرسة في كتابه[(٣)].

ب- المدارس الواقعة في الجهة الغربية من الحرم:

٢٦- المدرسة التشتمرية:

تقع خارج الحرم في الجهة الغربية منه بخط باب الناظر غربي المدرسة الحسنية وبالقرب من رباط علاء الدين البصير والرباط المنصوري. واقفها هو الأمير تشتمر السيفي في عهد الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون سنة ٧٥٩هـ (١٣٥٨م). وقد تحولت هذه المدرسة فيما بعد إلى دار للسكنى[(٤)].

(١) مباني الحرم القدسي الشريف ، المجلد الثاني ، ص ٣٣

(٢) ابن فضل الله العمري ، المصدر السابق ، ص ١٤٦.

(٣) *Van Berchem , p. 171.* وانظر : الأنس الجليل ، ٢/ ٤٢، محمد كرد علي ، المرجع السابق ، ص ١٢١ عارف العارف ، المفصل ، ص ٢٤٠

(٤) الأنس الجليل ، ٢/ ٤٣، محمد كرد علي ، المرجع السابق ، ص ١٢١ ، عارف العارف ، المفصل ، ص ٢٤٨.

٢٧- المدرسة الحنبلية:

في الجهة الغربية من الحرم على خط باب الحديد إلى الغرب من المدرسة المزهرية، واقفها الأمير بيدمر الخوارزمي نائب الشام، وكان السلطان الأشرف شعبان قد ولاه نيابة الشام سنة ٧٧٥هـ (١٣٧٣م) عوضا عن الأمير منجك[١]، فعمد إلى بناء هذه المدرسة وفرغ من بنائها سنة ٧٨١هـ (١٣٧٩م)، وقد أصبحت هذه المدرسة فيما بعد دارا للسكنى[٢].

٢٨- المدرسة البدرية:

إلى الغرب من الحرم على طريق باب القطانين وبقرب المدرسة اللؤلؤية واقفها الأمير بدر الدين محمد بن أبي القاسم بن محمد أبو عبد الله الهكاري في سنة ٦١٠هـ (١٢١٣م) على فقهاء الشافعية. وقد استشهد الأمير بدر الدين محمد في إحدى معاركه مع الفرنج على الطور في غور الأردن قرب الناصرة سنة ٦١٤هـ (١٢١٧م)، فنقل جثمانه إلى القدس ودفن بمدرسته. وصفه أبو المحاسن بأنه (من أكابر أمراء الملك المعظم، كان يستشيره ويصدر عن رأيه ويثق به لصلاحه ودينه)[٣]. وقد تحولت هذه المدرسة إلى دار للسكنى وعلى بابها نقش هذا نصه:

"بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة على أصحاب الإمام الشافعي رضي الله عنه الملكة العلية المجاهدة بدرية"[٤].

٢٩- المدرسة اللؤلؤية:

تقع خارج الحرم في الجهة الغربية منه، بجانب المدرسة البدرية ويمكن

(١) المقريزي ، السلوك ، ٣/ ١/ ٢٢٤

(٢) الأنس الجليل ، ٢/ ٤٤، عارف العارف ، المفصل ، ص ٢٥٠ .

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٦/ ٢٢١

(٤) عارف العارف ، المفصل ، ص ٢٤٠.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الوصول إليها عن طريق باب القطانين، واقفها أحد مماليك السلطان الأشرف شعبان الأمير لؤلؤ غازي قبل سنة ٧٨١هـ (١٣٧٩م). تحولت هذه المدرسة إلى دار للسكنى مما أدى إلى تغير ملامحها[١].

٣٠- المدرسة الطازية :

إلى الغرب من الحرم على طريق باب السلسلة بين التربة الجالقية والتربة الكيلانية، وافقها الأمير سيف الدين طاز بن عبد الله الناصري سنة ٧٦٣هـ (١٣٦٢م). وكان الأمير طاز من خواص السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، تقلّد عدة مناصب في الدولة المملوكية منها نيابة حلب. ألقي القبض عليه بعد أمور جرت له، فسجن وسملت عينيه، ثم أطلق سراحه وأرسل إلى القدس بطالا، فمات بها سنة ٧٦٣هـ ودفن في مدرسته[٢].

ويذكر عارف العارف أنه أطلع على سجلات المحكمة الشرعية في القدس واتضح أنه كان ينتدب للتدريس فيها فطاحل العلماء المقادسة. وقد تحولت هذه المدرسة إلى دار للسكنى، ويقطنها الآن جماعة من دار هداية، ويوجد على أحد نوافذها لوحة رخامية عليها النقش التالي:

"بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه تربة العبد الفقير إلى الله تعالى المقر الأشرف السيفي طاز، توفي رحمه الله سنة ثلث وستين وسبعمئة"[٣].

٣١- المدرسة الطشتمرية:

وتقع في الجهة الغربية من الحرم، على طريق باب السلسلة وعند ملتقى هذه الطريق بريق حارة الشرف، وواجهتها الشمالية مطلة على طريق باب السلسلة،

(١) الأنس الجليل ، ٢/٤٦. التسجيل بقسم الآثار بالمسجد الأقصى

(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ١١/١٥.

(٣) عارف العارف ، المفصل ، ص ٢٥٠، وانظر: الأنس الجليل ، ٢/٤٥.

وعلى مقربة منها تقع تربة بركة خان والتربة الكيلانية بناها الأمير الكبير سيف الدين طشتمر بن عبد الله الدوادار العلائي سنة ٧٨٤هـ (١٣٨٢م)[١]. وكتب ذلك في نقش اثبته على واجهتها الشمالية نصه :

"أمر بإنشاء هذا المكان المبارك المقر الأشرف السيفي طشتمر العلائي بتاريخ سنة أربع وثمانين وسبعمائة"[٢].

والأمير طشتمر تقلد عدة مناصب في الدولة، منها أتابك العساكر بالديار المصرية ونيابة الشام. أخرجه الملك الظاهر برقوق إلى القدس بطالا، ثم عفا عنه في عهد السلطان الصالح حاجي وولاه نيابة صفد ثم حماه إلى أن مات[٣]. ودفن جثمانه في مدرسته سنة ٧٨٦هـ. وصفه المقريزي بأنه " كان خيرا محسنا له مشاركة في فهم العلوم، محبا لأهل العلم، كثير الاجتماع بهم، وبعرف الكتابة ويحب الآداب وأهله"[٤].

وتضم المدرسة قبر ابنه ابراهيم وعلى قبره كتب النقش التالي:

"هذا قبر العبد الفقير إلى الله تعلى المرحوم إبراهيم ولد المرحوم طشتمر العلائي، وتوفي إلى رحمة الله تعالى في يوم الجمعة ثاني شعبان سنة خمس وتسعين وسبعمائة"[٥].

وقد تحولت هذه المدرسة إلى دار للسكنى، وأصبحت مع الزمن وقفا لدار الإمام مما أدى إلى تغير كثير من معالمها.

(١) الأنس الجليل ، ٢/ ٤٥ . *Van Berchem , p. 293.*

(٢) عارف العارف ، المفصل ، ص ٢٥١.

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ١١/ ٢٠٨، ٢١٢، ٣٠٤

(٤) المقريزي ، السلوك ، ٣/ ٢/ ٥٢٨ .

(٥) عارف العارف ، المفصل ، ص ٢٥١، وعن المدرسة الطشتمرية انظر: جلال أسعد ، المدرسة الطشتمرية في بيت المقدس ، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام ، عمان ١٩٨٠م.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

رابعاً: الخوانق في بيت المقدس:

ومن المؤسسات الدينية التي نالت اهتماماً خاصاً لدى السلاطين في العصر الأيوبي والمملوكي (بيوت المتصوفة)، فتيار التصوف اشتد في بلاد الشام منذ العصر الأيوبي، وبلغ أقصى انتشاره في العصر المملوكي. وانقطع المتصوفة والزهاد للعبادة في بيوت خاصة أقيمت لهم في أمهات المدن الشامية كحلب ودمشق وبيت المقدس، حتى أنها بلغت في العصر المملوكي ٢٩ بيتاً في القدس منها خانقاوتان وستة أربطة و ٢١ زاوية .

أما الزاوية فكانت صغيرة الحجم لا تتسع إلا لعدد قليل من المتصوفة والزهاد ومن وظائفها أنا استخدمت كمصلى صغير، أو مكان وخلوة خاصة لأحد الزهاد والمتصوفة ومريديه، حتى أن بعضها عرفت بأسماء هؤلاء الشيوخ مثل الزاوية المهمازية نسبة للشيخ كمال الدين المهمازي، وزاوية الأزرق نسبة للسخ إبراهيم الأزرق، وزاوية البلاسي نسبة إلى الشيخ أحمد البلاسي. وبعضها عرف بأسماء إحدى الطرق الصوفية أو الفقراء مثل الزاوية الحمراء للفقراء الوفائية، وزاوية الهنود للفقراء الرفاعية، والزاوية اليونسية نسبة للفقراء اليونسية. أما الرباط فقد تحول معناه، فالأربطة في الأصل تلك الأماكن التي يرابط فيها المجاهدون وتوضع في الثغور الإسلامية لمراقبة العدو وصد غاراته البرية والبحرية. ثم تطورت وظيفة الأربطة فأصبحت تمثل أماكن للمتصوفة والزهاد. أما الخانقاه فكانت أكبر حجماً وأكثر استعداداً لاستيعات أعداد كبيرة من الصوفية، والخانقاه كلمة فارسية مكونة من لفظتين : خوان بمعنى الأكل وجاه بمعنى المكان، وكان يطلق على المكان الذي يأكل فيه الملك. ثم أطلقت على الأمكنة التي أعدت للمتصوفة، ولم تعهد هذه الخوانق في مصر قبل القرن السادس الهجري والذي نشرها في مصر السلطان صلاح الدين الأيوبي (فلم

تكن الخوانق والأربطة معروفة قبل الدولة الأيوبية)[١]، ثم صار تشابه ومزج بين وظيفة الخوانق والأربطة[٢]، وحتى بين المدارس والخوانق، فنرى أن بعض المدارس أطلق عليها خانقاه مثل المدرسة الدوادارية التي سميت أيضاً (بالخانقاه) وخصصت لثلاثين من الصوفية[٣]، والخانقاه الصلاحية التي أطلق عليها (رباط للعلماء الصوفية)[٤].

وزودت الخانقاه بالمرافق الأساسية كالمطبخ والفرن والحمام ولبعضها حلاق خاص، وتحتوي الخانقاه على عدد من الخلوات، كل خلوة خصصت لأحد الصوفية. ولكل خانقاه شيخ أو ناظر يشرف على شؤون الخانقاه والنظر في أوقافها ومصالحها، وللخانقاه مهمة تعليمية بجانب مهمتها التعبدية، فالمتصوفة هم طلاب علم أيضاً، لذا عين في تلك الخوانق عدد من الشيوخ والعلماء والفقهاء ليقوموا بمهمة التعليم فيها.

ومن الجدير بالذكر أن عدداً من الخوانق والأربطة خصصت للنساء، فابن شداد ذكر في أعلاقه الخطيرة عن وجود سبعة خوانق للنساء في حلب في القرن السابع الهجري[٥]، وذكر المقريزي أن بعض الأربطة خصصت للنساء الأرامل والمطلقات[٦]، فهي أشبه ما تكون بالملاجئ بمفهومنا الحالي، وهذا من مفاخر مجتمعنا الإسلامي، فهذه المؤسسات لها وظيفة اجتماعية إلى جانب وظيفتها الدينية.

ومن أهم الخوانق في بيت المقدس:

(١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ٣/ ٣٦٤.
(٢) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٩/ ١٥٨.
(٣) *Van Berchem , p. 214.* وراجع نص الوقفية في (المدرسة الدوادارية) من هذا الفصل .
(٤) العماد الكاتب ، الفتح القسي ، ص ١٤٥.
(٥) وعن الخوانق في حلب ودمشق أنظر: ابن العديم ، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ٣ أجزاء ، دمشق ١٩٥١-١٩٦٨م ، ابن شداد، الاعلاق الخطيرة ، ٢ جزء ١٩٥٣-١٩٦٣م
(٦) المقريزي ، الخطط ، ٢/ ٤٢٨.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

٣٢- الخانقاة الصلاحية :

أنشأ صلاح الدين الأيوبي بعد تحرير بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م)، مدرسة الفقهاء الشافعية ورباطاً للصلحاء الصوفية، وعين دار البطرك القريبة من كنيسة القيامة للرباط ووقف عليها الوقوف العديدة[١]، وتاريخ وقفها في الخامس من رمضان سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م)[٢].

والملاحظ هنا أن الكاتب مزج بيت الرباط والخانقاه، فوظيفة الرباط تحولت مع الزمن إلى بيت للصوفية، بينما كان معداً للمرابطة من الرجال للدفاع والجهاد في الثغور الإسلامية المختلفة.

وتقع الخانقاه الصلاحية غربي الحرم بالقرب من كنيسة القيامة عند ملتقى طريق الخانقاه بطريق حارة النصارى، وبداخل الخانقاه مسجد صغير فوق محرابه لوحة رخامية نقش عليها ما يلي :

"بسم الله الرحمن الرحيم ، أشار بإنشاء هذا المحراب وعمارة المجمع المبارك الفقير عيسى بن أحمد به غانم عفا الله عنه ورحم سلفه في أيام مولانا السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون عز نصره في شعبان سنة أحد وأربعين وسبعمائة "[٣].

وأول من تولى مشيخة الخانقاه الصلاحية الشيخ القدوة المحقق الملك غانم بن علي بن حسين الأنصاري المقدسي من بني غانم، وهي عائلة عربية مدنية حجازية سكنت بيت المقدس بعد سنة ٥٨٣هـ، واستقروا في حي خاص بجوار

(١) العماد الكاتب ، الفتح القسي ، ص ١٤٥، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ٤٠٨/٢، المنهاجي السيوطي ، اتحاف الاخصا ، لوحة ٧٣ ب (مخطوط).

(٢) الأنس الجليل ، ٤٧/٢.

(٣) *Combe , Sauvaget , Wiet , Repertoire chronologique d, Epigraphie Arabe, Tome quinzieme No. 5924.p.200.*

الحرم في الجهة الشمالية الغربية منه. وعرف هذا الحي باسمهم (حارة الغوانمة) كما عرف أحد أبواب الحرم وهو المؤدي إلى حارتهم باسم (باب الغوانمة)، وكذلك المئذنة المطلة على هذا الباب وعلى حارتهم باسم (مئذنة الغوانمة).

وقد توارث علماء وفقهاء الغوانمة مشيخة الخانقاه الصلاحية، فمعظم شيوخها البارزين كانوا منهم. وظلت هذه المشيخة بأيديهم حتى أواخر القرن التاسع الهجري، ففي سنة ٨٩٨هـ (١٤٩٢م) تنازل الشيخ ناصر الدين محمد بن الشيخ جمال الدين عبد الله بن غانم شيخ حرم القدس الشريف عن ربع وظيفة مشيخة الخانقاه الصلاحية إلى القاضي شهاب الدين بن المهندس (وبمقتضى هذا النزول من الشيخ ناصر الدين خرجت مشيخة الخانقاه من يد بني غانم وكانت بأيديهم من زمن الواقف الملك صلاح الدين)[١].

والخانقاه الصلاحية مهملة في الوقت الحاضر، فقد استخدمت كبيوت للسكنى، فانسحبت عليها يد الخراب والإهمال، وهي بحاجة إلى ترميم وإصلاح.

٣٣- الخانقاة الفخرية:

تقع في داخل أسوار الحرم في الجهة الغربية الجنوبية منه، على أمتار قليلة من جامع المغاربة، وبابها من داخل الحرم. واقفها فخر الدين أبو عبد الله محمد بن فضل الله ناظر الجيوش الإسلامية بالديار المصرية (ت ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١م)[٢]. وذكر أبو المحاسن أن فخر الدين كان نصرانياً وأسلم، فحسن إسلامه وحج أكثر من مرة، وزار القدس وبنى مساجد كثيرة، وبنى مدرسة بنابلس وبيمارستانا في الرملة[٣].

(١) الأنس الجليل ، ٢/ ٣٦٧.

(٢) الأنس الجليل ، ٢/ ٣٤، محمد كرد علي ، المرجع السابق ، ص ١٤٨ ، عارف العارف ، المفصل ، ص ٢٤٦

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ٩/ ٢٩٦.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

ونعتها ابن فضل الله العمري (بالزاوية الفخرية) وذكر أنها بجوار جامع المغاربة وجامع النساء[١]. ثم أصبحت مدرسة وتحولت بعد ذلك إلى خانقاه عرفت بالخانقاه الفخرية وبهذه الخانقاه أماكن وخلوات خاصة للمتصوفة، ولم يبق منها في الوقت الحاضر سوى جزء بسيط، فقد هدمت السلطات الإسرائيلية أجزاء كبيرة منها خصوصاً تلك الواقعة خارج الحرم في جهة حارة المغاربة.

* * *

• وأرجو أن أنوه هنا بأن هناك العديد من المدارس والزوايا والأربطة لم نشر إليها في هذه الدراسة، فدراستنا اقتصرت على المدارس التي أثبتت الدراسات الحديثة وجودها وبقاءها للآن وحددت أماكنها وعينت مواقعها. فالمدينة المقدسة حوت العديد من المدارس، ولكن بعضها إندثر وزال ولم يستطع الآثاريون معرفة مواقعها وتحديده. وقد اعتمدنا في دراستنا هذه على فهرس السيد بورغوين للعمارات الإسلامية القديمة القائمة في القدس والصادر عن المدرسة البريطانية لعلم الآثار في القدس لعام ١٩٧٧م. بالإضافة إلى أن بعض الدارسين خلطوا بين المدارس والزوايا والأربطة، كالزاوية الخنثية والجراحية والمدرسة الأباصيرية (رباط علاء الدين). ونحن هنا ركزنا على المدارس فقط بمعناها المعروف.

وهناك مدارس لم نذكرها ولم تحدد في فهرس بورغوين منها : المدرسة الفنزية، والمدرسة الأفضلية، والمدرسة الحسنية، والمدرسة الطولونية، والمدرسة الوجيهية، والمدرسة البارودية، فمنهجنا هو دراسة المدارس المحددة المواقع في الوقت الحاضر.

أما الزوايا والأربطة المحددة المواقع من العصر المملوكي في فهرس بورغوين فهي: الزوايا الخنثية وقف ٥٨٧هـ، الزاوية الجراحية ٥٩٨هـ، زاوية الهنود في القرن السابع الهجري، رباط علاء الدين البصير ٦٦٦هـ، دار الحديث

(١) ابن فضل الله العمري ، المصدر السابق ، ص ١٥٢.

٦٦٦هـ، زاوية الشيخ حيدر ٦٧٤هـ، الرباط المنصوري ٦٨١هـ، الزاوية الكبكية ٦٨٨هـ، الرباط الكرد ٦٩٣هـ، الزاوية المهمازية قبل ٧٤٥هـ، دار القرآن السلامية ٧٦١هـ، الزاوية الأدهمية ٧٦٢هـ، زاوية البسطامية قبل ٧٧٠هـ، الزاوية اللؤلؤية ٧٨١هـ، الزاوية القرمية قبل ٧٨٨هـ، الزاوية الوفائية في بداية القرن التاسع الهجري، الزاوية الظاهرية القرن التاسع الهجري، زاوية الشيخ يعقوب العجمي القرن التاسع الهجري، رباط زمني ٨٨١هـ، دار الخطابة نهاية القرن التاسع الهجري.

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين
http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الأعمار المملوكي في القدس

نالت القدس عناية ورعاية خاصة من قبل سلاطين دولة المماليك الأولى والثانية، فقد اعتنى الظاهر بيبرس بعمارة المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وعمر خانا للسبيل سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م، وبنى في القدس طاحونا وفرنا، وأوقف عليه أوقافا كثيرة. وقام السلطان المنصور قلاوون بتعمير سقف المسجد الأقصى من جهة القبلة، وبنى الرباط المنصوري في المدينة المقدسة. وفي سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م، جدد السلطان العادل كتبغا المنصوري عمارة السور الشرقي للقدس، وجدد فصوص قبة الصخرة. أما السلطان محمد بن قلاوون فهو الثاني من السلاطين الذين لهم آثار وأعمال جليلة في القدس، فقد ذهب القبتين: قبة الصخرة، وقبة المسجد الأقصى، وعمر قناة للسبيل عند بركة السلطان خارج القدس، ورخم صدر المسجد الأقصى، وعمر السور القبلي والقناطر على الدرجتين الشماليتين بصحن الصخرة، وعمر باب القطانين، بالإضافة إلى أعمال أخرى عديدة. وفي سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م، بنى السلطان الأشرف شعبان المنارة التي عند باب الأسباط، وجدد الأبواب الخشبية للمسجد الأقصى، وجدد عمارة القناطر التي على الدرجة الغربية في صحن الصخرة. أما السلطان برقوق فقد بنى سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م دكة للمؤذنين داخل قبة الصخرة، وعمر بركة

السلطان خارج القدس من جهة الغرب سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م، وأبطل بها عدة مكوس ومظالم، ونقش ذلك على رخامة ألصقها على باب الصخرة، وجدد القيسارية في القدس سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م. ومن أعمال السلطان الأشرف برسباي في القدس، اهتمامه بأوقاف المسجد الأقصى/ وإهداؤه المصحف الشريف الكبير للمسجد الأقصى سنة ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م، وتعيين القراء ليقرأوا فيه. أما السلطان الظاهر جقمق فقد عمر سقف الصخرة بعدما احترقت بسبب صاعقة، ووضع مصحفا كبيرا داخل قبة الصخرة، ورتب من يقرأ فيه، وأبطل عدة مظالم من القدس، وأثبت ذلك في رخامة داخل المسجد الأقصى. ومن حسنات السلطان الأشرف أينال، المصحف الذي وضعه في المسجد الأقصى، واهتمامه بالأوقاف، وترميمه لأشياء كثيرة في المسجد الأقصى. وأنشأ السلطان خشقدم القناة الموصلة إلى القدس من عين العروب، كما عمر البركة الشرقية، وبنى مدرسة بجوار باب السلسلة، ووضع مصحفا كبيرا في الصخرة، وعين من يقرأ فيه، وألغى عدة مظالم من القدس. وبنى السلطان الأشرف قايتباي المدرسة الأشرفية سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م بجوار باب السلسلة، وعمر قناة العروب فوصلت المياه إلى القدس، سنة ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م/ بعد أن أنفق أموالا طائلة من أجل ذلك وله أعمال أخرى كثيرة. أما السلطان قانصوه الغوري، فقد ألغى عدة مظالم في القدس، وأصدر مرسوما بذلك سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م، ونقشه على رخامة في المسجد الأقصى.

هذا بالإضافة إلى الأعمال الكثيرة المتعددة التي قام بها الأمراء والنواب في المدينة المقدسة، فقد بنوا فيها المساجد والزوايا، والأربطة والسبل، والخانقاوات والمدارس، والخانات والحمامات والقيساريات، والأسواق المتشعبة، وأوقفوا بعضها على المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وبعضها كالمدارس، والزوايا، والخانقاوات أوقفت عليها الأوقاف للنفقة على الطلاب

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

والمقيمين فيها. حتى أننا نستطيع القول أن القدس الحالية، هي قدس أيوبية مملوكية، لأن المنشآت المعمارية والمؤسسات الثقافية والعلمية والاجتماعية والصحية والاقتصادية والمدنية والعسكرية الباقية إلى الآن كلها أيوبية مملوكية.

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

ملاحق البحث ومصادره و مراجعه

الملاحق

١- نسخة توقيع شريف بتعيين شرف الدين قاسم ليقوم بتحصيل الرسوم المفروضة على الفرنج الجرجان لزيارة بيت المقدس.

٢- نسخة توقيع بتعيين شرف الدين موسى الردادي نائباً لقلعة القدس.

٣- نسخة توقيع بتعيين وال في مدينة بيت المقدس.

٤- نسخة توقيع بتعيين شاد لتحصيل المكونس في كنيسة القيامة.

٥- نسخة توقيع بتعيين الأمير أبي بكر أمير علم كاشفاً للرملة.

٦- نسخة توقيع بتعيين وال في ولاية نابلس.

٧- نسخة توقيع بتعيين الشيخ شمس الدين بن البرهان الجعبري في مشيخة الحرم الخليلي.

٨- مرسوم شريف بأبطال متحصل قرية مجدل فضيل من الخليل باسم مجلس الأمير الكبير سعد الدين سعود بن محمد السراي.

٩- وثيقة وقف باسم جعفر بن محمد أبي بكر، وقف فيها داره الكائنة في القدس بخط باب العمود على مصالح البيمارستان الصلاحي.

١٠- وثيقة مبايعة باسم خديجة بنت الحاج أحمد بن عبد العزيز المشرقي اشترت بموجبها من أخيها الدار الكائنة بباب حطة بالقدس الشريف.

ملحق رقم (١)

نسخة توقيع شريف بتعيين شرف الدين قاسم ليقوم بتحصيل الرسوم المفروضة على الفرنج الجرجان القادمين لزيارة بيت المقدس من إنشاء أحمد بن علي القلقشندي (من كتاب صبح الأعشى جزء١٣ ص ٤٦-٤٧).

رسم بالأمر الشريف_ لا زال عدله الشريف لمال الفيء بين ذوي الاستحقاق قاسماً، وفضله العميم لأولى الفضل في سلك الصّلات ناظماً، ومعروفه المعروف لمواقع البر يؤم ويبيت غانماً- أن يستقر لمجلس القاضي فلان الدين على الفرنج الجرجان الواردين لزيارة قمامة بالقدس الشريف كذا وكذا: لما اشتمل عليه: من مبين العلم ومتين العمل وجميل السيرة، واجتمع لديه: من طيّب الذكر وجميل الأثر وصفو السريرة، ولإقامته بالمسجد الأقصى الذي هو أحد المساجد الثلاثة التي تشدّ الرجال إليها، وإحدى القبلتين المعوّل في أول الإسلام عليها، ومجاورة الصخرة المعظّمة، والآثار الشريفة والأماكن المكّرمة، وقيامه بما يجب من الدعاء لدولتنا القاهرة، والابتهال إلى الله تعالى بدوام أيامنا الزاهرة.

فليتناول هذا المعلوم مهنأ ميسّراً، وليرج من كرمنا الوافر فوق ذلك مظهراً، وليشهر سلاح دعائه بتلك الأماكن الشريفة على أعداء الله وأعداء الدين، ويرمهم بسهام الليل التي لا تخطئ إن شاء الله تعالى الطّغاة المتمردين، فبذلك يستحق هذا السهم من الفيء حقاً، ويعدّ من المقاتلة الذّابّين عن الإسلام صدقاً، وليقم على جادّة الاستقامة في الدّين وليكن مما سوى ذلك بريّاً، ويقابل هو ومثله إنعامنا بالشكر يتلو عليهم لسان كرمنا فكلوه هنيّاً مريّاً، والخط الشريف أعلاه...

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

ملحق رقم (٢)

نسخة توقيع بتعيين شرف الدين موسى الردادي نائباً لقلعة القدس، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباته (من كتاب صبح الأعشى، ج١٢ ص٣٢٥-٣٢٦)

رسم ... لا زالت ولاة أيامه عالية الشرف، سامية المستشرف آوية من جنات خير الدنيا والآخرة إلى غرف من فوقها غرف- أن يستقر المجلس السامي ... علماً باهتمامه الوفي، واعتزامه المتيقظ إذا نام حدّ المشرفي، واستناداً إلى رأيه الذي يقوم نجمه الطالع: "ما أبعد العيب والنقصان من شرفي" ...وإرشاد سعيه إلى أن إتخذ من الأرض المقدسة داراً، ومن حرمه الشريف جاراً، واتقاد ذهنه وشجاعته اللذين آنس بهما جانب الطّور ناراً، وكيف لا؟ وقد قالت همته: يا موسى أقبل ولا تخف،وأخرج يدك البيضاء في النيابة تكن أحق من اغترف بها الإحسان واعترف.

فليباشر ما فوّض إليه مباشرة يعلو بها شرف إسمه ومسماه، ويبدو للاختيار والاختبار فضل التقدم الذي إذا بدا له كفاه، وليجر بهذه الرتبة رأيا حسن الإحكام، وليواظب على حفظ هذه القلعة التي فتح بها عليه فإنها من أعظم فتوح الإسلام، وليمدّ عليها من كفايته سوراً حول سورها، وليتفقّد رجالها وعددها تفقد الشهب في ديجورها، وليردّ عنها بعزمه الردادي عيون الأعادي الزرق حتى لا يراع في أرض الحرم ولا حمامات طيورها. وليشكر نعمة أَوَتْهُ إلى هذه المنازل الطاهرة، وليقرب ليد آملة طلب خير الدنيا والآخرة. وليقدّم من الوصايا تقوى الله التي عن أصلها تتفرع نعمه الباطنة والظاهرة، حتى يجعل له في الوادي المقدس ربعاً مأنوساً، وجمعا محروساً، وأحاديث حسنة تقول لمستمع مثلها في الآفاق: " هل أتاك حديث موسى". والله تعالى يمده بإعانته، ويلهمه شكر ما رزق من فضل مكانه ومكانته، بمنّة وكرمه.

ملحق رقم (٣)

نسخة توقيع بتعيين وال في بيت المقدس، من إنشاء جمال الدين بن نباته (من كتاب صبح الأعشى، ج١٢ ص٣٣٠-٣٣١).

ورسم بالأمر... لا زال يشمل بظلّه وفضله، ويجمّل بإحسانه وعدله، وينقل شمس الولاة من البرج الظاهر إلى مثله - أن ينقل فلان من كذا إلى ولاية القدس الشريف: علماً بكفايته التي تقدمت، وشهامته التي تحكمت، وأمامته التي سلمت فيما سلمت، وهمّته التي وضحت شمساً فلا تتنفس، وقالت لقيامه في المصالح: "أخلع نعليك إنّك بالواد المقدس".

فليباشر هذه الولاية مباشرة، تمحو بضياء شمسه ظلماً وظلاماً، وتقول لنار الحوادث في المشاهد الجليلة: "يا نار كوني برداً وسلاماً"، مجتهداً فيما هو بصدده، عارفاً بوجوه المصالح حتى يكون السكن أعرف بشمس بلده، ناهضاً بأمور الديوان جليها وخفيها، وعبء الهمات حافلها وحفيها، مستزيداً بالشكر لمبادئ النعم، قائلاً في محل البلدين المباركين: ما سرت من حرم إلا إلى حرم.

ملحق رقم (٤)

نسخة توقيع بتعيين شاد لتحصيل المكوس من كنيسة القيامة، من إنشاء ابن نباته (من كتاب صبح الأعشى ج١٢ ص٣٣٦-٣٣٧).

رسم بالأمر -بسط الله تعالى على الأمم مهابته وظله، وبأسه وفضله، ووجّه إليه آمال الخلق من كل قبله، وأعلى آراءه التي يقال لعدلها: "لقد جدت حتى جزت في كل ملّه"- أن يرتّب... مضافاً لما بيده، واستناداً إلى صحيح خبره في الكفاءة وعلو سنده، وارتياداً لهممه التي أن رواها مسلم عن طوعه رواها نصراني عن تجلّده، وسكوناً إلى حركته التي تحصّل مالاً، وتصل إلى مالاً،

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

وتستخرج الوفر من مكمنه، وتأخذ الحق (من) قدّام يدي الماثل ومن خلف أذنه، وعلماً أن ما لمتحصل قمامة مثل عزمه المختار، ورفقه الذي يستنزل درّ القصد المدرار، واجتهاده الذي زرعه المستنهضون فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار.

فليباشر هذه الوظيفة بشدّة ولين يجعل كل واحد منهما في موضعه ومقامه، وحقّ منير يجعل سبت نور كل لياليه وأيامه، وأمانة مدله، وكفاءة مظلة، وصيانة توجب مزيد الخير إذاً له ومها به إذا أدخلت مستخرج قمامة أصلحته وجعلت أعزّه أهلها أذّلة، لا يثني هممه النفيسة، ولا يلتفت- كما يقال - لتبخير الكنيسة، بل يستعمل فراسة تروع من حمل عن أداء الحق بهتاناً، ومناقشة تكشف عن جبال التجلّد أكنانا، ورأفة مع ذلك بالظاهري العجز: ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً، ومتابعة للضرائب القديمة لا يصرف عنها، واستخلاص ما على الرأس حتى يقال: "ليس تحت الزرقاء أخضع منها"، عاملاً بتقوى الله تعالى فإن أهل معاملته أهل ذمة، مجتهداً في استحقاق ما يترشح له من ولايات الأمور المهمة.

ملحق رقم (٥)

نسخة توقيع بتعيين الأمير أبي بكر أمير علم كاشفاً للرملة وذلك في عهد الدولة الظاهرية برقوق (من كتاب صبح الأعشى، ج١٢ ص ٣١٥-٣١٧).

الحمد لله الذي قلّد أجياد المجاهدين، سيف نصره، وأكد بعزائم أهل اليقين، حماية حوزة الإسلام وصيانة ثغره، وجعل السنة أسنة المرابطين في فم الثغور زيناً إذا ازدان بغرّة بدره، وأنزل بأعداء الدين قوادح وقوارع قهره.

أحمده أن حمى بأولى النجدة والبأس للسلمين جمى، وأشكره على ما همع من صيب نعمائه وهمى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة اتخذها عند الله ذخراً، وأرجو بها في العقبى أجراً، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أيد يده بالسيف وأمده أيداً، وعلى آله الذين حلى بهم للإسلام

جيداً، وصحبه الذين جلا ببوارق صفاحهم، وخوارق رماحهم، غمم المجال، وغمم القتال، فلم يهمل الأعداء ولم يمهلهم رويداً.

وبعد، فإن أولى من جعل في نحر البحر هماماً صارم[١]، وأشد من قاطع أعداء الدين وصارم، من تضرب بشجاعته الأمثال، ويورد في صدور الأبطال صم الأسل النّهال، ويحمي حمى الثغر فلا يدع عدوا ولا يرهب نهباً، ويرقى رقاب الكفر فيؤمنون وإن كان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً،

ولما كان الجناب الكريم فلان- أدام الله تعالى نعمته- هو الذي أخلص في الطاعة، ونصح سلطانه حسب الطاقة والاستطاعة -رسم بالأمر الشريف العالي- لا زال سيف عدله ماضياً، وكلّ بحكمه راضياً- أن يستقر الجناب المشار إليه كاشفاً بالرملة المعمورة، على عادة من تقدمه في ذلك.

فليباشر ذلك معمّراً تلك البلاد بعدله، مجتهداً على إيصال الحق إلى أهله، وليتخذ الشرع الشريف أماماً، وليتوخ أوامره ونواهيه نقضاً وإبراماً، وليقف عند حدوده المشروعة، ولا يتعدّها: ومن يتعدّ حدود الله فيده من برّ الإيمان منزوعة، وليلن جانبه للرّعيّة، وليحملهم من العدل والأنصاف على المحجة الواضحة الجلية، (فإنهم الرعية الضعفاء الذين أنعم الله عليهم بتفويض أمورهم إليه)[٢] وليعتمد فيهم قول النبي ﷺ:

"اللهم من ولي من أمور أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به، ومن شقّ عليهم فاشقق عليه".

والوصايا كثيرة وأهمها التقوى فليلازم عليها فإنها تحفظه، وبالسيادة والسعادة تلحظه، والله تعالى يكمّل توفيقه، ويسهل إلى نجح المقاصد طريقه، والاعتماد في معناه، على الخط الكريم أعلاه.

---

(١) وقف عليه بلغة ربيعة.

(٢) الزيادة مأخوذة مما تقدم.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

ملحق رقم (٦)

نسخة توقيع بتعيين وال في ولاية نابلس من إنشاء جمال الدين بن نباته (من كتاب صبح الأعشى، (ج١٢ ص٣٢٢-٣٢٤).

أما بعد حمد الله على ما هنأ من المواهب، وهيأ من عليّ المراتب وأنجز من وعود السعود بعد مطال المطالب، وزيّن من سماء الوظائف عند ازهائها بزينة الكواكب، وعمّر من صدور الولاة والولاية بعلى تثنى عليه الرعية "ولو سكتوا أثنت عليه الحقائب". والصلاة على سيدنا محمد عبده ورسوله الذي جرد لنصر الإيمان حدّه القاضب، وحزبه الغالب، وندب لإحياء الحق عليه بعدما همّت به النّوادب، وعلى آله وصحبه الذين هم في الممات جمال الكتب كما كانوا في الحياة جمال الكتائب، صلاة تتعطر بنفحاتها الصبا وتتقطر من خلف سراها الجنائب- فإن عقائل الولايات أولى بخطبة أكفائها، ورغبة السراة من ذوي اصطفائها، ونسبة من يقوم لأمور المعلّلة بقانونها وشفائها.

ولما كانت بلد نابلس المحروسة من أعلى عقائل البلاد قدراً، وأمرأ الجهات أمراً، وأسرى الولايات محلاً وذكراً، وأوفى النّواحي من زمان بني أيوب على تكاليف الملك صبراً، وأنزه البقاع التي لو رآها الملك المصري لما استغلى غوطة الشام بشبرين من شبراً، بدل إعارته الحمامة طوقها وحمّلت الثناء فوق طوقه، ونجم نبات واديها الزهر حتى تساوى النجمان من تحته ومن فوقه- تعيّن أن يختار لولايتها من تعيّن ولاؤه، وتمكن في الرتب علاؤه، وتبين في مصالح الولايات احتفاله واحتفاؤه، وشهر وفاؤه بالخدمة فلا شرف بسعي إلا له منه شينه وراؤه وفاؤه، من شهدت السواحل الشامية في مباشرته أنه أجرى منها المال بحراً، وافاض الوصف درّا، وشهدت الزكاة- وديوانها المادح - أنه أفلح من زكاها خبراً وخُبراً.

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يرتّب فلان... علماً بأنه الأوحد الذي جمع الأوصاف المتقدمة، وأسمع من المحامد نتيجة لها من كلا قوله وفعله مقدمه، وأطلع في آفاق الوظائف كنجوم الجوزاء الثلاثة راية وسيفه وقلمه، واطّلع على محاسن التدبير فكان في رعايا بلده ممن تواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة، وأنه الكافي الذي إذا ولي ثمّر، وإذا صال على المفسدين دمّر، وإذا شامت المهمات بارق عزم، أسبل وإذا سامت قواه شمّر، وأنه الأمين إذا تصرّف، والمأمون إذا تعرّف، والشّجاع إذا تحصّنت البلاد بنسبه الحصني: فسواء في شمول الأمن ما توسط منها وما تطرّف.

فليباشر هذه الولاية المباركة بعزم يوضّح بشرها، وينجح أمرها، ويقيم في خطبة علاه عذرها، وحزم يثمر مالها وغلالها، وينقع غلّتها ويضع أغلالها، وبأس يدع المفسد من سيفه أو قيده في طوق أو حجل، ويذر السارق والمارق يشير بلا كفّ ويسعى بلا رجل، مشيداً لنواحيها بالترغيب والترهيب على أوثق المباني، مصلحاً بين أهل الأهواء حتى لا يضر قول القائل: "رفيقك قيسي وأنت يماني"، متفقداً من الأحوال كلّ جليل وحقير، ناهضاً في تلقّي المهمات على قدم التقدم بالعزم الأثير، جاعلاً من لدى محجة عمله لصلاح العشيرة نعم العشير، عاملاً بتقوى الله تعالى في كلّ أمر وإليها بالحديث يشير.

ملحق رقم (٧)

نسخة توقيع بتعيين الشيخ شمس الدين بن البرهان الجعبري في مشيخة الحرم الخليلي من إنشاء جمال الدّين بن نباته (من كتاب صبح الأعشى ج ١٢ ص ٤١٩ -٤٢٠).

رسم بالأمر الشريف -أعلاه الله تعالى، وبسط عدله الذي لا يبلغه الواصف ولو تغالى، وسرى لأولياء نبي الأولياء ببرّه الذي تسنّن بسنة الغيث ثم توالى -ان فليباشر هذه الوظيفة مباشرة مثله من ذوي الأناة والإفادة، وكفاه

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

المناصب الذين على سعيهم الحسنى وعلى الدولة تصل الزّيادة ، وليسلك في الأشغال عادة نطقه الأحسن ، وليعامل طلبته في المباحث بغير ما ألفوا من الخلق الأخشن ، وليعلم أنه قد جمع بين بره وتربه الام كي تقر عينها ولا تحزن ، فليسرها بنبله وليبرها بفضله ، وليوفر السعي إليها كل وقت في المسير ، وليفسر أحلام أملها فيه فمن مفردات علومه التفسير ، وليحسن لتلامذته الجمع ، وليحم حمى رواياتهم من الخطأ ولا عجب أن يحمي حمى السبع ، تالياً كلام ربه كما انزل وحسبه ، داعيا بنسب قراءته إلى ابن كعب فحبذا نسبه المبارك وكعبه ، ناصبا بمنظر شخصه أشخاص أمثاله الأول بعدما ضمهم صفيح اللحد وتربه ، حتى يميس (الكسائي) في برد مسرته الفاخر ، ويفتح عيون (حمزة) على زهرات روض عبق المباخر ، ويترّنم ورشان (ورش) في الاوراق على بحره الزاخر ، ويظهر بفضله ذكر (الشّاطبيّ) فيكون القاضي الفاضل) رحمه الله قد أظهره في الزمن الأول (القاضي الفاضل) أجلّه الله قد اظهره في الزمن الآخر ، وتقوى الله تعالى كما علم ختام الوصأيا البيض فليتناول مسكها الذي هو بشذا المسك ساخر ، والله تعالى ينفع بعلوم صدره الذي ما ضاق عن السؤال فملّه ، ويمتع بعلوّ قدره الذي أن لم يكن هو لفضل الثناء فمن له .

ملحق رقم (٨)

نسخة المرسوم الأشرفي الناصري الذي ابطل السلطان الأشرف شعبان بموجبه ما هو مقطع من الجوالي بمجدل فضيل من الخليل باسم الأمير سعد الدين مسعود بن محمد السراي سنة ٧٦٧ هـ (من وثائق المتحف الإسلامي بالقدس رقم ٦) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المرسوم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني الملكي الأشرفي الناصري أعلاه الله تعالى وشرّفه وأيّده في الآفاق وصرفه أن يبطل حكم ما مقطع من الجوالي بمجدل فضيل من الخليل عليه السلام باسم مجلس الأمير الأجل الكبير سعد الدين مسعود بن محمد السراي أحد أمراء العشرات بدمشق المحروسة مما كان مرتبا باسم خدام الحرم الشريف بالقدس الشريف في تقادم السنين والى آخر وقت ولا يمكن المذكور ولا أحداً ممن تقدم من التعرض إلي ما هو مستقر بيد خدام الحرم الشريف بمقتضى الورقة المشمولة بالخط الشريف عن ورود مطالعة نائب السلطنة الشريفة بالشام المحروس .

حسب الأمر الشريف شرفه الله وعظمه

بعد الخط الشريف شرفه الله وعظمه

رابع جمادى الآخرة سنة ٧٦٧هـ

٢٤٣٤١١

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

ملحق رقم (٩)

وثيقة وقف باسم جعفر بن محمد بن أبي بكر وقف فيها داره الكائنة في القدس بخط باب العمود على مصالح البمارستان الصلاحي تاريخ ٥ صفر سنة ٧٦٨هـ (وثيقة ورقم ٢٠ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هذا ما أوقف وحبس وسبل وحرر وأبد وتصدق به جعفر بن محمد بن أبي بكر السعاد من القدس الشريف تقرباً إلى الله عز وجلّ يوم يجزي الله المتصدقين ولا يضيع أجر المحسنين ما هو له وملكه وتحت تصرفه إلى حال الوقف وهو جميع عمارة الدار الكائنة بالقدس الشريف بخط باب العمود ، حدها بكمالها من القبلة دار ورثة حسين عريف سوق التجار بالقدس الشريف كان ، ومن الشرق دار محمد عرف بأي كدس ومن الشمال دار داوود رمكي وبها من دار ورثة الحاج محمد الطروفي ، ومن الغرب دار ورثة محمد النقيب ، وبها من الحاج صالح الرملي عرف بأي ولأبيه وقف لكل جمعية بجميع حدوده وحقوقه وما يعرف به وينسب إليه على نفسه مدة حياته ثم من بعده على مصالح البيمارستان الصلاحي بالقدس الشريف يسلك بذلك مسلك أوقاف البيمارستان المذكور وقفاً صحيحا شرعياً مؤبداً وحبساً دائماً محللاً ولا يباع ولا يوهب ولا يملك بوجه من وجوه الملكان أبداً ما دامت الأرض والسماوات وأخرج الواقف هذا الوقف عن ملكه وأبان عن حيازته وجعله وقفاً على ما سمح أعلاه على أنّ الناظر بالملك من ريعه بعمارته وترميمه وإصلاحه وما فيه ، ثم ما فضل بعد ذلك يصرف على الوجه المشروح أعلاه ووقع أجر الواقف على الله

تعالى يوم القيامة يوم الحسرة والندامة يوم (؟) عطش الأكباد ، يكون الله هو الحاكم فيه بين العباد ممن بدله بعد ما سمعه ما بها إثمه على الدين يبدلونه أن الله سميع عليم ، وذلك شهد عليه في خامس شهر صفر من سنة ثمانٍ وستين وسبع ماية .

ملحق رقم١٠

وثيقة مبايعة بإسم خديجة بنت الحاج أحمد بن عبد العزيز المشرقي ، اشترت بموجبها من أخيها الدار الكائنة بباب حطة بالقدس الشريف مؤرخة في ٤ رجب سنة ٧٨٥هـ (وثيقة رقم ٤٣ من وثائق المتحف الإسلامي في القدس) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اشترت المرأة الكامل خديجة بنت الحاج أحمد بن عبد العزيز المشرقي زوجة الحاج علي أبي طالب الطباخ المشرقي بالقدس ، وبِمَالِها من نفسها من شقيقها محمد مباعها صفقة واحدة بأمره لوارث الشرعي له من تركة والده ، ومن جميع عمارة البلد المفروز بالقسمة بينه وبين أخوته من جهة الدار الكائنة بباب حطة بالقدس ، وفي حكر المدرسة الصلاحية بالقدس حد البلد المذكور من القبلة بيت أخيه عبد العزيز وهو من القسمة ، ومن الشرق ساحة الدار ومن الشمال قسمة المشترية من الدار المذكورة ومن الغرب خان العناية وقف المدرسة المذكورة بجميع حدوده وحقوقه وما يعرف به وينسب إليه شرعاً (لبقاً؟) صحيحا شرعاً بثمن مبلغه من الدراهم مقابلة يومها بالشام المحروسة مائتا درهم وخمسون درهم حالة مقبوضة بيد البالغ المذكور يزيد بذلك وبيد المشترية من الثمن المذكور بترك شرعه وسلمت المشترية المذكورة المبلغ المذكور سالماً شرعاً وهو بعد النظر والمعرفة والمعاملة الشرعية والتعرف ما له بداد عبد

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الرحمن منها وعلمت المشترية له على (؟) الحاملة للبنا البلد المذكور أجله في كل منه يمضي من تاريخه ثلاثة دراهم وربع درهم (وحلت من تاريخه) على المشترية ورضيت بذلك .

رابع من رجب الفرد سنة خمس وثمانين وسبعمائة .

شهد عليها بذلك	**شهد عليها بذلك**
أحمد التويجي	**محمد عبد الرحمن**

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

مصادر ومراجع الباب الثاني

١. الوثائق والمخطوطات .

٢. المصادر العربية المطبوعة .

٣. المراجع العربية والجنبية المعربة .

٤. المصادر والمراجع الاجنبية .

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(١) الوثائق والمخطوطات

١- وثائق المتحف الإسلامي بالقدس وتبلغ ٧٥٠ وثيقة من العصر المملوكي مكتوبة على رقاع من الرق ويحتفظ بها المتحف الإسلامي في المسجد الاقصى بالقدس .

٢- **ابن الإمام (شمس الدين بن العباس أحمد)**، حفة الأنام في فضائل الشام ، مخطوط دار الكتب المصرية .

٣- **ابن بهادر (محمد بن محمد المؤمني)**، فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر ، مخطوط دار الكتب المصرية .

٤- **ابن حبيب (الحسن عمر بن الحسن بن عمر)** ، درة الأسلاك في دولة الأتراك ، ٣ مجلدات مخطوط الكتب المصرية

٥- **ابن النابلسي (عبد الغني بن اسماعيل)** ، الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز ، مخطوط مكتبة بلدية الإسكندرية .

٦- **أبو المحاسن (جمال الدين يوسف)** ، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، ٣ اجزاء مخطوط مكتبة عارف حكمت بالمدينة نسخة مصورة بمكتبة جامعة الإسكندرية .

٧- **البدري (تقي الدين أبو بكر محمد بن عبد الله)** ، نزهة الأنام في محاسن الشام ، مخطوط جامعة برنستون رقم ٢٦٤ .

٨- **الخالدي (بهاء الدين محمد بن أحمد)** ، كتاب المقصد الرفيع المنشا الهادي إلي ديوان الانشا ، مخطوط مكتبة جامعة القاهرة .

٩- **السلامي (شهاب الدين أحمد)** ، مختصر التواريخ ، مخطوط دار الكتب المصرية .

١٠- **العماد الكاتب (أبو عبد الله محمد بن صفي الدين)** ، البرق الشامي نسخة

مصورة عن نسخة الخزانة العامة بالرباط ، مكتبة جامعة الإسكندرية .

١١- **المنهاجي السيوطي (أبو عبد الله محمد بن أحمد المنهاجي)** ، أتحاف الأخصا بفضائل المسجد الاقصى ، مخطوط جامعة برنستون رقم ٥٨٥٠

١٢- **النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)** ، نهاية الارب في فنون الأدب ، جزء ٣١ مخطوط دار الكتب المصرية .

(٢) المصادر العربية المطبوعة

١٣-**ابن الأثير (علي بن أبي الكرم)** ، الكامل في التاريخ ١٠ اجزاء ،ط٢ دار الكتاب العربي ، بيروت ١٩٦٧م .

١٤ - **ابن الأثير**، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، تحقيق عبد القادر طليمات القاهرة ، ١٩٦٣ م.

١٥- **ابن اياس (محمد بن أحمد)** ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ط دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٠م .

١٦ **ابن الأخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشي)** ، معالم القربة في أحكام الحسبة ، تحقيق محمد شعبان ، القاهرة ١٩٧٦ م

١٧- **ابن أبي اصيبعة (موفق الدين أحمد بن القاسم)** ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق نزار رضا، دار الحياة ، بيروت، ١٩٦٥م .

١٨- **ابن بطوطة (ابو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي)** ، رحلة ابن بطوطة ، دار التراث ، بيروت ، ١٩٦٨ م .

١٩- **ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد الأندلسي)** ، رحلة ابن جبير، دار صادر بيروت ، ١٩٦٤ م .

٢٠- **ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي بن الجوزي)** ، فضائل القدس ، تحقيق جبرائيل سليمان جبور ، دار الآفاق ، بيروت ١٩٧٩ م .

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

٢١- **ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي بن محمد)** ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ٥ أجزاء تحقيق محمد سعيد جاد الحق ، القاهرة ١٩٦٦ م .

٢٢- **ابن خلكان (شمس الدين أحمد بن إبراهيم)** ، وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان ، ٦ أجزاء ، طبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٣٦ م.

٢٣- **ابن دانيال**، خيال الظل وتمثيليات دانيال، تحقق إبراهيم حمادة، المؤسسة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣م.

٢٤- **ابن سلا (أبو عبيد القاسم بن سلام)**، كتاب الأموال، تحقيق محمد خليل هراس، القاهرة، ١٩٦٨م.

٢٥- **ابن شاهين الظاهري (غرس الدين خليل بن شاهين)**، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس، ١٨٩٤م.

٢٦- **ابن شاكر الكتبي (محمد بن شاكر بن احمد)**، فوات الوفيات، ٢ جزء ، تحقيق محمد محي الدين، القاهرة، ١٩٥١م.

٢٧- **ابن شداد (بهاء الدين ابو المحاسن يوسف بن رافع)**، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٤م.

٢٨- **ابن شداد (عز الدين علي بن ابراهيم)**، الإعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ٢ جزء ، بيروت، ١٩٥٣-١٩٦٣م.

٢٩- **ابن صرصري (محمد بن محمد)**، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق وليم برينر، كاليفورنيا ، ١٩٦٣م.

٣٠- **ابن الصيرفي (علي بن داود)**، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان ، ٣ أجزاء تحقيق حسن حبشي، دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠-١٩٧٤م.

٣١- **ابن طولون (شمس الدين محمد بن علي بن احمد)** ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق محمد مصطفى ، ٢ جزء، القاهرة، ١٩٦٤م.

٣٢- **ابن عبد الظاهر (محي الدين عبد الله بن رشيد الدين)**، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، القاهرة، ١٩٦١م.

٣٣- **ابن عربي (أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن العربي)**، العواصم من القواصم، القاهرة ، ١٣٧١هـ/ ١٩٥١م.

٣٤- **ابن العديم (كمال الدين ابو القاسم عمر بن احمد)**، زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، ٣ أجزاء، دمشق، ١٩٥١-١٩٦٨م.

٣٥- **ابن فضل الله العمري (شهاب الدين احمد بن يحيى)**، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الجزء الاول، تحقيق احمد زكي، دار الكتب، القاهرة ١٩٢٤م.

٣٦- **ابن فضل الله العمري**، التعريف بالمصطلح الشريف، ط القاهرة، ١٣١٢هـ.

٣٧- **ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم)**، تاريخ ابن الفرات، الأجزاء ٧، ٨، ٩، تحقيق قسطنطين زريق ، بيروت، ١٩٣٩-١٩٤٢م.

٣٨- **ابن قاضي شهبة (ابو بكر بن احمد بن قاضي شهبة الأسدي)**، تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش، الجزء الثالث، دمشق، ١٩٧٧م.

٣٩- **ابن القلانسي (ابو يعلى حمزة بن أسد)**، ذيل تاريخ دمشق، بيروت، ١٩٠٨م.

٤٠- **ابن كثير (عماد الدين إسماعيل بن عمر)**، البداية والنهاية، ١٢ جزءاً، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٦٦م.

٤١- **ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم)**، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٥ اجزاء، تحقيق جمال الدين الشيال وحسنين ربيع وسعيد عاشور، القاهرة، ١٩٥٣-١٩٧٧م.

٤٢- **أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل)**، الروضتين في أخبار

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

الدولتين النورية والصلاحية، ٢ جزء في مجلد، ط دار الجيل، بيروت (بدون تاريخ).

٤٣- أبو الفلاح (عبد الحي بن العماد الحنبلي)
شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٨ اجزاء، القاهرة، ١٣٥٠-١٣٥١هـ.

٤٤- **أبو الفداء (الملك المؤيد إسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين)**، تقويم البلدان، مطبعة المثنى، بغداد، ١٨٥٠م.

٤٥- **أبو المحاسن (يوسف بن تغري بردي)**، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزءاً، القاهرة، ١٩٣٢-١٩٧٢م.

٤٦- **الإدريسي (الشريف محمد بن العزيز)**، نزهة المشتاق، القسم الخاص ببلاد الشام، بون، ١٨٨٥م.

٤٧- **بنيامين بن بونه الأندلسي**، رحلة بنيامين ٥٦١-٥٦٩هـ نقلها إلى العربية عزرا حداد، بغداد، ١٩٤٥م.

٤٨- **الحنبلي (أبو اليمن مجير الدين الحنبلي)**، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢جزء في مجلد، مكتبة المحتسب، عمان، ١٩٧٣م.

٤٩- **السبكي (تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين)**، طبقات الشافعية الكبرى، ط٢ على الأوفست، دار المعرفة، بيروت (بدون تاريخ).

٥٠- **السبكي**، معين النعم ومبيد النقم، ليدن ١٩٠٨م.

٥١- **السبكي** ، التمهيد فيما يجب فيه التحديد، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق، ١٩٥١م.

٥٢- **سبط ابن الجوزي (ابو المظفر يوسف بن غزا او غلي)**، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الجزء الثامن، نسخه مصورة بشيكاغو أمريكا (بدون تاريخ).

٥٣- **السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن)**، الضوء اللامع لأهل القرن

التاسع، ١٢ جزءاً، القاهرة، ١٣٥٣-١٣٥٥هـ.

٥٤- **السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر)**، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل، الجزء الثاني، القاهرة، ١٩٦٨م.

٥٥- **شافع بن علي (ناصر الدين شافع بن علي)**، حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ١٩٧٦م.

٥٦- **الصفدي (صلاح الدين خليل بن آبيك)**، الوافي بالوفيات، الجزء الثاني، ط٢، فسادن، ١٩٧٤م.

٥٧- **العماد الكاتب (أبو عبد الله محمد بن صفي الدين)**، الفتح القسّي في الفتح القدسي، تحقيق محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.

٥٨- **القزوني (زكريا بن محمد بن محمود)**، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر ، بيروت، ١٩٦٩م.

٥٩- **القفطي (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف)**، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، دار الآثار، بيروت (بدون تاريخ).

٦٠- **القلقشندي (أبو العباس بن علي بن احمد)**

صبح الأعشى في صناعة الانشا، ط مصورة عن الطبعة الأميرية، ١٤ جزءاً، القاهرة (بدون تاريخ).

٦١- **الماوردي (أبو الحسن بن محمد بن حبيب)**، الأحكام السلطانية، ط دار الكتب العالمية، بيروت، ١٩٧٨م.

٦٢- مفضل بن أبي الفضائل

النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، باريس، ١٩٢٠م.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

٦٣- المقريزي (تقي الدين احمد بن علي) ، السلوك لمعرفة دول الملوك، ٤ أجزاء، ١و٢ تحقيق محمد مصطفى زيادة ١٩٣٤-١٩٤٢م، ٣و٤ تحقيق سعيد عاشور، القاهرة ١٩٧٠-١٩٧٣م.

٦٤- **المقريزي**، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار (الخطط) ط بولاق سنة ١٢٧٠هـ صورة بالأوفست عن دار الكتاب اللبناني (بدون تاريخ).

٦٥- **المقريزي**، النقود الإسلامية، القسطنطينية، ١٢٩٨هـ.

٦٦- **المقريزي**، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ط٢، القاهرة ١٩٥٧م.

٦٧- **المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن احمد)**، احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٢ ليدن، ١٩٦٧م.

٦٨- **ناصر خسرو**، سفرنامة، ترجمة يحيى الخشاب، بيروت، ١٩٧٠م.

٦٩- **النعيمي (عبد القادر محمد بن عمر)**، الدراس في تاريخ المدارس، ٢جزء، دمشق، ١٩٤٨م.

٧٠- **نظام الملك الطوسي، سياسة نامة (سير الملوك) ترجمة يوسف بكار، دار القدس، بيروت، ١٩٨١م.**

٧١- **النويري السكندري (محمد بن قاسم بن محمد)**، كتاب الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، تحقيق عزيز سوريال، ٦ اجزاء، الهند، ١٩٦٨-١٩٧٣م.

٧٢- **ياقوت (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله)**، معجم البلدان، ط دار صادر، بيروت، ١٩٥٧م.

(٣) المراجع العربية والاجنبية المعربة:

٧٣- **احمد فكري**، مساجد القاهرة ومدارسها، الجزء الثاني، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م.

٧٤- **احمد إبراهيم**، أحكام الوقف في الإسلام، القاهرة، ١٩٣٨م.

٧٥- **احمد رمضان احمد**، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام، القاهرة، ١٩٧٧م.

٧٦- **احمد صادق الجمال**، الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦م.

٧٧- **احمد مختار العبادي**، قيام دولة المماليك في مصر والشام، بيروت، ١٩٦٩م.

٧٨- **إحسان عباس**، الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين خلال القرنين الرابع والخامس، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٠م.

٧٩- **الأبنية الأثرية في القدس، عن المدرسة البريطانية لعلم الآثار بالقدس، القدس، ١٩٧٧م.**

٨٠- **جلال اسعد ناصر**، المدرسة الطشتمرية في بيت المقدس، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨م.

٨١- **جوزيف نسيم يوسف**، العدوان الصليبي على بلاد الشام، هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة، دار الكتب الجامعية، الإسكندرية، ط٣، ١٩٧١م.

٨٢- **حسين مؤنس**، المساجد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨١م.

٨٣- **درويش النخيلي**، فتح الفاطميين للشام، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٧٩م.

٨٤- **ديماند**، الفنون الإسلامية، ترجمة احمد محمد عيسى، ط٢، القاهرة، ١٩٥٨م.

http://www.al-maktabeh.com

٣٤٣٤١١

http://www.al-maktabeh.com

٨٥- **رشاد الإمام**، مدينة القدس في العصر الوسيط، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٦م.

٨٦- **سعيد عبد الفتاح عاشور**، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك دار النهضة، بيروت، ١٩٧٢م.

٨٧- **سعيد عبد الفتاح عاشور**، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة، ١٩٦٢م.

٨٨- **سعيد عبد الفتاح عاشور**، الظاهر بيبرس، سلسلة أعلام العرب ، القاهرة ١٩٦٣م.

٨٩- **سعيد عبد الفتاح عاشور**، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٠م.

٩٠- **سمير شما النقود الإسلامية التي ضربت في فلسطين، دمشق، ١٩٨٠م.**

٩١- **سهيل زكار**، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، ط٣، ١٩٧٥م.

٩٢- **السيد عبد العزيز سالم**، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، دار المعرفة بمصر، الإسكندرية، ١٩٦٧م.

٩٣- **السيد عبد العزيز سالم**، دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، بيروت ، ١٩٧٠م.

٩٤- **عبد الحميد زايد**، القدس الخالدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م.

٩٥- **عبد الحميد السائح**، أهمية القدس في الإسلام، مطبعة التوفيق، عمان، ١٩٨٠م.

٩٦- **عبد العزيز الدوري**، نشأة الإقطاع في المجتمعات الإسلامية، فصلة من مجلة العراقي، بغداد، ١٩٧٠م.

٩٧- **عبد العزيز الدوري**، النظم الإسلامية، ج١ مطبعة نجيب، بغداد ١٩٥٠م.

٩٨- **عارف العارف**، المفصل في تاريخ القدس، ج١، مطبعة المعارف، القدس، ١٩٦١م.

٩٩- **عفيف بهنسي**، جمالية الفن العربي، سلسلة عالم المعرفة، العدد١٤، شباط، ١٩٧٩م.

١٠٠- **فالتر هنتش**، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، عمان، ١٩٧٠م.

١٠١- **كامل العسلي**، معاهد بيت المقدس، مطبعة جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان ١٩٨١م.

١٠٢- **لي سترانج**، فلسطين في العهد الإسلامي، ترجمة محمود عمايرة، عمان، ١٩٧٠م.

١٠٣- **مباني الحرم القدسي الشريف، المكتب المعماري الهندسي لإصلاح وإعمار الصخرة المشرفة بالقدس، المجلد الثاني، القاهرة، ١٩٧١م.**

١٠٤- **محمد عبيد القبيسي**، أحكام الوقف في الشريعة الإسلامية،٢ جزء، بغداد، ١٩٧٧م.

١٠٥- **محمد كرد علي**، خطط الشام، ٦ أجزاء، ط٢ دار القلم، بيروت، ١٩٧٠م.

١٠٦- **محمود رزق سليم**، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، المجلد السادس (النثر) القاهرة، ١٩٦٤م.

١٠٧- **محمود زايد**، دراسة للتقسيمات الإدارية في فلسطين من خلال رحلة دي

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

لابروكييه ١٤٣٢م، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٠م.

١٠٨- **ماير**، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيني، القاهرة، ١٩٧٢م.

١٠٩- **مصطفى الدباغ**، بلادنا فلسطين، ج٩ القسم الخاص ببيت المقدس، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٥م.

١١٠- **ناجي معروف**، تاريخ علماء المستنصرية ،ط٢ مطبعة العاني، بغداد ١٩٦٥م.

١١١- **نقولا زيادة**، فليكس فابري في فلسطين، المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٠م.

١١٢- **يوسف درويش غوانمة**، تاريخ شرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى (القسم السياسي)، وزارة الثقافة والشباب، عمان، ١٩٧٩ ط دار الفكر، عمان، ١٩٨٢م.

١١٣- **يوسف درويش غوانمة**، تاريخ شرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى (القسم الحضاري)، وزارة الثقافة والشباب، عمان، ١٩٧٩م ط دار الفكر، عمان، ١٩٨٢م.

١١٤ **يوسف درويش غوانمة**، عمان حضارتها وتاريخها، دار اللواء للطباعة والنشر، عمان ١٩٧٩

١١٥- **يوسف درويش غوانمة**، علماء وفقهاء محافظة اربد (نيابة عجلون) منشورات جامعة اليرموك، ١٩٨٠م.

١١٦ **يوسف درويش غوانمة إمارة الكرك الأيوبية** ، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ١٩٨٠م ط دار الفكر، عمان، ١٩٨٢م.

١١٧- **يوسف درويش غوانمة غلاوة الشيعة الباطنية في بلاد الشام**، جمعية عمال

المطابع التعاونية، عمان، ١٩٨١م ط دار الفكر، عمان، ١٩٨٢م.

١١٨- **يوسف درويش غوانمة عمان في التاريخ الإسلامي الوسيط**، بحث في ندوة الحضارة الإسلامية، جامعة الإسكندرية، تشرين أول ١٩٧٦م.

١١٩- **يوسف درويش غوانمة الأردن في استراتيجية صلاح الدين**، بحث في مجلة أفكار، العدد ٤٢ كانون أول ١٩٧٨م.

١٢٠- **يوسف درويش غوانمة دراسة في تاريخ مدينة الصلت (السلط) بحث في أفكار**، العدد ٤٣ كانون ثاني ١٩٧٩م.

١٢١- **يوسف درويش غوانمة القرية في جنوب الشام (الأردن وفلسطين) في العصر المملوكي (في ضوء وقفية قرية آدر)**، بحث في المؤتمر الدولي الأول لتاريخ الأردن وآثاره، اكسفورد آذار، ١٩٨٠م،

١٢٢- **يوسف درويش غوانمة**، بيت المقدس في الحملة الصليبية الأولى، بحث في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام (فلسطين) عمان، ١٩٨٠م.

١٢٣- **يوسف درويش غوانمة**، شخصيتان في تاريخ فلسطين (أرناط وبيجن) دراسة مقارنة، مجلة أفكار، العدد ٥١، ٥٢ كانون أول ١٩٨١م.

١٢٤- **يوسف درويش غوانمة**، أضواء جديدة على الملك الناصر داود وتحرير بيت المقدس، بحث في مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العدد الرابع، نيسان، ١٩٨١م.

١٢٥- **يوسف درويش غوانمة**، نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، بحث في الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية، جامعة حلب ١٩-٢٤ أيلول ١٩٨١م.

١٢٦- **يوسف سعيد النتشه**، التربة الكيلانية، دراسة رقم (٢) عن دائرة الأوقاف الإسلامية، بالقدس ١٩٧٩م.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

(٤) المصادر والمراجع الأجنبية:

1- Atiya, The crusade in late Middle Ages, New York, 1970.

2- Ayalon, (d) Aspects of theMamluk phenomenon, from der Islam, Band 53,54, Berlin, 1976.

3- Baedeker, (k.) Jerusalem and its surroundings, London, 1976, reprinted 1973.

4- Barton, (l)The inner life of Syria, Palestine and the Holy Land, 2 vols, London, 1976.

5- Benvenisti, (m.)The crusaders in theHoly Land,New York, 1972.

6- Benjamin of Tudelo, EarlyTravels in Palestine, edited by : Thomas wright,New York, 1968.

7- Besant, (w.) Jerusalim, the city of herod and Saladin,New york, 1890.

8-Buckingham, (J.S.)Travel in palestine, London , 1821.

9- Chone &lewis, population and revenue in the towns of Palestine in the sixteenth century, princeton, 1978.

10- Combe, Sauvage,Wite, repertoire chronologique d'epigraphie arbe, tome quinziene,, le caire, 1944.

11- Eracles, Recueil des Historiens, H. occ.

12- Fulcher of chartres, A history of the expedition to Jerusalem 1095-1127, Translated by Frances rita, New York, 1973.

13- Gray, john, A history of Jerusalem, London, 1969.

14- Goiten, A Mediterranean society, Economic foundations, U.S.A.1967.

15- Heyd, histoire du commerce du levant au Moyen Age, 2 vol, leipzig, 1886.

16- Hicholson, (R.L)

The joscelyn 111 and the fall of the crusader states, Leiden, 1973.

17- Hume, Medical work of the knights Hospitallers of Saint john of Jerusalem, Baltimore, 1940.

18-Hutheroth and kamal aBdul-fattah, historical Geography of palestine , erlangen, 1977.

19- Kedar, Merchants in crisis, yele, U.S.A. 1976.

20- Kelly, (w.k.) Syria and the Holy Land , London, 1884.

21- Lopez. (r.) The commercial revolution in theMiddle Ages, U.S.A.1976.

22- Lapidus, Muslim cities in the late Middle Ages, U.S.A. 1976.

23- Mann (j.)The jews in Egypt and inPalestine under the Fatimid caliphs, 2 vols, oxford, 1969.

24- Marcus, (j.) The jew in the medieval world, reprinted in U.S.A. 1975.

25- Nohl, The black death, London, 1924.

26- Poliak,Feudalism in Egypt , Syria, PaListine,and The Lebanon,1979

27- Powicke, Maurice, The christian life in theMiddle A ges, oxford, 1968.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

28- Prawer, The latin kingdom of Jerusalem, London,1972.

29- Rabinowitz, (l.) jewish merchant adventures, London, 1948.

30- Rey, Les colonies Franques de Syria auz XII et XIII siecles, paris, 1883.

31- Robert Irwin, Iqta, and the end of the crusader states, from the Eastern Mediterranean lands, edited by: holt, England, 1977.

32- Roger of wendover, The crusade of Fredrick II, from sources of Medieval History, edited by:Edward peters, U.S.A. 1971.

33- Sapori (Amande)The Italian merchant in the Middle Ages, New York, 1970.

34- Theodorich's , Description of the Holy Land, London, 1896.

35- Tompson, (j.) An Economic and social history of the Middle Ages, London, 1928.

36- Van Berchem, corpus inscriptionum (Jerusalem ville), le caire, 1922.

37- Wiliam of Tyre, A history of deads done beyond the sea, 2 vols, New York, 1943.

38- Wiliam, Albert, The Holy city, New York, 1954.

39- Wright, Thomas, Early travels in Palestine, New York, 1968.

40- Wiliett, (H.) The jew through the centuries, New York, 1932.

41- Ziadeh, Nicola, urban life in Syria, Beirut, 1953.

42- Levant, vol. III1971, vol. VI 1974, vol. VII 1975, vol. XI 1979.

http://www.al-maktabeh.com

http://www.al-maktabeh.com

فهرس المحتويات

الاهداء ٥

المقدمة ٧

الباب الأول

الاحتلال الفرنجي (الصليبي) للقدس ثم الجهاد والتحرير

أحوال بلاد الشام في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ١١

سقوط القدس بيد الفرنجة في الحملة الفرنجية الأولى ١٦

تأسيس مملكة بيت المقدس اللاتينية ٢٣

الصحوة والإفاقة وصيحة الجهاد ٢٧

الجهاد والوحدة وتحرير القدس ٣١

الخلاف بين الملوك الأيوبيين وتسليم القدس للفرنج ٤١

تحرير القدس على يد الناصر داود أمير إمارة الكرك الأيوبية ٤٣

تطهير وتحرير الساحل الفلسطيني من الفرنج ٤٦

الباب الثاني

القدس في عصر المماليك «دراسة حضارية»

الفصل الأول: النيابة وتأسيسها ٥٧
(1) تأسيس نيابة بيت المقدس ٥٧
(2) دار النيابة ٦٧
الفصل الثاني: الوظائف في نيابة بيت المقدس ٧٣
أولاً : الوظائف العسكرية (أرباب السيوف) ٧٥
(2) الوظائف الدينية ٨٢
(3) ثالثاً : الوظائف الديوانية ٩٥
(4) رابعاً: جيش نيابة بيت المقدس ٩٧
(5) خامساً: القلعة ١٠٢
(6) سادساً: ولاية نابلس والرملة والخليل ١٠٦
الفصل الثالث: الحياة الاقتصادية في نيابة بيت المقدس ١١٦
(1) الزراعة وإقطاع الأراضي ١١٧
(2) التجارة الداخلية والخارجية ١٣٠
(3) المكاييل والأوزان ١٤٧
(4) السكة ١٤٩
(5) الموارد المالية في النيابة ١٥٤

http://www.al-maktabeh.com

(6) الأوقاف ١٦١

الفصل الرابع: النشاط السكاني والمؤسسات الاجتماعية ١٨٢

(1) الديمغرافية وعناصر السكان ١٨٣

(2) الدور والحارات وطبوغرافية المدينة ١٩٧

(3) المؤسسات الاجتماعية في النيابة ٢٠١

الفصل الخامس الحياة العلمية في النيابة ٢١٠

(1) ازدهار الحركة العلمية في القدس في العصر المملوكي ٢١١

(2) المدارس ٢١٧

الأعمار المملوكي في القدس ٢٥٥

ملاحق البحث ومصادره ومراجعه ٢٥٩

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين